مع

القرآن الكريم

رؤية مستنيرة لحقائق

سيرة النبى وبرهان الإيمان
واللغة العربية والتدبر
والمجتمع وبنى إسرائيل
فى كتاب الله

العدد السادس
طبعة أولى
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

إعداد: عبد الفتاح عساكر

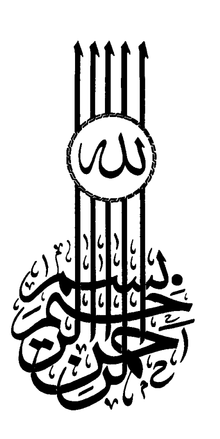
يصدرها المركز الثقافى
المقاولون العرب
عثمان أحمد عثمان وشركاه
٣٤ ش عدلى القاهرة

صدر عن المركز الثقافي

المقاولون العرب

عثمان احمد عثمان وشركاه

العدد	التاريخ
العدد الأول — طبعة أولى	١٢ ربيع الآخر ١٣٩٣ — ١٥ مايو ١٩٧٣
العدد الأول — طبعة ثانية	٢٠ رمضان ١٣٩٤ — ٦ أكتوبر ١٩٧٤
العدد الثاني — طبعة أولى	١٢ ربيع أول ١٣٩٤ — ١٥ أبريل ١٩٧٤
العدد الثالث — طبعة أولى	١٤ رجب ١٣٩٥ — ٢٣ يوليو ١٩٧٥
العدد الرابع — طبعة أولى	٢٥ رجب ١٣٩٦ — ٢٣ يوليو ١٩٧٦
العدد الخامس — طبعة أولى	٦ شعبان ١٣٩٧ — ٢٣ يوليو ١٩٧٧
العدد السادس — طبعة أولى	١٠ رمضان ١٣٩٨ — ١٤ أغسطس ١٩٧٨
العدد الأول — لأبناء العاملين	١٨ شعبان ١٣٩٨ — ٢٣ يوليو ١٩٧٨
العدد السابع والثاني — لأبناء العاملين	تحت الطبع



مع

القرآن الكريم

رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة

الإهداء

إلى عباد الرحمن:

"الذين يمشون على
الأرض هونًا وإذا
خاطبهم الجاهلون
قالوا سلامًا"

المقدمة

بحمد الله الكريم ، وبتوفيقه وهداه ، يسعدنى ان اقدم للقارىء العزيز على ارض امتنا العربية المؤمنة ، وباتساع العالم الاسلامى الكبير ، هذا العدد ((السادس)) من سلسلة الكتب المخصصة للمسابقات القرآنية ، التى يصدرها سنويا المركز الثقافى بشركتنا ((المقاولون العرب عثمان احمد عثمان وشركاه)) .

فى صحبة القارىء العزيز للقرآن الكريم فى هذا العدد ((السادس)) ستتاح له بالاطلاع على ابحاثه الجديدة ، هذه الرؤية المستنيرة ، لحقائق سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وبرهان الايمان ، واللغة العربية ، والمجتمع ، والتدبر ، وبنى اسرائيل ، فى ضوء كتاب الله .

وكعادتنا فى كل كتاب نقدمه من هذه السلسلة الطيبة ، يطالع القارىء الكريم دائما بحوثا جديدة لم يسبق للعلماء السابقين ان تعرضوا لها ، من حيث انها مشكلات عصرية تواجه المسلمين ، وتتحدى تمسكهم بايمانهم ، واعتصامهم بكتاب الله .

وهذه البحوث الجديدة التى نلقى بها ضوء القرآن الكريم ، على هذه المشكلات العصرية ، تعتمد فى صحة دليلها ، وسلامة اتجاهها ، من اجل تربية الاجيال الجديدة ، وتحصينها ضد الغزو الفكرى — على البرهان العلمى المستند الى نص قرآنى ، او

حديث شريف — بحيثتكون هذهالبحوث فيمحتواها ومضمونها حجة على كل عاقل ، وحجة له : وهي توضح له بالبيــان والبرهان ، ان كثيرا من المعلومات التي تنتسب الى الدين ، او التي تتنكر له : معلومات مدسوســة على المسلمين ، وليس لها سند تعتمد عليه ، الا الخرافة والادعاء بالعلم .

وعندما اعطى القارىء الكريم مثالا واحــدا على ما اندس الينا منالخرافات والاسرائيليات ،والغزوات الفكريةالمعاصرة، اذكر هذه القصة المدسوسة على المسلمين منذ عصور طويلة جاءت بعد العصر الاسلامي الزاهر على عهد الرسول الكريم ، وصحابته الابرار ، وخلفائه الراشدين ، وهذه القصة التي تزعم — استنادا الىبعض ما ورد فياسفار بني اسرائيل — ان السيدة الطيبة والحرة والمحصنة ، الكريمة الحسب والنسب، زوجة ابراهيم ، وام اسماعيل عليهما السلام : كانت جارية مصرية اهداها ((فرعون مصر)) الى ابراهيم فتزوجها حسب مشورة السيدة ام اسحاق،وانجب منها اسماعيل،ثم حدثت الغيرة من ولدها في قلب السيدة ام اسحاق ، وبعد ان انجبت اسحاق ، فامرت ابراهيم عليه السلام بطردها هي وابنهــا اسماعيل في الصحراء فاذعن ابراهيم لأمرها ... وفعل ذلك !!

ان مثل هذه القصة المختلقة من اساسها ، والمتناقضة مع حقائق التاريخ ، واخلاق الرسل ، والمتناقضة اساسا — وهذا هو المهم بالنســبة للعرب المسلمين من ابنــاء اسماعيل — مع استحالة ان تكون ام اسماعيل ، وام العرب ، وجدة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام — جارية جرى بحكم عبوديتها ما يجرى على كل جارية من الابتذال ، والامتهان ! ؟

ان مثل هذه القصة المدسوسة التي لا تزال تظهر — مع كل الأسى والأسف — في كتب علمائنا ، عندما يتناولون قصص الرسل ، او يتحدثون عن تاريخ اقامة بيت الله في مكة،وهو

البيت المحرم الذى اقامه ابراهيم ، واسماعيل ، ليكون الحج اليه ركنا من اركان الاسلام . ان مثلهذه القصة الخرافية المختلقة ــ تتنافى مع نص الآية القرآنية فى قوله تعالى : ((ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابرآهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)) آل عمرآن الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

وقوله تعــالى : ((الله يصطفى من الملائكة رســلا ومن الناس)) الحج آية ٧٥ .

وتتنافى مع نص الحديث الشريف الذى يؤكد النبى به حقيقة اصطفائه منذ آدم ــ عليه السلام : ((بعثت من خير قرون بنى آدم ، قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيــه)) . اخرجه البخارى .

ويقول صلى الله عليه وسلم ((ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم)) . رواه مسلم

ويقول صلى الله عليه وسلم : (خرجت من نكاح ولم اخرج من ســـفاح من لدن آدم الى ان ولدنى ابى وأمى) رواه الطبرانى .

بهذه الحقيقة التىتؤكدها قوانين علم الوراثة ، والتى كان العرب الذين حرصوا على التكافؤ الاخلاقى :على اساس الحرية والحصانة والمعروف ، على علم بها ،فى حرصهم على تنقية انسابهم وتزكيتها .صح للنبى الكريم ان يكون(المصطفى) بآبائه وامهاته الىاسماعيل بن ابراهيم ابا ، والى ام اسماعيل الحرة المحصنة امــا .

ولقد تصدى لابطال هذه الخرافة المهينة ــ فى حق ابينــا اسماعيل عليه السلام ، وفى حق العرب جميعا ــ هذا البحث القيم ، وغير المسبوق : للكاتب الاسلامى احمد موسى سالم ،

والذى نشرناه فى العدد السابق : وهو العدد «الخامس» من هذه السلسلة القرآنية المباركة .

والآن ادعو القارىء الكريم الى ان يطالع ويتدبر بحوث هذا العدد وهى :

● القرآن الكريم وسيرة النبى :

وفيه تحدد بعشر صفات بارزة،وصف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، معالم سيرته الشريفة فىالقرآن الكريم،وهى الصفات التى نعتبرها ــ وهى اساس انتصار الدعوةالاسلامية ــ مقياسا صادقا نحكم به على مدى ما فى كتب السيرةالتى ظهرت فى مختلف العصور من قرب الى الحقيقة ، او بعدها عنها ، وبذلك تبقى السيرة فى القرآن الكريم ، حافظة بغير تحريف للحقائق التى يجب ان تستوعبها ، وان تعيهـــا اجيال المسلمين عن حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فى نشاته ودعوته وجهاده واسوته : « لقد كان لكم فىرسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » الاحزاب : آية ٢١ .

● القرآن الكريم وبرهان الايمان :

● وهذاالبحث ينشر لأول مرة حول طبيعة هذا « البرهان العلمى » الذى لا يتحقق بغيره يقين المؤمن بأن الله الذى يؤمن به ــ رغبة ورهبة ــ هو الله الحق الذى لا اله الا هو ..

● القرآن الكريم واللغة العربية :

وهو امتداد فى بحثين ــ لاثنين من العلماء المتخصصين فى تدريس اللغة العربية ــ لهـــذه البحوث التى حـــرصت هذه السلسلة ، من الكتب القرآنية،على ان تساند الاتجاهالصحيح لاستعادة اللغة العربية الفصحى ، وهى اللغة التى تحيا بها الحقائق الاسلامية والأخلاقية ، والعلمية ، فى حياة المسلمين،

بديلا عن هذه اللغة العربية المختلطة ، التى لا تزال تسيطر على السنة المثقفين ، والدعاة ، فتباعد بينهم وبين اللغةالمبينة: الميسرة للانتشار ، والتى لايمكن أن يتم بغيرها قيام وحدة وطنية او قومية .. ((انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)). الزخرف : آية ٣ .

● القرآن الكريم والتدبر :

وهذا البحث ايضا : امتداد لبحث سابق نشرناه فى العدد الخامس من هذه السلسلة القرآنية ، حول زيادة الايضاح لهذه الوسائل والظروف: التى تتم فى اطارها،صحة التدبرلآيات القرآن الكريم،والتى يتيسر بها تلافى هذا القصور ، عن نعمة التدبر المباشر دون اللجوء الى كتب التفاسير مع اختلافهما وتضاربها ، الأمر الذى أصبح المسلمون — على طريق وحدة الاعتقاد وسلامته — فى أشد الحاجة اليه : ((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)) القمر : آية ١٧ .

● القرآن الكريم والمجتمع :

وهو بحثيتجدد به التاكيد على ان مجتمع المؤمنين يقوم دائما — كما قام على عهدالنبى صلى الله عليه وسلم — على أساس التكامل والتوحد فى نظام ودولة وشريعة ، كما يقدم تحليلا لاسباب قوة المجتمع الاسلامى ، وما يمكن ان ياخذ به المسلمون المعاصرون ، لتهيئة المناخ الصالح لقيام هذا المجتمع من جديد.

● القرآن الكريم وبنو اسرائيل :

بحث جديد يشمل الكثير من الحقائق، التى تفتقد اليها الثقافة العربية المعاصرة ، عن تاريخ بنى اسرائيل ،ومراحل شتاتهم، وعن مراحل نشاة الصهيونية العالمية المعاصرة فى اوروبا ، تجديدا لحياة واهداف الصهيونية القديمة..ثم عن هذا الانتصار

المدوى فى ارجـاء العـالم لدعوة « السلام » المؤسس على العدل ، كما دعت اليه باسم الحق والعدل والدين والاخلاق: مصر العربية المؤمنة،الصابرة المجاهدة :المنتصرة باذن‌الله .

وكما تحقق لنا ،بفضل صدقنا ومثابرتنا ـانجازهذا(الاطار) لمبادىء الاتفاق الشامل لهذا السلام العادل : الذى تتوقف به ويلات الحرب ، ويتفرغ شعبنا الطيب المؤمن‌المتحضر، لاعادة بناء حياته من جديد ، فى ظـل الامن والسلام ، وفى ضـوء « العلم والايمان » .

ومرة اخرى :

تحية تقدير ، للقارىء الكريم ، باتساع وطننـا العربى ، والعالم الاسلامى ،ولرجال الجامعات‌المصرية اساتذة ومعيدين الذين جعلوا سلسلة الكتب التى يصـدرها « المركز الثقـافى بالمقاولين العرب » ، مرجعا لطلبة الجامعات فى دراساتهم ، وادعوهم ليطالعوا ويتدبروا هذه البحوث الاسـلامية التى تنشر،لاول مرة باللغة العربية ، وهى تستهدى بالقـرآن الكريم : والحديث الشريف والعقل المتبصر :قضـايا العصر وكل عصر .

- ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .
- ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا .
- ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهبلنا من لدنك‌رحمة.
- ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى امرنا .
- ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين .
- ربنا افرغ علينا صبر وتوفنا مسلمين .
- ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

والحمد لله رب العالمين .

عبد الفتاح عساكر

القاهرة فى { ١٠ رمضان ١٣٩٨ هـ
{ ١٥ أغسطس ١٩٧٨ م

بحوث القسم الأول

القرآن الكريم
وسيرة النبيّ

يجيب عنه

الدكتور مصطفى حسين
مدرس الدراسات الأدبية
بكلية البنات بجامعة عين شمس

السؤال الأول :

« اذكر عشر صفات من الصفات البارزة التى وصف الله بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم .

تحدث عن دلالة هذه الصفات الكريمة فى سيرة النبى صـــلى الله عليه وسلم ، وعن آثارها فى نجاح الدعوة الاسلامية ، وفى ألفة قلوب المسلمين بالاسلام ، مع ذكر الآيات التى وردت بهـــا هـــذه الصفـــات » .

الإجابة :

لمـــا كان محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين ، والداعى إلى الله بالدعوة الباقية من بعده فى بيان القرآن الكريم ، وقيام المجتمع المؤمن ، وأسوة النبى القائد ، وانتصار الإسلام الحنيف ، فقد جمع الله له من مكارم الأخلاق – عن طريق صفوة الاصطفاء – صفوة ما وهبه لمن سبقه من الأنبياء والرسل ، وقد أجمل القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » . القلم : آية ٤ .

وإذا كان لنا فى الإجابة عن هذا السؤال أن نختار عشر صفات من بين هذه الصفات البارزة التى وصف بها رسوله المصطفى فى القرآن الكريم ، والتى كانت فى كتاب الله تفصيلا لمـــا أجمله الله من مكارم أخلاقه بالإشارة إلى « خلقه العظيم » فقد اخترنا الصفات العشر التالية من حيث أنها الأقرب فى دلالتها ، وفى تتابعها ، على المعالم البارزة فى سيرته الشريفة ، كما أحاط بها وأبرزها القرآن الكريم وهى :

١ — اليتيم — ٢ — المدثر — ٣ — خاتم النبيين — ٤ — رؤوف رحيم — ٥ — من أنفسهم — ٦ — على خلق عظيم — ٧ — المهاجر — ٨ — المجاهد — ٩ — الأسوة الحسنة — ١٠ — الشاهد والشهيد عليهم .

ونتحدث فيما يلي عن دلالة هذه الصفات بشهادة السيرة الشريفة في القرآن الكريم ، وفي التاريخ ، وعن آثارها في نجاح الدعوة الإسلامية ، وذلك بقيام المجتمع المؤمن لأول مرة متكاملا بطبيعته في شريعة ونظام ودولة ، مع ألفة قلوب المسلمين ووحدتهم بالإسلام .

١ — اليتيم :

ولد النبي — صلى الله عليه وسلم — يتيما : فقد أباه ، وهو في بطن أمه ، ثم فقد — في نحو السابعة — أمه . وكان يتمه لحكمة أرادها الله ، الذي يصنع أنبياءه على عينه . فليس يتمه ضرباً من المصادفات ، ولكنه تدبير إله حكيم .

وقد عطف عليه يتمه قلوباً ساندته في دعوته ، إذ كفله جده ، ثم كفله — بعد جده — عمه . فصار لمحمد — صلى الله عليه وسلم — أكثر من أب في قريش . ومن هنا زادت علاقته توثقاً ، وانتماؤه لقريش عمقاً .

ولنأخذ من سيرته — صلى الله عليه وسلم — ما يؤكد ذلك : فقد حكى ابن هشام — أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ، فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأتي وهو غلام ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ،

فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : « دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا » ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه » .

وهكذا أحاطت القلوب بمحمد من طفولته ، فلم يلحقه من يتمه انكسار أو ضعف ، ومن هنا سلمت نفسه كما أرادها الله .

كذلك أكسبه يتمه من الخبرات والتجارب الشيء الكثير . فإن مرضعته بالبادية حليمة السعدية ، وسعته بالحب ، وحاطته بالرعاية ، فاكتسب بمخالطته بنى سعد — قوم حليمة — والمشافهة لأبنائها ، فصاحته وبلاغته التى بلغت شأواً بعيداً من السمو . كما اكتسب برفقة عمه خبرات أخرى عن طريق التجارة والرحلة مرتين إلى الشام ، وإظهار كفاياته العقلية والخلقية بين قومه من قريش .

وهكذا خبر محمد بالتجارة قريشاً — كما خبرته قريش ، وفهم من أسرار النفس والعلاقات مالم يتهيأ لسواه . ومن رحلتى الشام عرف عالماً جديداً كان من اللازم له أن يعرفه ، حتى يكون على بصيرة بأكثر الأرض ، التى ستمتد إليها دعوته ، وحتى تتوثق علاقته ببيت المقدس ، وهو يشهد حواليه الصراع العسكرى والسياسى الدائر على أرضه بين الروم والفرس ، بينما هو فى قدسيته التالية لقدسية المسجد الحرام باب الأمن لبيت الله ، ومركز الدفاع الأول عنه .

وهكذا كما قلنا لم يسلمه يتمه إلى انكسار وهوان ، أو إلى تدليل ودعة . وإنما كان مدرسة كبيرة لتكوينه وإعداده ، من لدن ربه عز وجل .

ولقد وهبه هذا اليتم رهافة حس ، ورقة شعور ، وشفافية وجدان ،

فاقترب أكثر من ربه ، واستشعر رعايته له من خلال كل ماهيأه له من ظروف الرعاية : وليداً ويافعاً وشاباً . ومن هنا فقد عبد محمد ربه كما لم يعبده شاب من قريش ، أو غير قريش من قبائل العرب ، بل كما لم يعبده نبى قبله

وأوتى محمد اليتيم عطفاً على اليتيم ، وحدباً عليه . بل أوتى صلى الله عليه وسلم – عطفاً على كل ضعيف ، ومسكين ، وسائل ، هم أشبه بيتامى المجتمع . .

وهذا كله بعض ما عناه سبحانه بقوله :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائلاً فَأَغْنَى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » . الضحى : آية ٦ – ١١

٢ – المدثر :

خاطب القرآن الكريم النبى – صلى الله عليه وسلم – بقوله فى المرحلة الأولى من نزول الوحى :

« يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فكَبِّر. وَثِيَابَكَ فَطَهِّر ، وَالرُّجْزَ فَاهجرُ. وَلَا تمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . ولرَبِّكَ فَاصْبِرْ » المدثر : آية ١–٧

كما خاطبه بلفظ المزمل فى قولى تعالى :

« يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُم اللَّيْلَ إِلاَّ قَليلاً نصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَليلًا.

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِى أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً » المزمل : آية ١ – ٦

وهذه المخاطبة بصفتى المدثر ، والمزمل ، ليست مجرد تقرير لمظهر ، بل هى تقرير لموقف ، ووصف له مغزاه العميق . إنها أمر ضمنى له بالمجاهدة والمواجهة الشجاعة لمسئوليات الوحى الجسام . ونهى عن الدعة والدهشة والخوف من الأمر الذى كأنه فوجىء به مع تمام استعداده له ، إشفاقا من تبعاته الجسام .

ولهذا فالوصف بالمدثر ، والوصف بالمزمل ، جاءت بعدهما طائفة من الأوامر والنواهى : فعقب « يأيها المدثر » أمر بالقيام للإنذار ، وتكبير الله ، والطهارة ، وترك المعصية ، والنهى عن المن بالعطاء .

وفى أعقاب مخاطبته بالمزمل ، أمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وذكر الله ، والانقطاع إليه . ووراء ذلك كله .

« إنا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلاً »

هكذا كانت مواجهة القرآن الكريم للنبى الكريم بجسامة التبعة ، وثقل القول ، وعظم الدعوة والرسالة منذ أول اشراق شمس الحقيقة بنبوته الخاتمة ، ونزول الوحى بالقرآن الكريم إليه .

إذن : فلاينبغى لجوء إلى دثار ، أو تزمل بغطاء ، حين نزل الوحى عليه ، فاشتد الخوف به ، وتملكه ارتعاد شديد . وهذا الوصف للنبى : المدثر والمزمل يشعرنا بجلاء حقيقتين :

الأولى : بشريته .

والثانية : نبوته .

فأما بشريته ، فتبدى فى هذا الخوف الذى تملكه — صلى الله عليه وسلم — حتى فزع إلى زوجه خديجة — رضى الله عنها — وهو يقول : « دثرونى . دثرونى » وندع البخارى — فى صحيحه — يروى لنا بسنده ، حديث الوحى ، على لسان نبيه ، فيقول :

« جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى ، هبطت . فنوديت ، فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى ، فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى ، فلم أر شيئاً . فرفعت رأسى ، فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة ، فقلت : « دثرونى ، وصبوا على ماء باردا » قال : « فدثرونى . وصبوا على ماء باردا . قال : « فنزلت « يأيها المدثر . قم فأنذر » . . »

لقد عرض القرآن إذن لحالة من الحالات التى تنتاب البشر مهما كانت قوة احتمالهم ، متمثلة فى خوفه من أعباء النبوة ، وهذا الخوف كثيراً ما أشار إليه القرآن الكريم فى عرضه قصص الأنبياء .

فموسى يقول — حين أمره ربه بالتوجه إلى فرعون لإنذاره :

« قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ »

القصص : آية ٣٣

كما أفصح موسى وهارون أخوه عن خوفهما بقولهما :

« رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى » . طه : آية ٤٥

وهكذا صور القرآن خوف موسى فى مواضع أخرى :

« فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » . طه آية : ٦٧

« قُلنَا لاَ تَخَفْ إنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى » . طه آية ٦٨

وكما صور القرآن مخاوف موسى ، صور أيضا مخاوف أنبياء آخرين فيقول عن لوط — عليه السلام — على لسان ملائكته :

لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحزَنْ إنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إلاَّ امرأَتَكَ » العنكبوت : آية ٣٣

وعن داود :

« إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ منهُم . قَالُوا لاَ تَخَفْ » . ص:آية٢٢

وعن إبراهيم فى لقاء الملائكة عند لوط :

« فَأَوْجَسَ منْهُمْ خيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عليمٍ »
الذاريات : آية ٢٨

إن هذه الأعراض البشرية فى سلوك الأنبياء ، ليست إلا لحظات عارضة ، يؤكد بها القرآن بشرية الأنبياء ، حتى لا يتوهمهم الناس آلهة أو ملائكة ، وهناك حكمة أخرى فى تصوير هذا الضعف البشرى ، هو تأكيد مساندة الله لأنبيائه فى الشدائد ، وشده من أزرهم ، ونصرهم ، وإنزال السكينة فى نفوسهم . حتى يزول عنهم كل خوف فى مثل قوله تعالى :

« إنِّى لاَ يَخافُ لَدَىَّ الْمُرسَلُونَ » . النمل : آية ١٠

تبقى الحقيقة الثانية فى وصف النبى بالمدثر ، وهى نبوته — صلى الله عليه وسلم — ففى هذا الوصف معنى الأمر بالمجاهدة والمواجهة ، كما قلنا : فإن الشوط طويل ، لا تستطيع نفوس لاهثة مبهورة الأنفاس ، أن تقطعه . .

وهكذا تنطوى صفة « المدثر » على معنى الضعف ، وعلى معنى القوة أيضاً ، وكلاهما « معنى الضعف ومعنى القوة » يصلان نبياً كريماً برب رحيم قدير .

ولقد ترك محمد — صلى الله عليه وسلم — دثاره وغطاءه ، مستجيباً لأمر ربه عز وجل . ونهض ليضطلع بكل تبعات الدعوة ، من مبعثه إلى وفاته . وبهذا ترك أبلغ أسوة فى أصحابه ، وهى أسوة الرجولة القوية المجاهدة ، التاركة للخوف والدعة ، المواجهة للتبعات دون تسويف ، ومن هنا وصف القرآن للمؤمنين بالرجال : فقال :

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » الأحزاب : آية ٢٣

وهكذا كانت نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — عملا دائما خالصا من أجل الله تعالى . فنبوته كانت حياة مكابدة ومجاهدة وقوة كما يشير القرآن الكريم فى أوائل نزوله :

« فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ » الشرح : آية ٧ و ٨

٣ — خاتم النبيين :

أى فلا نبوة بعد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا الختام يحمل كل صفات السمو والاكتمال فى نبوة محمد وفى دعوته ، كما نص القرآن فى ختامها بقوله تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » . المائدة : آية ٣

لقد كانت الديانات – قبل الإسلام – تمثل المراحل المتتابعة من إصرار أهل الغنى والفساد والنعيم الطائل على كفران نعمة الله ، ورفض دعوة الرسل ، ثم جاءت الدعوة الإسلامية ، لتمثل تمام النضج للأمة التى أعدها الله بملكة البيان حول بيته لتتدبر كتابه وتؤمن .

ثم أحاط الله الإسلام بالصون والحفظ والرعاية ، فبقى القرآن تاماً كاملا ، لم يداخله زيف أو تحريف ، كما حدث لسائر الكتب التى سبقته . وحكمة الله فى ذلك واضحة ، ودلالته على وعى الأمة التى اجتباها للإيمان وطاعة خاتم رسله ظاهرة .

فالدين الفطرى الصالح للبشر فى كل عصر هو الباقى ، وهو المصون برعاية الله ، والعقائد المحرفة أو الموضوعة تزول بزوال ظروفها ودواعيها .

وهكذا صار نقص هذه الديانات حجة على من لم يؤمنوا برسالة الإسلام عند ظهورها برغم إدراكهم لها ، وبلوغها إياهم .

على أن هذه الصفة : (خاتم النبيين) يتقرر منها مغزى عميق ، وهى أن القرآن الكريم آية مضيئة ممتدة باقية ، وليس آية موقوتة تنقطع آثارها بمرور الزمان .

إن من آيات الله لموسى إلى فرعون عصاه ، وآية الله لعيسى بين اليهود إحياء الموتى وإبراء المرضى بإذن الله . وكلتاهما آيتان تتصفان بصفتين :

الأولى : أنهما ترتبطان بوقت معين ولهدف معين .

الثانية : أنهما تقفان عند حدود الدلالة على أن الرسول مرسل حقاً من عند الله القادر . فأما القرآن الكريم فهو مع دلالته على الله ، وعلى صدق الرسول لمن نزل إليهم من قوم النبى فقد أصبح ببيانه العربى

المبين يحمل هذه الدلالة لكل زمان يعى أهله هذا اللسان ، ويكونون أهلا للإيمان لمـا فى شرعه من المنهاج لهذا الإيمان ، فى حياة حرة ، مطهرة ، يتوحد فيها الدينى والدنيوى ، والأرضى والأخروى .

كما أن القرآن ليس مجرد آية تحمل الناس على الانبهار بكلام الله دون تدبره ، بل هو مع صورته المثلى للبيان اللغوى المنقطع النظير ، صورة مثلى للهداية ، وصورة مثلى للتشريع الكامل ، والعقيدة السمحة ، والحكمة البالغة ، والدعوة المشرقة على قلوب المؤمنين من العدل ، والبر ، والإحسان ، ومكارم الأخلاق .

ومن هنا يظل الباب مفتوحاً أمام المتدبرين فى معانى القرآن الكريم ، والمتدبرين فى كلمه ، وأسلوبه ، وبيانه العربى الناصع ، المنزه عن كل مشابهة ومناظرة .

ومن هنا أعان القرآن الكريم أيضاً — عبر تاريخ المسلمين — على حماية مبدأ « خاتم النبيين » والرسالة الخاتمة ، فحارب أبو بكر الصديق مدعى النبوة ضمن من حاربهم من المرتدين ، ولم يكن الهدف فى هذه الحرب كالهدف فى سائر الحروب السياسية ، والمذهبية ، فهذه الحروب تستهدف فرض مبادىء وضعية ، وحماية مصالح طبقية بكل السبل . أما أهداف حروب الردة ، فكانت حماية مبادئ صحيحة ، وعقائد منزلة ، تضافرت قوى للتصدى لها ومحاربتها . وكانت هذه القوى تجندها وتحرضها وتحميها قوى الروم والفرس ، الذين أدركوا بعد وحدة عرب الجزيرة بالإسلام أن الإسلام يهدد سلطانهم ، ومصالحهم ، فوق ماكانوا يحتلونه ويبتزونه من أرض الوطن العربى .

وإذا كان أدعياء النبوة فى كل زمان يتذرعون بالشعوذة والدجل والخرافة ، ولا يرفعون راية المبادىء التى تحترم العقل ، وتسعى لمصلحة الإنسان ، فإن الكشف عن دجلهم ، وشعوذتهم ، أمام المخدوعين بهم ، لا يتم إلا فى نور كتاب باق على الزمن من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو القرآن الكريم .

وهذا بعض ما عناه الله تعالى بمثل قوله :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ . وَلَكِنْ رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . الأحزاب : آية ٤٠

٤ – رؤوف رحيم :

وقد وردت تلك الصفة فى أكثر من آية كريمة . من بينها :

قوله تعـــالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » الأنبياء : آية ١٠٧

وفى قوله تعالى :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ » آل عمران : آية ١٥٩

وفى قوله تعالى :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » . التوبة : آية ١٢٨

وتبدو رحمة النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم – فيما يلى :

(١) دعوته إلى الله بالحسنى واللين .

(٢) حرصه الشديد على إيمان قومه وتصديقهم .

(٣) وصف الله تعالى للقرآن – وهو منهاج للرسول – بالرحمة :

١ – فأما دعوته بالحسنى واللين ، فقد كسبت له الأنصار المؤمنين ، حتى سمى هؤلاء المؤمنون المتبعون لما جاء به بالصحابة . ومعروف ما فى الصحبة من قرب ومودة وحب . وقد وصف القرآن الكريم أبا بكر بهذه الصفة : صفة الصحبة ، حين تحدث عن النبى فى الغـــار .

« إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » التوبة : آية ٤٠

٢ – وأما حرص النبى على هداية قومه ، وبذله قصارى الجهد فى ذلك ، فيتمثل فى قوله تعالى يخاطبه – صلى الله عليه وسلم :

« حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رحِيمٌ » التوبة : آية ١٢٨

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحرص فى مثل قوله سبحانه :

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » . هود : آية ١٠٣

وفى قوله تعالى :

« فَإِنَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَاتُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » . الروم : آية ٥٢

وفى قوله تعالى :

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » الكهف : آية ٦

وهذا المعنى تكرر على نحو قريب ، فى قوله تعالى :

«لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِين» الشعراء : آية ٣

وهذه الرحمة فى خلق النبى محمد ، قد انتقلت — بالتأسى — إلى صحابته ، وبذلك صار التراحم والود مبدأ اجتماعياً ربط بين أواصر الجماعة الإسلامية ، وجعل الجماعات الأخرى تتطلع إلى الإسلام تطلع المؤمن بضرورة الإسلام لحياته .

وصدق الله إذ يقول :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »

الأنبياء : آية ١٠٧

٣ — وفى وصف الله تعالى للقرآن بأنه رحمة مغزى عميق . ذلك أن القرآن منهاج الدعوة الإسلامية . فإذا كان الكتاب الداعى إلى الله رحمة ، فمن الطبيعى أن يكون الرسول الداعى به رحمة أيضاً . حتى يتحقق التناسق بين دعوة الله والداعية إليها .

ومن هذا الوصف لكتاب الله الذى جعله للناس آية هدى ورحمة يتجلى هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » الأعراف : آية ٥٢

وفى قوله تعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى ورَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ» النحل :آية ٨٩

٥ — من أنفسهم :

أى : منكم أى مثلكم من أبناء ابراهيم واسماعيل ، وقد جاء يدعوكم إلى ما تركه فيكم من دينه ، ومنكم أيضا فهو بشر مثلكم .

فهو إذن بشر مثلكم ، وليس ملكاً .

وهو الرسول الذى كنتم تنتظرونه بعد دعاء إبراهيم وإسماعيل من بينكم ، ومن أوسطكم . وهو بشر أيضاً مثلكم ، وتلك من دواعى رحمة الله بعباده .

ومن هنا ترد الآيات الكريمة تؤكد بشرية محمد — صلى الله عليه وسلم — وأنه « من أنفسكم » أى ذرية من اصطفى الله لرسالاته فى قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

آل عمران: آية ٣٣ و ٣٤

كل هذه معان ترد فى القرآن الكريم ، وصفاً لأنه من أبناء إبراهيم وإسماعيل ، وتأكيداً لبشريته التى تؤكد ارتباط النبى بربه ، وقيام ربه على السمو ببشريته ، واصطفائها ، حتى تكون دائما فى مقام التأسى والاقتـــداء .

ولنستمع إلى بعض هذه الآيات الكريمة :

« قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ » الأنعام : آية ٥٠

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»

الكهف : آية ١١٠

وأما كون محمد عربياً من أبناء إبراهيم وإسماعيل ، فتلك صفة تلزم العرب كل حجة ، وبخاصة قريش الذين كانت لهم الرئاسة الدينية على كل العرب فى جوارهم لبيت الله قبيل الإسلام ، والذين صاروا بإسلامهم قادة المسلمين خلال نحو سبعة قرون هى عمر الدولة العربية الإسلامية ، وعمر حضارتها ، وفى هذا الانتماء الذى استجاب الله به إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل يقول الله تعالى :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ »

البقرة : الآيات ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩

فهذا هو محمد غير مجهول النسب والحياة والسيرة . وهم لم يعهدوه ، قبل البعث ، كاذباً ولا كاهناً ولا ساحراً ولا شاعراً . ولم يعهدوه صاحب مطمع فى جاه أو سلطان . فهو منهم ومن أنفسهم ، فلماذا التكذيب له إذن ؟

وهو منكم ، يكلمكم بلسانكم ، ويتلو عليكم آيات الوحى بلسان عربى غير ذى عوج ولا غموض . وهو يدعوكم بدعوة إبراهيم . وأنتم

— أيها العرب — أدرى الناس بإبراهيم وبدعاء إبراهيم ، وإبراهيم الذى تعرفونه نسباً ودعوة لم يكن إلا حنيفاً مسلماً .

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا» .

وهكذا كان حتاً على الله أن ينصر من نصروا الله ورسوله ، وهو الذى اجتباهم لما هداهم إليه وذلك فى قوله تعالى تأكيداً لكل ما سبقت الإشارة إليه :

« هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » الحج : آية ٧٨

٦ — على خلق عظيم :

وقد امتدح الله تعالى نبيه فى كتابه بهذه الصفة الجامعة لكل الفضائل وذلك فى معرض مخاطبته . وفى إطار التوكيد لهذه الصفة ، فقال تعالى :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم » . القلم : آية ٤

ومن بين هذه الفضائل : الرحمة ، والصبر ، والعفو ، والبر بالأقربين ، والإخلاص ، وخفض الجناح ، والطاعة لله ، والصدق ، وقوة العزيمة ، إلى غير ذلك من السجايا التى سمت بنبوته ، وببشريته ، فجعلته محموداً عند الخالق وعند الخلق على السواء .

وهذا الثناء على النبى يلخص لنا فضائله ومراحل سيرته الشريفة ، صلوات الله وسلامه عليه . فقد لقبه قومه — قبل بعثه — صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين ، وشهدوا له بالعدل وسداد المشورة ، وارتضوا حكمه فى أمر نقل الحجر الأسود . وكان هذا الحكم إرهاصاً يدرك العقلاء مغزاه ، فهو حكم نبى يجمع — فى مستقبل الأيام — قبائل العرب المتفرقة .

وقد أولاه قومه ثقتهم ، حين عهدوا إليه بأموالهم ، ليثمرها لهم فى التجارة ، وكانت خديجة رضى الله عنها ممن عهدوا إليه بهذه الأموال فى تجارتهم . وليست تجربة الرجال فى الأموال بالهينة . فهى جديرة بأن تكشف عن معادنهم ، وسجايا نفوسهم ، وفى مقدمة هذه السجايا العفة والأمانة . ونحسبهما يلخصان لنا أرفع شمائل النفس .

وهذا الخلق العظيم لم يأت — كما أكدنا فى أكثر من موضع — عرضاً صنعته المصادفات ، بل هو تدبير الله المحكم ، الذى اصطفى لرسوله خير الأخلاق من خير الآباء والأمهات ، كما جاء هذا المعنى وهو أنه « خيار من خيار من خيار » فى أكثر من حديث ، فأولته خديجة ودها وآمنت به وبرسالته ، وبذلت له ولدعوته من مالها ما أعانه الله به .

وكذلك منعت عنه أذى المشركين من عشيرته إلى سنوات كسب فيها الأنصار والمؤمنين .

ثم كان أبو بكر الصديق ، حين أسلم إسلام الواثق المطمئن لخلقه العظيم ، وظل هكذا ، لا يداخله الشك ، فكان الصديق ، فى إيمانه ، وفى صحبته ، وفى خلافته .

وأما خصومه ، فلم يكن عداوهم له عن سوء ظن بخلقه ، فقد كان القوم أعرف بخلق محمد ، وأخبر بشمائله . وإنما كان عداوهم مكابرة ومطاولة لوساوس المتاع ، وخوفاً على مالهم من السلطان والجاه والمال إذا ما انتظمت العرب شريعة جامعة من الله .

وهكذا كان الخلق العظيم للنبى .

جعل من العدو نصيراً ، ثم سما بالنصير إلى مقام الصحبة . وإن أروع

وأجمع وصف لخلق النبى ، وصف عائشة أم المؤمنين له حين سئلت عن خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت : « كان خلقه القرآن».

ويعلق ابن كثير فى تفسيره ، على قول الله تعالى :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »

فيقول :

« ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له . . فهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل » .

وإذا كان المعهود فى سير العظماء ، أنهم يتميزون بصفات على حساب أخرى ، فقد كان خلق النبى الكريم جامعاً شاملا للفضائل ، فليس هناك رفعة فى جانب يقابلها نقص فى جانب آخر . ولهذا كان مستحقاً للأسوة الحسنة ، كما وصفه بذلك ربه فى القرآن الكريم .

من هنا لم يعرض له فى خلقه نقيصة تزرى به ، وإنما هى هنات هينات ، ما يلبث ربه أن يعاتبه عليها ويلفته عنها ، حرصاً من الخالق — سبحانه — على السمو به ، والارتفاع بخلقه .

فمن هذا عتابه له على افتدائه أسرى بدر بقوله سبحانه :

« ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ »
الأنفال : آية ٦٧ .

ومنه عتابه له على إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ، حين

سعى إلى النبى ليسلم ، وكان النبى فى مجلس مع وجهاء قريش يدعوهم ، ويجادلهم ، فنزل قوله تعالى :

« عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى » . إلى آخر الآيات

عبس : الآيات من ١ إلى ٤

وإذا كانت الأنظمة والمذاهب الحديثة ، تفخر بفصل الأخلاق عن نظمها وسياستها . وتعتبر هذا من فضائلها ، فهى بذلك تقضى على نفسها بالفناء والدمار ، وتردى بالإنسان المعاصر إلى مصائر الظالمين الغابرين ، بينما تسمو دعوة الإسلام بالإنسان وترقى به ، وبالمجتمع المتماسك ، المتطهر ، الذى يقوم عليه .

٧ – المهاجـــر :

وتقترن الهجرة بالجهاد فى كثير من آيات القرآن الكريم :

يقول الله تعالى :

« والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ » . البقرة : آية ٢١٨

ويقول سبحانه :

« والَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » . الأنفال : آية ٧٤

كما يقول سبحانه :

« وَالَّذِين آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ »

الأنفال : آية ٧٥

والحكمة ظاهرة فى هذا الاقتران بين الهجرة والجهاد : فالهجرة جهاد ، وامتحان صعب ، خاضه النبى المهاجر بنفس الكفاءة التى خاض بها امتحان الجهاد .

والهجرة غايتها وجه الله ، تماماً كالجهاد .

والهجرة بذل وتضحية ، تماماً كالجهاد ، فليس من اليسير أن يترك المرء وطنه الذى هو أحب الأوطان عند بيت الله إلا فى سبيل الله والدين الحق .

كما أن الهجرة كانت مقدمة للجهاد ، فإن المرحلة المكية كانت مرحلة الإعداد النفسى للمدعوين ومن حولهم ، بينما كانت المرحلة المدنية هى الثمرة المباركة لهذا الإعداد النفسى الطويل الشاق فى مكة .

وكما كان النبى — صلى الله عليه وسلم — أسبق المؤمنين إلى الجهاد ، فقد كان — أيضاً — أسبقهم إلى الهجرة . لقد بدأ بنفسه كعادته ، فى كل موقف . ولقى من مطاردة القوم ما لم يلقه مسلم من أصحابه .

ولكن النبى كان — بفضل ثقته بربه — عظيم اليقين بمناصرة الله له ، وتثبيت قلبه ، وحفظه من كل سوء ، وفى هجرته يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » . التوبة : آية ٤٠

وإذا كان محمد المهاجر قد صنع تحولا لدعوته بهذه الهجرة ، فإنه قد أتاح بهذه الهجرة التآلف ووحدة القلب والصف معاً . لقد أزال الجفوة التى كانت قائمة بين العدنانيين وهم المكيون — وبين القحطانيين

وهم المدنيون . وبذلك زالت الفوارق والحساسيات النفسية ، مما هو من طبيعة الجماعات ذات الانتماءات الحية – فى وطن واحد – لأصول قريبة أو بعيدة ، إلى أن ألف بينهما الإسلام تحت إسم « المهاجرين والأنصار » . وذلك حيث كان كل من هاجروا اقتداء بالنبى من قريش ، وكل من سبقوا إلى نصرة النبى بالمدينة من الأوس والخزرج .

وشمل الله الفريقين بالتكليف والمسئولية ، كما شملها بالتأليف والمؤاخاة ، ومزج بينهما بالجهاد والعمل ، فانصهر الفريقان معاً ، بينما بقيت القيادة للمسلمين فى قريش كما ظهر ذلك باقتناع الأنصار بعد وفاة النبى .

وكما أزال النبى (المهاجر) الجفوة بين المكيين والمدنيين ، فقد أزال العداء الثأرى الذى افتعله اليهود بين قبيلتى الأوس والخزرج . وكان فى مسعاه الحكيم الرحيم ، يمارس أول مواجهة لهؤلاء اليهود المقيمين فى المدينة ، إذ لم يكن هذا التأليف بين الأوس والخزرج من مصلحتهم ، وهم الذين دأبوا على إثارة الحروب والعداء بين القبيلتين حتى يستطيعوا – فى ظل الفرقة والحرب – أن يحققوا سعيهم الدائب لإقامة « دولة المستوطنات اليهودية » فى شمال الحجاز ، بعد أن فشلوا فى إقامتها فى اليمن ، وذلك بانتهاز أية فرصة يتفرق فيها العرب وهم ينشرون بينهم الربا والخمر وتجارة القيان والأسلحة ، ليضموا حصونهم المسلحة فى المدينة إلى مستوطناتهم المسلحة كذلك فى خيبر وتيماء ووادى القرى .

ولكن ظهور الإسلام بعد هجرة النبى الذى أسس بعد الهجرة أساس مجتمع المؤمنين فى المدينة ، حقق ما أحبط أمانى اليهود فى فرقة العرب عدنانيين وقحطانيين ، وذلك حيث أتم على من اجتباهم لدينه الحق ،

وأنزل إليهم كتابه المبين ، وبعث منهم رسوله المصطفى — نعمته الكبرى وذلك حيث يقول تعالى :

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » . الأنفال : آية ٦٣

٨ — المجاهــد :

وفرق بين المجاهد والمحارب .

فقد يكون فى المحارب بطش واستعلاء وغرور .

وقد يكون فيه التهور والاندفاع .

وقد لا يكون أمامه نبل المقصد ، وإنسانية الهدف .

أما المجاهد ، فهو من نمط آخر . فقد استطاع بالجهد أن يطهر نفسه ، ويقاوم نزوات النفس ، ونزعاتها ، سعياً للارتقاء بها إلى أسمى المنازل فى الشجاعة ، والمروءة ، والمناصرة للضعيف ، والصبر ، والذود عن الحرمات والفضيلة .

ومن ثم ، فقد مكث — صلى الله عليه وسلم — فى مكة ثلاث عشرة سنة يتلقى أمر ربه ، ويتحمل أذى قومه ، وهو يعرض عليهم كتاب الله ليتدبروه ، ويعقلوه ، ويؤمنوا به صابراً على الأذى وهو يعرض الدعوة على القبائل فى مواسم الحج .

ومن هنا كان جهاد النبى يرتكز على أساس قوى صلب ، بهؤلاء الذين تدبروا القرآن من عشيرته ، وقد نزل إليهم بلسانهم ولهجتهم المصفاة ، فآمنوا به ، واحتملوا الأذى معه ، ليكونوا بعد الهجرة هم المهاجرين

المجاهدين معه ، فإن طريق الدعوة كان شاقاً وطويلا ، وكان العدو خارج الجزيرة متربصاً ، ولم يكن هيناً ولا ضعيفاً ، وقد سقطت خلال ذلك النفوس الطاغية بالمال من أئمة الشرك ومن أهل العناد والكبر ، مع أنهم كانوا مستيقنين بما سمعوا من القرآن من صدق الرسول ، بينما سلم الصادقون بصدقهم وما أكثرهم . ولقد جاهد النبي — صلى الله عليه وسلم — بأمر من ربه فى مكة والمدينة كما يقول له سبحانه :

« يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جهنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » . التوبة : آية ٧٣ .

وكما يقول له :

« فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ . وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً »

الفرقان : آية ٥٢ .

أى بالقرآن الذى نزل به الوحى بكلام الله بلسانهم ليكون آيته بينهم ، وحجته عليهم .

وقد حكى القرآن الكريم جهاد نبيه الكريم ، وجلاه بأوضح صورة فى مواضع مختلفة ، وبخاصة فى سورة الأنفال ، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحزاب .

ولم يكن جهاد النبى فى جميع مراحل الدعوة إلا جهاد الرحمة والرأفة والحرص والإيثار . وهو يعلم بإلهام الله له ، وبسابق البشارات ببعثته ، أن قومه مع شدة النذير ، ومشرق البشير ، سيدخلون فى دين الله أفواجاً ، وسيحملون إلى قرون طويلة نعمة الإسلام ، وأمانة الدعوة إلى الإسلام .

كان جهاد النبى إذن جهاد الحرص ، وجهاد الرحمة .

ولا تناقض بين الأمرين والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُون رحمَةَ اللهَ » . البقرة : آية ٢١٨

ثم إن النبى المجاهد كان يسعى لرد العدوان الذى هدد به المشركون الدعوة فى أول أمرها ، بينما بقيت الدعوة بجهاد النبى وأصحابه ، بل وأمنت مراراً فى جوار وحماية بعض المشركين ، ولم يشأ الله أن تحقق قلة من المشركين المعاندين من أمثال أبى لهب ، وأبى جهل إطفاء نور الله .

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » . الصف : آية ٨

فهو — إذن — جهاد الحماية والدفاع . ولو لم يعاجل النبى المجاهد زعامة الشرك فى قريش بالحرب ، لبادروه بها ، ولاستطاعوا أن يكسبوا بالمبادرة ما يكسبه البادىء المباغت فى أكثر الأحيان .

« أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين » . التوبة : آية ١٣

وإذا كان النبى قد حرض المؤمنين على القتال — امتثالا لأمر ربه — فإنه كان البادىء بنفسه . فهو قدوة لهم . جندياً وقائداً . ولهذا ذكر اسمه سابقاً على ذكر المؤمنين ، وذلك فى مقام الإخبار عن جهاده وجهادهم :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » . الفتح : آية ٢٩

وكما يقول تعالى :

« لَكِنِ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمنوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » . التوبة : آية ٨٨

بل لقد كان صلى الله عليه وسلم بشهادة صحابته ، أقربهم إلى العدو ، وأكثرهم إقداماً وشجاعة .

وهذا ما جعل أصحابه يزدادون التفافاً من حوله ، وطاعة له ، وحباً للبذل بالنفس والمال . فلو لم يكن من النبي صدق المواقف لم يكن من المؤمنين الثبات ، والبذل ، وطلب الشهادة بالدرجة التى لم تتح للكثيرين من أصحاب الرسل السابقين وأتباعهم .

٩ — الأســوة الحسنة :

وقد تحققت للنبي هذه الصفةالجليلة بشهادة ربه . وشهادة التاريخ . وبهما تمت لمحمد أشرف السجايا وأرفع الشمائل. وإذاكان القرآن الكريم منهاجاً بيانياً ، فإن حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — كانت هى المثال التطبيقى العملى لشريعة الله ، وهى حياة لم تخرج عن القرآن الكريم فيما أمر به وما نهى عنه ، ومن هنا استحق تكريم الله له بقوله :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ والْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » . الأحزاب : آية ٢١

وهذه الأسوة الحسنة تمت بالاصطفاء والاختيار : نسباً وحياة ، منذ المولد إلى الوفاة . فقد كان — صلى الله عليه وسلم — أسوة حسنة صبياً وغلاماً . وشاباً يافعاً . وشيخاً وكهلا . كما كان أسوة حسنة فى دعوته

وهجرته وجهاده وفتحه ، وأسوة حسنة فى حياته زوجاً ، وأباً ، وقائداً وحاكماً .

وهذه المكانة العليا تحققت بالمجاهدة الطويلة ، والقيام المتصل ، والعمل الدائب الدائم ، وكلها تمت فى مسارها من إعداد الله عز وجل ورعايته ونصره إلى آخر يوم من أيام الحياة : حيث عقد اللواء لجيش أسامة بن زيد ، على بداية جهاد جديد ، وأوصى أبا بكر بإنفاذه .

وهذه الأسوة الحسنة كانت مسئولية كبرى ، فإن النبى الكريم لم يجلس مسترخياً مطمئناً ، وإنما كان فى تطلع دائم إلى ربه ، وحرص على تنفيذ أوامره .

ومن هنا تحمل بيته شطراً من المسئولية . فإن انتساب زوجاته إليه لم يكن يعنى تمتعهن بالاستثناء والإعفاء من الجهد والجهاد ، وإنما كان يعنى مزيداً من المسئولية ، والالتفاف نحو الغاية العامة ، والانتباه إلى كل ما يقع منهن من القول والعمل، والمحاسبة الدائمة، حتى يَكُنَّ فى موضع الاقتداء والتأسى ، وكان هذا الموضع الذى وضعهن القرآن فيه بقوله تعالى لهن :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » الأحزاب : آية ٣٠

١٠ – شهيد عليهم :

وتلك صفة من أجل ما وصفه به القرآن الكريم ، فهو – صلى الله عليه وسلم – شاهد ، وهو شهيد .

قال تعالى :

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً » الأحزاب : الآيات ٤٥ ، ٤٦

وقال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » البقرة : آية ١٤٣

وقال تعالى :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ . وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » النحل : آية ٨٩

فما المراد بصفة الشهادة ؟

المراد بها اتصاف النبي — صلى الله عليه وسلم — بطائفة من الخصال والشمائل ، تجعل له بالقرآن الكريم هذه المكانة المثلى بين سائر الأنبياء .

ومعنى هذا أن الشرائع السماوية السابقة تقاس بعد الإسلام بالإسلام الذى دعا إليه محمد ، كما أن القرآن الكريم — بما أخبر الله تعالى به من أخبار الأنبياء والأمم السابقين — قد صار حجة : ينطق بالصدق ، ويخبر إخبار الشاهد بأن هؤلاء الأنبياء بلغوا ولم يقصروا ، وأن قومهم قد خالفوهم . وقد أصبح النبي بهذا القصص القرآني شاهداً على قومه بأنه أبلغهم نذر الله وبشائره عن حياة الذين سبقوهم ، وعما نزل به القرآن الكريم إليهم . وهذه الصفة تؤكد كون النبي خاتم الأنبياء ، كما تؤكد مكانة القرآن

الكريم في استمرار الدعوة ، ومكانة اللغة العربية الفصحى في بقاء المسلمين على الإسلام بتدبرهم القرآن وعملهم به .

السؤال الثانى :

« ما هى الصلة ـــ فى حكمة الله ـــ بين دلالة الاسم « محمـــد » الذى حمله النبى الكريم عند مولده ، وفى بشارات الأنبياء به قبل مولده ، وبين كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ؟ »

الإجابة :

يحدثنا ما بقى إلى اليوم بين أيدينا من ديوان شعر العرب قبل الإسلام ، ومن مأثور حكمتهم ، وخطبهم ، وأمثالهم ، أن هذه الحياة التى عاشها هؤلاء قروناً طويلة ، يحجون إلى بيت الله كل عام ، وينتظرون نبياً إليهم من صفوة أبناء إبراهيم وإسماعيل ، كانت وهى تقوم على إحياء «المعروف» وإنكار «المنكر» فى عامة أجيالهم ، وفى أقوال شيوخهم وقادتهم وحكمائهم ، إنما تزن صحة أعمالها وأقوالها على سنن هذا المعروف بميزان واحد لا يتغير ، ميزان واحد ، دقيق ، مرهف ، هو «الحمد» ممن حولهم لما يعملون أو يقولون ، ومعنى ذلك أنهم صدقوا الله ، وأنفسهم ، وقومهم ، قيامهم بهذا المعروف الذى تعارفوا عليه من أخلاق الدين والمروءة والعفاف ، وانتهاءهم عن كل مايخالف هذا المعروف الذى أجملوه بكل أخلاقه وفضائله بهذا اللفظ الجامع لأساس الدين ، وركيزة الحق ، وحافز حرية الإرادة والقول والفعل ، فى حكم هذا المعروف الذى درجوا عليه ، وتسابقوا فيه . .

ومعنى هذا أن هذه الأمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل ، التى اجتباها الله للدين الحنيف ، والإسلام الخاتم ، والقرآن المبين ، كانت فى ميزانها

الأعمال والأقوال بغاية الحمد بين الناس ، دليلا على صدقها فى إلزام أنفسها بالمعروف ، وإيثار قومها بالحب ، والخير ، إنما كانت تبشر بتتابع العصور ، مع نماء البيان ، وجلاء الحكمة ، بميزان هذا الحمد فى حياتها وعملها ، باتجاه هذه الغاية العظمى ، والآية الكبرى ، التى كانت تنتظرها جيلا بعد جيل ، وهى أن يتجسد كل الحمد والمحمود فى رسول من أوسطها نسباً ، يدعوها إلى ماتحمد الله عليه من تمام نعمته عليها بالرسالة الخاتمة ، والدين الحق ، والكتاب المنير . .

وهكذا كان « محمد » صلى الله عليه وسلم منذ مولده هو غاية الحمد فى هذه الأمة ، حيث انتهى إليه فى واقع حياته ، ورسالته ، وأخلاقه ، وحتى فى اسمه الدال عليه ، ما سبقت البشارة به عند الرسل السابقين . وكان أعظم الحمد فيما أعده الله له من محمود صفاته وما اصطفاه به من الخلق العظيم فى نقاء أصلابه ، وطهارة أرحامه ، هو هذا الكتاب الكريم المبارك الذى أوحى الله به إليه ، فاحتمل آياته ومحكماته ، وأبلغها بالدعوة واستجاب لها بالأسوة . . وهو القرآن الكريم .

ظهور المحمد :

لهذا كان العرب فى توقعهم لإنجاز الموعود من دعاء إبراهيم وإسماعيل ، ومن رؤيا التاريخ ، وبشائر الأنبياء ، ينتظرون المحمد بإسمه وخلقه . ولقد ثبت فى المصادر ، أن هذا الإسم « محمد » كان من تسميات العرب ، فقد حكى صاحب لسان العرب أن من سمى قبيل الإسلام بمحمد سبعة ، وقد استوفى صاحب اللسان ذكرهم جميعاً .

ووجود هذه التسمية « محمد » عند العرب ، وتداولهم لكلمة الحمد ومشتقاتها تدل على اعتداد الإنسان العربى بالفضائل وحرصه عليها .

لأن المحمد – عندهم – من كثرت صفاته المحمودة ، ومن هنا لايتطلب العربى فى الإنسان اتصافه بالشمائل – حتى يكون المحمد والمحمود – وإنما يتطلب كثرة هذه الشمائل . وذلك هو السبب فى أن الشعر العربى القديم يدور فى مضمونه ولغته حول قضية الخلق والشمائل الإنسانية ، فليس الفخر والمدح والهجاء والحماسة إلا تجسيداً حياً للشمائل التى أحبها العربى ، وامتدح الاتصاف بها ، وللرذائل التى أبغضها العربى ، وذم المتصفين بها . وتلك زاوية من النظر ينبغى أن تعالج منها أغراض الشعر العربى القديم ، التى قاد سوء فهمها إلى أخطاء جسيمة ، وأحكام جائرة . على أن هذه التسمية الوصفية للنبى محمد – صلى الله عليه وسلم – لم تسقها المصادفات . وإنما هى من اختيار الله عز وجل ، ومن هنا وردت فى بشارات الأنبياء على لسان المسيح :

«وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ » الصف : آية ٦

إن هذه التسمية الفريدة التى تحمل معنى تمام اصطفاء الله له بالخلق المحمود ، المستحق لخاتم النبيين ، تحمل أيضاً دوام ثناء المؤمنين بمجرد نطق اسمه ، ووعى دلالته ، وهكذا يأتى خاتم النبيين والمرسلين مستحقاً من الله والناس لكل حمد وتكريم . ويمكن أن نوجز موجبات هذا الحمد فيمايلى :

(١) بلوغ محمد غاية الحمد فى نبوته ودعوته .

(٢) بقاء الإسلام وامتداده .

(٣) ارتباط الإسلام باللغة العربية .

غاية الحمد :

لقد تحلى النبى بأسمى الشمائل حتى بلغ به الصبر على قومه حداً لم يبلغه نبى من قبـــل . وكان طبيعياً أن يفضى هذا الصبر إلى نجاحه فى دعوته ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وظل الإسلام ديناً قائماً راسخاً .

فالنبى الكريم لم يدع على قومه بالهلاك ، أو أن تحل بهم قارعة ، أو أن يجتاحهم إعصار ، وإنما ظل النبى فى إصراره على دعوتهم بالحسنى والرحمة ، وفى يقينه بأن الله سيشرح صدورهم للإسلام .

ولم تكن تستبد بالنبى الكريم سورات غضب تفضى إلى إزهاق نفس ، وإنما ظل ثابت القلب ، قوى العزيمة نحو الموادعة ، وحين رفع السلاح ، لم يكن ذلك إلا بإذن ربه ، إعزازاً لدين الله ، ودفاعاً عنه ، وبالقدر الذى لا يتجاوز الزجر المسلح ، فلم تبلغ الحروب الصغيرة والقليلة بينه وبين المشركين حد الضراوة ، ولم تتجاوز خط اللاعودة للسلم .

ولقد كان من حكمته — صلى الله عليه وسلم — إدراكه لما انطوت عليه نفوس القوم من عشيرته ، فعرف عمر وخبر خلقه ، حتى دعا ربه أن يكون أحد المهتدين إلى الإسلام .

بقاء الإسلام بالقرآن :

لذلك فإنه بنجاح النبى الكريم فى دعوته ، وبالعناية التى وجهها إلى حفظ القرآن الكريم وتدوينه حتى لا يناله أى تحريف حدث مالم يحدث فى تاريخ الديانات بأن ظل الإسلام على وضوحه وصفائه بما لم يعرف لدين قبله من الأديان .

إن لدى المؤمن المسلم حتى اليوم كتاب الله تعالى وأسوة نبيه الكريم ، وقد وضحت فيهما الحقائق والمعالم دون خفاء . بحيث يستطيع المسلم أن

يميز بهما أية فلسفات وأفكار دخيلة ، يكشف عنها بحسه الصافى ، ويميزها حق التمييز ، ويعرف أن مكانها بعيد عن الإسلام الحق .

وهذا الصفاء والوضوح لم يتم لنا إلا بكتاب نزل من عند الله ، ليكون النبى الأسوة لأصحابه فى طاعته والعمل به ، فاستقام الطريق أمام المسلمين بكل أبعاده الفقهية والعملية على السواء .

الإسلام والعربية :

وتلك أيضاً سمة لم تتوافر لرسالة من الرسالات السابقة فقد سما القرآن بالعربية ، وشرفت العربية بتعبيرها عن القرآن حتى غدا تأثير العربية على سائر لغات البشر أمراً لا إنكار له ، وإن كانت اللغات — فى ذلك — تتفاوت بحسب العوامل التاريخية والجغرافية .

وعلى هذا صار فهم العربية أمراً لاغنى عنه بالنسبة لجميع الأعاجم الراغبين فى فهم الإسلام ، والوقوف على دقائقه وحقائقه . وبذلك أخرج القرآن الكريم هذه اللغة من الإطار الإقليمى المحدود ليجعلها لغة متداولة خارج حدود شبه الجزيرة العربية ، بين كل من رغبوا من أبناء الشعوب المختلفة فى اعتناق الإسلام .

ولم يكن القرآن الكريم ليختار العربية لغة ، لو لم تكن لها هذه الخصائص الكثيرة التى تميزها عن غيرها فى تعبيرها عن الدينى والدنيوى ، مع غنى هذه اللغة ، ودقة إحاطتها بكل من المعانى العقلية ، والأشياء المحسة ، وكذلك مع مقدرتها على التشكل ، وأصالتها التى هيأت لها البقاء وعدم التفتت والانقراض ، وبخاصة بعد بيان القرآن الكريم بها عن آيات الله تعالى فى الكون ، حتى فاقت ألفاظها الدالة على هذه الآيات كل لغات الأرض مجتمعة .

ولم تتوافر للعربية تلك الخصائص إلا بعراقتها ، ونمائها المتمهل في بيئة متحررة ، وبين قوم يحترمون الإنسان والسواسية والعدل ، ويستشعرون آيات الله في كونه وفي خلقه .

لقد منحت الحرية وأخلاق المعروف وميزان الحمد على الأعمال هذه اللغة العربية أبعاداً لم تتوافر في مثل حياة العرب الناطقين بها للغات الأخرى في أنحاء الأرض ، وبين بقية شعوب العالم .

* * *

وهكذا يتحقق لنـــا أن ندرك كيف هي وثيقة — في حكمة الله — هذه الصلة بين دلالة الإسم « محمد » الذى حمله النبي الكريم عند مولده ، وبين دعاء ابراهيم وإسماعيل بظهوره وهما يقيمان القواعد من بيت الله في مكة ، ثم بين بشارات الأنبياء به — إسماً وخلقاً — قبل مولده ، مما يؤكد أنه كان لذلك ، بإسمه المحمد ، وخلقه المحمد ، هو خاتم النبيين .

السؤال الثالث :

« ما هو الفرق الذى يمكن أن يدركه المؤمن من مطالعة سيرة الرسول الكريم من المولد الى المبعث والى النصر فى سور القرآن الكريم ، وبين مطالعة هذه السيرة الشريفة فى كتب السيرة المختلفة ، التى درج المسلمون على مطالعتها فى مؤلفات تلك العصور التى تفرق فيها أهل الاسلام الواحد الى طرق متعددة فى تفسير كتاب الله ، وفى الاعتقاد بالدين الذى يدعو اليه هذا الكتاب الحكيم » .

الإجـــابة :

مصدرنا فى استيعاب سيرة الرسول الكريم ، وفهم دعوته ونبوته هو القرآن أولا ، والمنقول من كتب السيرة النبوية ثانيا .

فالقرآن الكريم جلى لنا ملامح هذه الشخصية النبوية ، ومعالمسيرتها وشطراً من حياتها . ولكن هذا النسق من التجلية يظل دائماً مرتبطاً بالهدف القرآنى الأسمى ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، والتشريع لمجتمع المؤمنين به . فالقرآن لايتناول حياة الرسول إلا من هذا الجانب الذى يتناول رسالة الرسول بالتبليغ لكتاب الله إلى المدعوين به ، ومن هنا تميزت الصورة القرآنية لشخصية الرسول بالتركيز والوضوح ، والبعد عن التفاصيلالتى لاترتبط بالهدف ، وحتى حياة الرسول العائلية لم يتناولها القرآن الكريم إلا جانب ارتباطها بالرسالة التى صدع لأمر ربه بتبليغها والعمل بها .

هذا إلى ماتميزت به الصورة القرآنية من الصدق الذى لاترقى إليه أثارة من شك ، لأنه إخبار عن الله عزوجل من طريق الوحى الذى نزل بكتاب الله إليه :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى »

النجم : الآية ٣ و ٤

ومعنى هذا أنه تبقى حاجتنا فى العلم بسيرة النبى إلى قراءة « التاريخ » ونقصد به ما انتهى إلينا من الحوادث والأخبار عن حياة النبى ، بطريق الرواية ، مما دونه المؤرخون على اختلاف عصورهم ومذاهبهم ،

ومما اصطلح على تسميته بالسيرة النبوية . وكان من قبل يسمى بالمغازى . تمييزاً لهـا عن سائر أحداث التاريخ .

بين الوثاقة والتحريف :

وأول من دون لنا هذه المغازى هو أبوبكر محمدبن اسحق (ت١٥٢هـ). وقد ضاعت سيرته . إلا أن تلميذه ابن هشام قد اعتمد على سيرة شيخه ، حين صنف لنا السيرة التى شاعت نسبتها إليه ، فقيل لها «سيرة بن هشام».

وإذا كانت « الصورة القرآنية » لاتطاولها فى الوثاقة والتركيز أية صورة تاريخية مع ارتباطها المشرق بالهدف القرآنى ، فإن الصورة التاريخية هى دائماً أقل وثاقة ، لاعتمادها على الجمع والرواية والتدوين ، وتعرضها لعوامل النسيان والتحريف ، ومداخلتها لعوامل الهوى والخيال .

كما أن عنصر التركيز فى « المصدر التاريخى » ، غير متحقق ، وذلك لسببين :

الأول : احتواء كتب التاريخ على تفاصيل لم يحكها القرآن الكريم ، كتلك المتعلقة بنسبه الشريف — صلى الله عليه وسلم — وتفاصيل رحلته إلى الشام فى طفولته ، وتفاصيل غزواته ، وزواجه ، ورسائله إلى الملوك، ومصالحاته ، وفتحه مكة ، ووفاته إلى غير ذلك .

ولاشك أن غير قليل من هذه التفاصيل صحيح غير مدسوس، وهو يمدنا بتفاصيل مفيدة ، توضح الكثير من « الملامح المركزة » فى القرآن الكريم ، فضلا عن إلقائها الضوء على الكثير من أسباب نزول الآيات القرآنية ، ومناسباتها . وبيانها لمواقف الأسوة النبوية التطبيقية للقرآن الكريم .

الثـانى : أن المؤرخين ورواة السيرة قد زادوا من حجم هـذه التفاصيل بما أدخلوه من « الآثار الأدبية » شعراً وأخباراً ورواية لوقائع

العرب وأيامهم قبل الرسالة ، مع ذكر خطبهم وأمثالهم ، حتى إن بعض كتب السيرة ، تتجاوز حدود غايتها منساقة إلى عامل التشويق فى الرواية للشعر والأدب بعيداً عن هدفها الأساسى فى تاريخ السيرة .

هذا إلى تعلق بعض كتب السيرة بالمبالغات والوقائع الزائفة .

إذن ينبغى أن تقوم دراسة السيرة على القرآن الكريم ، ثم على كتب السيرة ، بشرط أن يكون لقارىء كتب السيرة حس واع مرهف يعينه على إدراك الصحيح ، وعلى رفض الزائف .

فى عهود التفرق :

وهذه الكتب قد ألفت فى عهود تفرق فيها أهل الإسلام الواحد إلى طرق متعددة فى تفسير كتاب الله ، وفى الاعتقاد بالدين الذى يدعو إليه هذا الكتاب الحكيم .

ويمكن أن نلخص بعض ظواهر هذه الكتب فيما يلى :

١ — احتواؤها أخباراً من الحشو الذى لاعلاقة له بسيرة النبى .

٢ — احتواؤها أشعاراً مكذوبة ومدسوسة ، كانت موضع اعتراض الرواة العلماء بالشعر .

٣ — كثرة الأخبار الزائفة ، والوقائع المدسوسة على السيرة الشريفة .

والآن نفصل ما أجملناه من هذه الظواهر المتقدمة :

بعيداً عن السيرة :

من ذلك مافعله ابن اسحاق فى سيرته ، مما كان مثار انتقاد تلميذه ابن هشام ، الذى — وإن أفاد من مصنف شيخه — إلا أنه رسم لنفسه منهجاً

يقوم على الحيطة والحذر والتحرى ، حتى يميز الصحيح من المدسوس .

وقد سجل ابن هشام هذه الملاحظة على شيخه ، وذلك فى مقدمة كتابه « سيرة ابن هشام » . يقول ابن هشام عن منهجه هذا :

« وتارك بعض ما يذكره ابن اسحاق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيه ذكر ، ولانزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً بشىء من هذا الكتاب ، ولاتفسيراً له ، ولاشاهداً عليه » !

الشعر المكذوب :

وللشعر مكان أساسى فى كتب السيرة ، بل وفى كتب التاريخ بعامة. وهذه الأشعار — فى كثير من الأحيان — تعين على فهم الملامح والأبعاد التى لايكفى فيها سرد الحوادث ، ورواية الوقائع .

غير أن رواة الأشعار ينبغى أن يتحروا ويدققوا ، حتى لايقع لهم الزائف المكذوب من الشعر . وقد ارتكب ابن اسحاق فى سيرته هذا الخطأ، فضمنها أشعاراً لم تصح للعلماء بالأشعار . وبذلك استحق مؤاخذة تلميذه ابن هشام ، ومؤاخذة عالم آخر من علماء القرن الثالث الهجرى ، وهو محمد بن سلام الجمحى .

ولقد كان ابن اسحاق حين يؤاخذه المؤاخذون على صنيعه يعتذر بأضعف اعتذار ، فيقول لهم : « لاعلم لى بالشعر . أوتى به فأحمله » أى يأتينى به الرواة والحفاظ ، فأضعه فى كتابى ثقة بهم وإن كنت أجهل الصحيح من الأشعار .

الأخبار الزائفة :

وربما كان ذلك أبشع مايمكن أن يصادفه قارىء كتب السيرة .

فهناك روايات مدسوسة عن كلام الجمادات للنبى ، وحوار بينه وبين الحيوان ، وسماع النبى للهواتف من الجن ، والوحوش ، والأشجار ، وما وجد من الحديث عنه ، وعن صفاته مكتوباً على أوراق النبات وعلى الأحجار . والدعوة إلى التبرك بحفظ مخلفاته — صلى الله عليه وسلم — إلى غير ذلك .

ونشير هنا إلى أحد كتاب السيرة فى القرن التاسع الهجرى ،وهوعلى ابن برهان الحلبى صاحب كتاب « إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » والمعروف بين الباحثين باسم « السيرة الحلبية » .

فى هذا الكتاب يروى الحلبى أخباراً عن مولد النبى ، تتنبأ بملك بنى العباس ، وبخلافة الهادى والمهدى والرشيد . وادعاؤه أن النبى قد أوتى حدة النظر وقوة الإبصار ، حتى أنه — صلى الله عليه وسلم — « كان يرى أحد عشر نجماً ، وقيل إثنى عشر نجماً » وواضح ما فى هذا الخبر من إشارة إلى الإثنى عشرية إحدى طوائف الشيعة .

وهكذا وهكذا نجد أخباراً فى هذا الكتاب لايخفى مافيها من الوضع والدس للترويج لأفكار شيعية ، أو مساندة خلافة العباسيين ، أو الترويج لأفكار صوفية متطرفة .

ومن هنا فإننا نحمل علماء المسلمين مسئوليتهم الجسيمة فى وجوب الأخذ بأسباب الحذر والتحرى فيما يجب أن ينشر ومالا ينشر من كتب السيرة ، مع لفت انتباه عامة المسلمين إلى مافى بعض هذه الكتب من الدس والزيف .

* * *

ثم نحمد الله أن السيرة الشريفة ، والعطرة ، لرسول الله المحمد ، خاتم النبيين ، باقية لاتأفل أبداً فى كتاب الله العزيز ، بكل صفاته ، وأخلاقه ، وأعمال جهاده بتبليغ القرآن الكريم ، وتقديم الأسوة بالعمل به، طاعة لربه ، ونقرباً إليه ، وفى نور القرآن الكريم نرى وجه النبى الأمين ، الرؤوف ، الرحيم ، السمح ، ونقرأ سيرته منزهة عن كل زيف ، وحكماً صادقاً نستعين به فى قراءة وتصويب ما نحن بحاجة إليه من كتب التاريخ الصحيح لحياة النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم .

والله المستعان .



بحوث القسم الثاني

القرآن الكريم
وبرهان الإيمان

يجيب عنه

الكاتب الإسلامي
الأستاذ أحمد موسى سالم



السؤال الأول :

● هل شهادة المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تكفى لصـــحة الايمان ؟

● أم انه لابد من أن تكون هذه الشهادة المعلنة مؤيدة بالتقوى والعمل الصالح كما يأمر بهما الايمان ؟

● وما هى فى نظرك أسباب قصور الكثيرين من المؤمنين فى هذا العصر عن الالتزام بالعمل الصالح ، فى حـــدود ما أمر به وما نهى عنه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ؟

الإجابة :

من المسلم به أن كل شهادة بأمر ما تحتاج إلى عمل واضح يؤكد صحتها ، ويكون برهاناً محساً على صدقها . وشهادة المؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر — هى فى قمة شهادات البشر حاجة إلى ما يؤيد صدقها بين الناس بالتقوى ، وبالعمل الصالح ، كما يأمر الله بهما المؤمنين ، وكما يقتضيهما صدق الإيمان ، وَتَنَزُّهِهِ عن الغفلة ، وسلامته من الغواية أو الريب .

يظهر ذلك واضحاً فى جميع آيات القرآن الكريم التى تتناول كلمة « الإيمان » بجميع استعمالاتها وصيغها ، ونبدأ فى الاستدلال على ذلك بالآية رقم ٢٨٥ من سورة البقرة ، والتى تجمع ما ورد بهذا السؤال من النص على إيمان المؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وذلك حيث يقول تعالى :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » . البقرة : آية ٢٨٥

فى تمام هذه الآية الكريمة بعد ما أوردناه منها نجد من شرط صحة الإيمان بارتباطه بالعمل الصالح قوله تعالى :

« وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

البقرة : آية ٢٨٥

فى هذا النص على السمع ، وعلى الطاعة ، وعلى التطهر بدلالة الاستغفار ، لأن الآخرة حق ، ولأن المصير إلى الله حق — ما يؤكد وجوب أن تكون الشهادة بالإيمان مُؤَيَّدَةً — بكل الوضوح والصدق — بالتقوى ، وبالعمل الصالح ، كما يأمر بهما ، ويدفع إليهما الإيمان الصـــادق .

آيات الإيمان والعمل :

بهذا الوضوح للارتباط الوثيق بين الإيمان بالله ، والعمل الصالح الدال عليه ، نجد هذا التلازم تاماً بين الإيمان والعمل الصالح فى جميع ما ورد من ذلك فى القرآن الكريم من الآيات التى تعلنه ، وتؤكده ، فى جميع الصيغ التى نزل بها وحى الله ، كما نستبين ذلك فى الأمثلة الآتيـــة :

أولا — هذه الآيات التى تتوجه بالحديث إلى المؤمنين ، جماعة أو أفراداً ، أو بالحديث عنهم ، وفيها نجد ذكر العمل الصالح شرطاً يحقق هذا التلازم المشرق بين الإيمان وصحة الدليل عليه ، وذلك فى مثل قوله تعـــالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا »
مريم : آية ٩٦ .

وقوله تعالى :

« فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ »
الروم : آية ١٥ .

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » . التغابن : آية ٩

ثانياً — هذه الآيات التي تبدأ بذكر من يعملون الصالحات ، وفيها نجد شرط الإيمان لاحقاً بهذا العمل الصالح ، تأكيداً لسلامة النية والقصد فيه ، وهو ابتغاء وجه الله به ، ديناً وعبودية وإسلاماً لله الحق ، كما دعا إليه الرسل ، وكما صدقهم عليه المؤمنون بالبرهان ، وذلك في مثل قوله تعـالى :

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . النساء : آية ١٢٤

وقوله تعـالى :

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » . طه : آية ١١٢

وقوله تعـــالى :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ » . الأنبياء : آية ٩٤

ثالثاً — هذه الآيات التى تبدأ بذكر من يؤمنون بدلالة لفظ آخر غير الإيمان ، وفيها تمضى قاعدة هذا التلازم المتكامل بين الإيمان والعمل الصالح بنفس وضوحها فى الآيات السابقة ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » فصلت :آية ٣٠

فالذين قالوا ربنا الله هم « المؤمنون » ولا ريب ، وأما قوله تعالى « ثم استقاموا » فهذا يعنى الشرط اللازم لصحة الإيمان ، أى الذين استقاموا إلى ربهم بهذا « العمل الصالح » الذى يكون سكينة أنفسهم ، تتنزل بها ملائكة الله عليهم ، ومعها البشرى بهذه الجنة التى وعد الله بها المتقين المحسنين .

ومثل ذلك قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . الأحقاف : آية ١٣

وقوله تعالى :

« فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .
الأعراف: آية ٣٥

ذلك أن التقوى هي آية الإيمان باتقاء واجتناب ما نهى الله عنه من المنكر ، ولذلك جاء شرط الإصلاح بعد التقوى فى قوله تعالى « وأصلح » لازماً لتعزيز هذا الانتهاء عن المنكر بالعمل الصالح ، الذى يكون فى طاعة الله هو « الأمر بالمعروف والعمل به » .

كلمة عن التقوى :

والتقوى فى القرآن الكريم هي من الكلمات التى ليس لها مقابل فى أية لغة غير العربية من اللغات . وهى كلمة تعنى اتقاء المؤمن بالله كل عمل سيء ، خشية من ربه ، وبذلك لا يبقى له من العمل ، وكل حى يعمل ، إلا محض العمل الصالح ، الذى يدعوه إليه هذا الإيمان .

فالتقوى إذن تعنى فى منهج القرآن الكريم ، والإسلام الخالص ، الذى هو المنهج المميز لحنيفية إبراهيم ، أن النفى للعمل السيء يثبت العمل الصالح ، إذا ما كان الدافع إلى ذلك هو الإيمان ، كما أن نفى جميع الآلهة الكاذبة هو الذى يثبت الإله الحق الواحد ، بغير تجسيد أو تشبيه ، وذلك فى قولنا الذى يستقر به إيماننا وإسلامنا دائماً « لا إله إلا الله » . .

معنى هذا أن « التقوى » وهى تنفى بالإيمان كل عمل ينهى عنه هذا الإيمان ، إنما تعنى فى نفس الوقت أنها تثبت بهذا النفى قيام المؤمن بكل عمل يدعو إليه هذا الإيمان . أى أن التقوى أصبحت فى بديع آيات القرآن الكريم ، ومحكم بيانه ، كلمة جامعة لحقيقة الإسلام كله ، وهى تشرق فى آياته بركنيه المتلازمين دائماً وهما « الإيمان والعمل الصالح » تَزَكِّياً مع الإيمان بالخشية ، وإقبالا مع الخشية على الطاعة ، فما أعظم فضل الله على المؤمنين فى هذه « الحكمة البالغة » يودعها كلمة واحدة

من كلمات كتابه الكريم هى « التقوى » . . آية باقية للمتقين ، وتذكرة لمن تنفعهم الذكرى من المؤمنين .

والقرآن الكريم حافل والحمد لله بهذه الآيات الكريمة التى تظهر فيها دلالات كلمة « التقوى » على حقيقة الإسلام الخالص بركنيه من الإيمان والعمل الصالح ، ومن الإقبال على الطاعة والانتهاء عن المعصية . فمن ذلك قوله تعـــالى :

« وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ » .

البقرة : آية ١٩٧

وقوله تعـــالى :

« وَاتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » البقرة : آية ٢٢٣

وقوله تعـــالى :

« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » .

التوبة : آية ١٠٨

وقوله تعـــالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » .

التوبة : آية ١١٩

وقوله تعـــالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . آل عمران : آية ١٠٢

وقوله تعـالى :

« إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ ». الأنفال : آية ٣٤

وقوله تعـالى :

« وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » . المائدة : آية ٨٨

وقوله تعـالى :

« إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .
الأعراف : آية ١٢٨

وقوله تعـالى :

« قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ » الفرقان : آية ١٥

وقوله تعـالى :

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » . محمد : آية ١٥

وقوله تعـالى :

« وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .
الليل : من الآية ١٧ إلى ٢١

الإيمان ومعوقات العصر :

وأما عن أسباب قصور الكثيرين من المؤمنين فى هذا العصر عن الإلتزام بهذا « العمل الصالح » مع ظاهر إيمانهم ، وذلك فى حدود

ما أمر الله به ، وما نهى عنه سبحانه ، فى القرآن الكريم ، فإنى أوجزها كما أرى فيما يأتى :

أولا — انقسام عقيدة المؤمنين الواحدة — خلال عصور الانشقاق والضعف والتبعية — إلى معتقدات متدابرة ، وجماعات متنافرة ، تكاد تضيع بينها بالتشبيه والتأويل معالم هذا « الصراط المستقيم» الواحد ، الذى لا يكون للمسلمين من طريق غيره ليكونوا به مسلمين حقاً كما جاء فى قوله تعالى :

« وأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » . الأنعام : آية ١٥٣

بل لقد تجاوز الخلاف حدود الأنابة إلى الله من قريب على هذا الصراط المستقيم ، فجاهر كل فريق بتأويله الذى لا يرى الحق فى غيره ، حتى وإن تناقض هذا التأويل مع آيات الله المحكمات ، ومع ما كان عليه الرسول فى أسوته الحسنة مع أصحابه وأنصاره ، ومع مايهدى إليه العقل، وما تطمئن إليه الفطرة ، وأصبح هؤلاء المؤمنون — وا أسفاه — على غير ما كان عليه الأولون المؤتلفون ، كما جاء فى قوله تعالى :

« مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » . الروم : آية ٣٢

ثانياً — تسرب معتقدات الغالبين ، ومذاهبهم المبتدعة ، وعاداتهم المستهجنة، إلى عقول أكثر الخاصة والعامة، حتى بعد أن قضينا فى بلادنا، وفى وطننا العربى ، وفى أكثر العالم الإسلامى على احتلالهم العسكرى ، وذلك بعودة هذا الاستعمار فى صورته الأشد خطراً وهى « الغزو والتسرب

والتفكيك الفكرى » ، وهى صورة خفية كصورة المارد الجبار الذى يعمل « وراء الحواس » عمل الطفيليات ، والجراثيم الخبيثة ، التى لا تكاد تراها العين ، وراء هذا العديد من أقنعتها الساذجة ، وأصواتها الهازجة ، ووراء العجيب من شعارات صنع التقدم ، ومواجهة التحدى ، مما تحول به الإيمان ، المفتقد لبرهانه وحوافزه ، إلى مجرد اعتقاد تقليدى ، يتباعد عنه الصدق ، ويتناقض معه العقل ، بينما تنشط وتتنوع فى مثل هذا المناخ « المغلوب بهذا الغزو الفكرى الخارجى » أعمال تنافى الإيمان الصادق ، بينما لا يستطيع هذا الإيمان « التقليدى » أن يمنعها ، أو يصحح اتجاهاتها .

وهكذا لو سألت أقرب هؤلاء المؤمنين التقليديين إلى الصحوة عن سبب استسلامهم لما هم فيه من ظلم أنفسهم ، وتجميد إيمانهم ، استمدوا جوابهم مما جاء فى قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ » . النساء : آية ٩٧

ويفتح الله باب الرجاء فى عفوه لنوع من هؤلاء المستضعفين الذين يجترفهم مناخ الاستهواء لمردة الغزو الفكرى ، والمذهبى ، ممن يكونون قد بذلوا قصارى جهدهم فى المقاومة ، والمجاهدة ، حتى نفدت حيلتهم ، وضاع طريقهم ، وفى هذا الرجاء فى احتمال العفو يقول سبحانه وتعالى :

« إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا » . النساء : آية ٩٨ و ٩٩

ثالثاً — وعندما نتعقب آثار الغزو الاستعمارى العسكرى التى لم نستأصلها ، ولم نعدل مسارها بعد ، فى أهم مجالات التربية الإسلامية ، وهى « التعليم والتربية والتثقيف » ، وبخاصة بعد أن تحررنا من الإرادة المباشرة ، والطاغية لذلك الاستعمار البغيض ، نجد أننا لا زلنا فى مناهج التربية والتعليم ننحى القرآن الكريم ، الذى هو شريعتنا ، وحجتنا ، ونور طريقنا ، عن أن يكون هو « الأساس » لهذه التربية ، ولتنشئة الخلق والعقيدة والهدف فى حياة أبنائنا ، ومنذ الطفولة المبكرة .

ولقد حدد الله مسئولية الدولة المؤمنة عن هذه التربية القرآنية للمجتمع وأجياله فى آيات كثيرة ظاهرة . على أنه سبحانه وتعالى ألقى أمانتها أيضاً على كواهل الآباء بالنسبة لأسرهم وأبنائهم منذ طفولتهم ، وذلك حيث يقول لهؤلاء الآباء فى أمر صريح إلى الرسول الأمين ، أسوة لجميع المؤمنين الصادقين :

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » .   طه : آية ١٣٢

رابعاً — تزايد أنواع الضعف ، والمخاطر ، على اللغة العربية القرآنية المبينة ، التى لا تكون الصلاة ولا الحياة بغيرها ، والتى بغيرها أيضاً ، أى بهذه اللهجات المريضة التى تنتسب إلى العربية ولا تكاد أن تبدو كأنها تنتمى إليها ، أو تقترب منها — يصبح القرآن الكريم — كما هو فى هذا العصر — مهجوراً ، مرتفعاً بنوره ، وهدايته ، وحكمته ، عن مدى بصر هذه اللغة المثخنة بجراح أعدائها ، والمستعجمة بالمعانى والأصوات المندسة بالقسر إليها . وبذلك وقع هذا الفصام الخطر بين النور البـــاهر للقرآن ، وبين المستهدى به فى تيه إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم .

لقد أصبح القرآن مهجوراً حقاً بهذه اللغة التى لا تكاد ترتفع أنظارها الكليلة ، وقامتها الضئيلة ، إلى أعتاب نور القرآن الكريم لاستشراف معانيه ، وحمل أمانة شريعته ، وشرف أخلاقه . وفى هذا الحال الغريب من « أسباب قصور الكثيرين من المؤمنين فى هذا العصر عن العمل الصالح » استأثر بالقرآن الكريم تجار أصواته ، والمعلنون فى مآتمهم ، ومن وراء ضجات مكبرات الصوت عن ثرائهم أو ثراء فقدائهم ، حتى وإن كانت هذه « الدعاية » بالقرآن المهجور ، غير المطاع ، من أموال الأرامل واليتامى والمساكين . .

وفى ارتباط عودة المؤمنين إلى اللسان العربى القرآنى ، أى بعودتهم إلى الله فى كتابه ، وإلى الهدى بأسبابه ، يقول الله سبحانه وتعالى فى هذا التلازم بين القرآن الكريم وبين اللسان العربى الذى نزل به ، حتى يتيسر بهذا اللسان عقله وتدبره :

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » الزخرف : آية ٣ .

ويقول سبحانه لنبيه فى الربط بين لسان القرآن العربى المبين ، وكمال الدعوة والنذير به :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » . الشعراء : الآيات ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

ولقد أوفينا أمر هذه الرعاية المفروضة على المؤمنين لاستعادة لغتهم العربية ، القرآنية ، الفصحى ، إلى لسانهم ، وحياتهم ، كثيراً مما يستحقه هذا الأمر الجليل فى القسم الثالث من هذا الجزء السادس من مسابقات

القرآن الكريم ، وذلك فى بحثين وافيين ، متكاملين ، أوجه إليهما عناية القارىء المؤمن .

خامساً — ضعف الأسوة الحسنة أمام الأجيال الناشئة فى حياة أكثر الآباء ، والأمهات ، والمدرسين ، والكتاب ، وأجهزة الأعلام ، ورؤساء العمل المباشرين، مما جعل الكثيرين من الشباب ينقادون لمتابعة هؤلاء المؤثرين المباشرين فى حياتهم ، مع استخفافهم وشكهم فى الكثير من دعوات الإصلاح الصادقة ، وكأنهم يواجهونها بقول أسلافهم الذين سبقوهم ممن تجمدوا على ما هم فيه ، وما اعتادوه ، مهما ظهر عيبه ، وتفاقم ضرره ، وذلك كما حكى القرآن الكريم عن أولئك السابقين فى قوله تعـــالى :

« إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » .

الزخرف : آية ٢٣

ولابد أن يحضرنا هنا ذكر هذه الأمانة الثقيلة التى يحملها علماء الدين، والدعاة إلى الله منهم بين المسلمين ، فهؤلاء قد صاروا مع هذه الانقسامات المذهبية التى أشرنا إليها فى أول هذا الكلام — جماعات متفرقة ، تقول كل جماعة برأيها ، وبذلك — مع تفرق الكلمة ، وتشعب الفرق — فقد المسلمون فى أكثر عصورهم حرجاً ضد عدوهم الإسرائيلى — نعمة ألفة القلوب والعقول ، ووحدة الطريق والغاية ، وكما فقد العلماء أنفسهم ، والكثيرون منهم من أهل العلم والفضل ، قدرتهم على التأثير فى المستمعين إليهم ، وصاروا فى شبه عزلة غريبة عن المجتمع الذى يعملون فيه ، وبخاصة وأن الشريعة الإسلامية لم تتم استعادتها بعد — كما كانت

قبل الاستعمار ، وكما نص على ذلك الدستور القائم — لتكون مصدر القوانين ، والأخلاق ، وجميع مناهج التربية ، والتنمية ، فى حياة مجتمعنا المؤمن ، الطامح بحق إلى إقامة « دولة العلم والإيمان » .

وكذلك فإنه فى غيبة الشريعة عن أفق المجتمع ، مصدراً لحياته ، وهيئته ، وأهدافه ، بقى عدد من خيرة الدعاة على حالهم فى قيد « الوظيفة » التى شغلتهم آخر الأمر بدنياهم ، ودرجاتهم ، بوصفهم « موظفين » محدودى المسئولية ، لا دعاة متحررين ، يعملون فى الهواء الطلق ، ويتنفسون حرية وأمن العمل المجزى ، بعيداً عن الارتزاق والتكسب بالدعوة إلى الله ، وبذلك ينفتح الطريق الصحيح بالألفة ، والاستجابة ، والثمرة ، بين الدعاة والمدعوين ، مصداقاً لقوله تعالى فيما وضعه من قانون هذه الدعوة الخالصة إلى الله :

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ » يس : آية ٢١ .

هذا القانون الذى يتلخص فى كلمتين :

* أجر الداعية إلى الله هو على الله . .
* شرط التصديق والاتباع للداعية إلى الله أن يكون « هو » أول المهتدين بما ينادى به ، وما يدعو إليه .

السؤال الثـــانى :

« اذا كنت من فضل الله عليك من المؤمنين حقا ، الذين يعملون بما أمر الله به ، وينتهون عما نهى الله عنه ..

فكيف تحقق لك بالبرهان العلمى هذا اليقين الثابت بأن الله الذى تؤمن به ـ رغبة ورهبة ـ هو الله الحق الذى لا اله الا هو ، خالق كل شىء ، والذى بيده ملكوت كل شىء ، وليس هو مجرد لفظ « موروث » خال من معناه ، ومن دلالته ، ومن اشعاعه بالنور الجاذب اليه ، كما هو شأن من نسمعهم يرددون اسمه تعالى ، دون أن يتأثروا بذكره ، أو يخشعوا لجلاله ، أو يلزموا أنفسهم بطاعته .. ثم يحسبوا أنفسهم من المؤمنين ؟ » .

الإجــابة :

إن الإجابة عن مثل هذا السؤال لا يمكن أن تكون سباقاً إلى الحقيقة المطلوبة به على طريق واحد . ذلك أن السؤال يبدأ من أول جملة فيه بقوله : « إذا كنت من فضل الله عليك من المؤمنين حقاً » . . ومعنى هذا إذا كان جميع المتسابقين سيجيبون عن هذا السؤال ـ كما حدث بالفعل ـ أن الإجابة ستسير فى طريقين :

• الطريق الأول : طريق من يرون أنهم من « المؤمنين حقاً » وهؤلاء سيتحدثون ـ من تاريخ حياتهم ـ عن واقع بحثهم عن هذا البرهان العلمى على أن الله هو الخالق المدبر ، والواحد الأحد ، وأنه حق يملأ يقينهم ، ونور يهدى طريقهم . كما سيتحدثون عن أثر هذا اليقين بالله الحق فى قيادته لصالح أعمالهم ، وفى دفعهم إلى التغير الدائم حتى لا يتغيروا عن طاعة ربهم ، وتحصين تقواهم . .

• الطريق الآخر : طريق من لا يزالون يعيشون بأيمانهم التقليدى ، وهم يبحثون من خلال ما يسمعون وما يقرأون عن فرجة من الضوء تهديهم إلى صحوة فطرتهم السليمة ، وبعث إيمانهم الصادق . وهؤلاء سيسارعون إلى الإجابة الاجتهادية ، التى تعتمد على الذكاء ، وعلى حسن الفهم والتخريج من مقارنة الآيات القرآنية ، ومن مراجعة كتب الفقهاء ، القدامى منهم والمحدثين ، وذلك للوصول إلى أقرب تصور صحيح لهذا « البرهان العلمى » فى يقين المؤمن الصادق على الله الحق .

ولمـــا كان من غير المتيسر أن يقطع مؤمن — وبخاصة فى مثل عتام عصرنا هذا وتفرق السبل فيه — بأنه من « المؤمنين حقاً » ، بل إذا كان هذا أيضاً من غير الجائز لمؤمن أن يقطع به لنفسه ، أو للناس ، لأن الحكم على هذا « الإيمان الحق » فى قلوب المؤمنين ، وأعمالهم ، وغيب سرائرهم ، إنما هو لله وحده ، العالم بغيب عباده ، والمطلع على ما هو أخفى من السر فى أنفسهم ، وما هو أبعد من المرئى من أعمالهم — فإن الإجابة عن هذا السؤال الكبير ، تعود فى ظل هذه الحقيقة ، فتجمع جميع المتسابقين — والحمد لله — على طريق واحد ، هو محاولة الإبانة عن طريق هذا البرهان العلمى على الله الحق ، أساساً وركيزة للإيمان الحق ، بغير ادعاء لهذا « الإيمان الحق » الذى ندعو الله به ، ونستهديه إليه ، والذى هو فى غير من شهد الله لهم به فى كتبه من رسله ، وأصحابهم ، وأنصارهم ، غيب لايعلمه الاهو ، سبحانه علام الغيوب وهو الشهيد الرقيب.

من القرآن الكريم :

والبداية إلى معرفة طبيعة هذا البرهان العلمى على الله الحق ، وإلى تحديد الطرق التى قطعها « المؤمنون حقاً » إليه ، هى ولاريب هذا التدبر لمـــا

جاء فى القرآن الكريم من وصول قوم النبى عليه الصلاة والسلام بدعوتهم ودعوة كتاب الله إليه . فلقد كان أكثر ما نزل من آيات الوحى تذكيراً لقريش ، ومن حولها من قبائل الجزيرة العربية ، بهذا البرهان الحسى ، والعلمى ، على وحدانية الله الذى هداهم إليه ، وأعدهم لما اجتباهم له ، من نعمة الإسلام ، وأمانة التقوى . وقد شمل هذا التذكير ما يقطع بأن عناصر حياتهم الأساسية داخل الجزيرة العربية تتحرك كلها — فى حكمة الله — باتجاه شهود هذا البرهان على الله الواحد بغير تشبيه أو خفاء .

لقد شمل تذكير الله لقوم النبى بآياته ، ونعمه ، التى جعلها فيهم طريقهم المضىء لإفراده بالعبادة ، هذه الآيات التى لم تتكامل لغيرهم ، فى بداء مثل بدائهم ، وفى قطاع مضىء من الأرض والسماء فى قلب العالم كهذا القطاع المتكامل بضوئه ونوره ، وفى سمائه وأرضه ، كما هو إلى اليوم فوق أرضهم .

• لقد ذكرهم الله سبحانه بنعمة الرحلة الدائمة بين فترات من الإقامة المرقوتة ، وذلك حيث أقام حياتهم الغنية بآلاء الله ، ومشقة الحياة ، على كل من الرعى والتجارة ، وهو فى هذا التذكير الذى يجعله آية من أعظم آياته — أمام دهشة المتحضرين المستقرين ، والمستعجمين المترفين — يقول سبحانه عن خيامهم ، أو بيوت الشعر التى لا يأوون فى أفضل حياتهم وأعزها ، إلى غيرها ، حين يرحلون ويظعنون :

«وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ » . النحل : آية ٨٠ .

إن هذه البيوت أو الخيام من جلود الإبل ، هى آية الله التى كتبها لهم ، وأنعم بها عليهم ، حين فرض عليهم ليعيشوا فى بدائهم أن يخرجوا فى الربيع إلى المرعى ، ظاعنين ومقيمين ، وراء هذا المرعى الخصب حيث يكون ، إلى أن ينتهى فيعودوا إلى بيوت بسيطة فى بعض القرى أو الواحات ، إن كانت لهم ، أو ليضربوا هذه الخيام عند منابت النخيل فى مواسم ثمره ، أو فى أماكن الاستجمام حيث هى انتظاراً للربيع القادم .

أو أن يخرجوا — كما كتبه الله لهم أيضاً — ظاعنين ومقيمين فى هذه الخيام ، فى رحلات القوافل التى ملكوا بها نقل تجارة العالم ، فيما بين الشام واليمن — لتعبر قادمة من أوروبا باتجاه الهند وآسيا ، فى أعظم حركة لتبادل السلع جرت فى العالم القديم ، وحتى العصور الوسطى وما بعدها .

وفى تذكير الله لقريش ، بهذه النعمة فى سيادتها على طرق التجارة بين الشام واليمن ، وقيامها بحراسة قوافلها ، والمشاركة فى بعض التجارة لحسابهم أيضاً يقول سبحانه :

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الذى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » . سورة قريش

• ولقد ذكرهم الله سبحانه — على طريق هذا البرهان المضئ بوحدانيته وآلائه — بهذه الإبل التى جعلها « عمود حياتهم » ، وأفضل رزق خصهم به دون غيرهم ، وسماها لذلك « الأنعام » لدلالتها على كمال النعمة فى الرزق ، وتعدد المنافع فى السعى ، إلى الحد الذى لا يقوم الغنى بغيرها ، ولا تهون مشقات العيش فى بداء موحش ، وماء قليل ، وظعن متصل ، وتيه قريب ، بغير هذه الأنعام الذكية ، القوية ، الشريفة ،

الصابرة ، والتى تكاد من وفائها وولائها لصاحبها أن تنطق بمشاركتها له كل ماينوءبه ، وحملها عنه أكثر ما لا يطيقه ، حتى لقد تعددت أسماء الأبل ذكوراً وإناثاً بخير الصفات الدالة على صدق صحبتها للإنسان ، ومنها كلمة « الزاملة » ومعناها « الراحلة التى يبدو كأنها تظلع من شدة نشاطها فى السير بحملها » ومعناها أيضاً « الزميل » والصاحب فى سراء الحياة وضرائها ، ولا يزال البدو يسمون الجمل « الزمالة » إلى اليوم . وفى نعمة الله السابغة بهذه الأنعام على من خصهم بها يقول سبحانه وتعالى :

« اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُون . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ . ويُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَىَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرُون » .

غافر : الآيات ٧٩ و ٨٠ و ٨١ .

ويذكر الله بأنه أوجب عليهم فى مناسك الحج منذ أقام إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، ومنذ أذن إبراهيم فى الناس بالحج — أن يشكروه على هذه النعمة الكبرى فى الأنعام ، وذلك فى قوله تعالى :

« وَيَذْكروا اسْمَ اللهِ فى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » . الحج : آية ٢٨ .

ويقول الله سبحانه لمن خصهم بهذه النعمة التى تحملهم بين آيات الله لرؤية البرهان الحق على أحديته ، وواسع رحمته ، وبديع ملكوته ، وهى الأنعام أو الأبل :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ » . يس : آية ٧١ .

ويقول أيضاً وهو يجعل آية نعمته عليهم بالأنعام قبل آية نعمته عليهم بالبنين :

« وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ » .

الشعراء : آية ١٣٢ و ١٣٣ .

ويقول سبحانه فى تأكيد آيته الكبرى لهم بنعمة هذه الأنعام ، طريقاً إلى البرهان على تفرده سبحانه بحق العبادة والشكر ، بين آياته الكبرى التى بسطها من حولهم ، وجعل من هذه الأنعام مركباً لشهودها ، ونعمة تامة تقودهم إليها ، وتبصرهم بها :

« كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُم إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى » .

طه : آية ٥٤ .

ويجمع الله أكثر حسنات هذه النعمة الكبرى بهذه الأنعام فى قوله لمن خصهم بها من دون العالمين ، فى أتم الظروف وأوسع الساحات وأعظم الغايات لظهور هذه النعمة ، مضيفا إليها نعمة الجمال ، والزينة ، وحسن المنظر :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حين تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

النحل: الآيات : ٥ و ٦ و ٧ .

• بهذا الذى كتبه الله لقوم النبى صلى الله عليه وسلم ، كما كتبه لآبائهم من قبل ، فى هذه الجزيرة العربية التى حررها الله لدينه ، وخاتم رسالاته ، من نعمة الرحلة المستمرة ، والظعن والإقامة ، سواء وراء المرعى ، أو على طرق التجارة العالمية بمعالمها فى مجاهل الصحراء ، ثم بهذه النعمة الكبرى المعينة على النعمة الأولى ، والمتحدة بها ، وهى نعمة « الأنعام » — انفتح أمام هذا الإنسان العربى طوال عصوره الماضية، وفوق هذه الأرض المضيئة بملكوت سمائها وأرضها ، والهادية فوق متاهات بواديها وقفارها — هذا الطريق المشرق إلى البرهان الحسى ، والعلمى ، على وحدانية الله الحق ، الذى لا معبود سواه ، ولا عزة بغيره ، ولا شىء بغير مشيئته .

وتتجلى نعمة الله واضحة فى العون على طريق هذا البرهان بهذه الأنعام التى هى زاملة الراحل المجد ، وزميل الظاعن المتدبر ، فى نفس هذه الآيات التى استشهدنا بها منذ قليل عن نعمة الله الكبرى بهذه الأنعام، وذلك فى قوله تعـالى :

« اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ » .

غافر : الآيات ٧٩ و ٨٠ و ٨١ .

واضح تماماً فى قوله تعالى فى الآية ٨١ :

[وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللهُ تُنْكِرُون] .

أنه سبحانه وتعالى قد أتاح لقوم النبى ، وآباءهم من قبل ، بهذا

السير الدائب وراء المرعى ، أو على طرق التجارة ، وبفضل هذه الأنعام الذكية ، الوفية ، الصابرة ، الجليلة المنافع فى كل شئون الحياة ، وأسباب العيش ، والمهيأة فى خلق الله ، وحكمته ، ورحمته ، لتذلل كل مشقات هذه الرحلة الدائبة ، والظعن المتواصل ، أن يجدوا هذا الطريق مفتوحاً دائماً إلى آيات الله ، الدالة عليه ، والناطقة بوحدانيته ، والشاهدة على حكمته ، وبقائه ، وجلاله . . ومن ثم . . فأى آيات الله التى يشهدونها بغير انقطاع على هذا الطريق المفتوح . . ينكرون ؟!

واستناداً إلى هذا الوضوح لآيات الله أمام سمع وبصر هذا الراحل المجد ، على ظهر جمله القوى الصبور ، كان هذا التذكير الدائب فى كتاب الله لمن غفلوا عن آياته ، القريبة إليهم ، والناطقة لهم ، والشاهدة عليهم ، حتى يتذكروا ، وينهضوا إلى ربهم من غفلتهم ، وليرجعوا إليه فوق فتنتهم بأموالهم ، ونعمة الله عليهم . وهكذا كان الأمر ، حين بلغ القرآن الكريم مبلغه من تذكيرهم ، فتذكروا كما شاء الله لهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً ، ينظرون إلى آيات الله المشرقة من حولهم فلا ينكرونها ، بل يقولون كما قال الله عنهم :

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ » آل عمران : آية ١٩١ .

* * *

وبعد . . فإن هذه المقدمة عن الإجابة المطلوبة تنقلنا إلى تحديد الإجابة عن هذين التساؤلين وهما :

١ – هل هذا البرهان الحسى والعلمى شرط يؤكد صحته القرآن الكريم لسلامة يقين المؤمن الصادق بالله الحق الواحد الأحد ؟

٢ – كيف يتيسر لنا من القرآن الكريم أن نحدد من طبيعة هذا البرهان المحس ، والعلمى ، على الله الحق ، الواحد الأحد ، حتى نقدم الإجابة الأقرب لما كان عليه « المؤمنون حقاً » فى كتاب الله ، ولما يمكن أن يكون اليوم هو بنفسه برهان « المؤمنين حقاً » ممن يشاء الله لهم الهدى فى هذا العصر ، فيذكرهم بأسبابه ، ويعينهم عليه ، ويحفظهم به ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

البرهـــان حجة :

إذا كان البرهان على أمر ما هو الدليل القاطع على صحة هذا الأمر ، فإنه يعنى بهذا أيضاً – إلى جانب الصحة لهذا الأمر – أنه الحجة الملزمة بكل ما يقتضيه هذا الأمر من اعتقاد وعمل .

وعلى هذا كان من الطبيعى أن يحتاج الإلزام بكل حقائق الدين ، وفرائضه ، وأخلاقه ، وغاياته ، إلى هذا البرهان الملزم بكل هذا المنهج الذى يشرعه الدين الحق ، أو يشرعه الله لمن يدعوهم إلى هذا الدين الحق . وهذا البرهان أو الحجة الملزمة يكون فى الدعوة إلى الدين الحق من جانبين :

الأول : من جانب الله سبحانه وتعالى الذى يقدم إلى من اختار دعوتهم بلسانهم على أرض الدين برهانه إليهم على صحة ما يدعوهم إليه ، وحجته لهم أو عليهم إذا آمنوا ، أو لم يؤمنوا بهذا البرهان .

ولقد كان هذا البرهان من الله إلى قوم النبى ومن حولهم هو آيته وحجته الكبرى بالقرآن الكريم ، وذلك حيث يقول تعالى :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً » . النساء : آية ١٧٤ .

الآخر : من جانب أولئك الذين يزعمون فى غفلاتهم ، مع ما آتاهم الله من النعم التى أشرنا إليها ليبصروا آياته ويروا البرهان على أحديته — أن معه شركاء يعبدونهم ليقربوهم إليه زلفى !

وفى مواجهة هؤلاء الغافلين ، أو المعاندين ، أو اللاهين بالترف والمتاع ، يسألهم الله « البرهان » على ما يدعون إن كانوا صادقين ، مما يشير ويؤكد أن « البرهان » على كل دعوة وفى كل قضية هو أمر لازم لصحة الفصل ، وقيام الحجة ، وذلك حيث يقول تعالى لمعاندى قريش :

« أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . النمل : آية ٦٤ .

أســـوة الرســـل :

وعندما نرجع إلى أسوة الرسل فى هذا البرهان الذى أقاموا عليه يقينهم بالله الواحد الأحد نجد أنهم جميعاً كانوا قبيل بعثتهم متفرغين لطلب هذا البرهان ، فيما بين أيديهم من آيات الله ، وهم يسيرون وينظرون ، فيجدونه ظاهراً لسمعهم وأبصارهم فى ملكوت السموات والأرض ، حتى إذا ما اصطفاهم الله لرسالاته سارعوا إلى التصديق بما آتاهم به من برهانه على أحديته ، وملكه ، ورحمته ، من الكتب ، أو الآيات الحسية ، وإلا فكيف كانوا يصدقون بعد بعثتهم بما لم يكونوا على يقين به أعظم اليقين قبل هذه البعثة ، وهو أن الله الواحد الأحد ، الرحمن الرحيم حق لا ريب فيه ؟!

وحتى نقدم الدليل على طلب هذا البرهان فى حياة الرسل ، قبيل

بعثتهم ، أسوة لمن سيؤمنون بدعوتهم بعد بعثتهم ، نشير بإيجاز إلى ما كان من ذلك فى سيرة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

أما ما كان من ذلك فى حياة إبراهيم عليه السلام ، قبيل بعثته ، فقد تناوله القرآن الكريم ببعض التفصيل فى أكثر من موقف ، وهو يبين هذا المنهج من التفكر السليم الذى امتاز به إبراهيم ، والذى وصفه الله بسببه بصفة « الحنيف » ، أى هذا المؤمن الذى يرى التأكيد لبرهانه فى نفى النفى مثل قوله : « إن الميل عن الميل » يعنى الاستقامة نحو الحق ، وكلمة : « الحنيف » أصلا تعنى « الميل » .. ثم يتسع هذا المنهج – كما ظهر فيما قصه القرآن عن حديث إبراهيم إلى نفسه وهو ينكر على قومه عبادتهم للشمس والقمر وبعض الكواكب من دونه ، بهذا المنهج الذى اعتمد على أن البداية بإثبات غير الصحيح تنتهى إلى نفيه ، كما أن البداية بنفى الصحيح تنتهى إلى إثباته ، وبهذا بلغت « الحنيفية » فى برهان إبراهيم على الله الحق أقصى ما بلغت إليه من قوة هذا البرهان ، ومن جلائه ونقائه ، فى هذه الشهادة التى تقوم على إثبات أن الله هو الواحد الأحد الحق ، وذلك بمطلق نفى جميع الآلهة الكاذبة ، وهى الشهادة التى استقرت من بعده ، وعلى منهج حنيفيته ، أساساً للإيمان بالله ، والإسلام إليه ، فى قولنا « لا إله إلا الله » أى لا إله نقبله من كل هذه الآلهة المزعومة ، حتى إله الهوى فى نفس الإنسان ، وبذلك يبقى الله وحده هو الله الواحد الحق ، ظاهراً بكل اليقين فى قلوبنا ، منزهاً بحقيقته عن الزمان والمكان ، وعن التحديد والتجسيد ، حيث لا نقول بغير هذه الحنيفية الجلية النقية « هو الله » ثم نتوقف عند هذه الصيغة التى تثبت إلاهاً محدداً بالإشارة إليه ، بل نقول كما جاء فى القرآن الكريم لتأكيد صحة الشهادة بالله على الصيغة الحنيفية ، من قوله تعالى :

« هُوَ اللهُ الَّذِى لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ » .

الحشر : آية ٢٢ و ٢٣

وهكذا منذ نشأة إبراهيم الباكرة سار فوق أرض العراق ينظر ويتفكر ، بهذا المنهج الذى وفقه الله إليه ، حتى انتهى مع سلامة قلبه ، وصحوة فطرته ، وطول تفكره فيما عليه قومه من الزيغ والضلال المبين — إلى هذا اليقين الذى كان نعمة الله الكبرى له فى جميع مراحل حياته ، كما كان مصدر أمنه ، وسلام نفسه ، وإشراق حجة الله فى لسانه ، وذلك حيث يقول الله تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » . الأنعام : آية ٧٥ .

وأما عن النبى صلى الله عليه وسلم فإنه على نفس طريق أبيه إبراهيم وجد هذا البرهان المشرق ، واليقين المستقر ، وهو يتحنث فى غار حراء قبيل بعثته التى كانت دعاء إبراهيم وإسماعيل له ولقومه ، كما كانت النور الذى يبقى بكتاب الله من بعده . ففى مرقبه فى هذا الغار ، وهو يدعو الله ويتهلل لذكره ، كان يرى آيات الله تتتابع فى ضوء النهار ، ونور الليل ، وسعة الآفاق ، ظاهرة لسمعه وبصره ، وفى تفكره وتدبره ، ببرهان الله الذى استقر به يقينه ، وأمنت إليه نفسه ، حتى نزل عليه الوحى ، وناداه الله ليحمل أعظم الأمانة ، أمانة خاتم النبيين ، الذى حق له بيقين برهانه قبيل بعثته ، وفى نور هذا البرهان القرآنى الذى كان بشارة بعثته ، أن

يكون على بينة من ربه ، وبصيرة من صدق دعوته ، كما جاء من قول الله تعالى عنه وعن أصحابه :

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ».
يوسف : آية ١٠٨ .

طبيعة هذا البرهــان :

كنا — فى الإجابة عن هذا السؤال — قد حددنا أهمية البدء بالإجابة عن هذين التساؤلين :

١ — هل القرآن الكريم يؤكد أن البرهان الحسى والعلمى على الله شرط لسلامة يقين المؤمن الصادق بالله الحق ؟

٢ — كيف يتيسر لنا — بالرجوع إلى القرآن الكريم — تحديد طبيعة هذا البرهان الذى يرتكز إليه يقين المؤمن الصادق بالله الواحد الأحد ؟

وإذا كنا فى الصفحات السابقة قد أثبتنا بحجة القرآن الكريم ، وأسوة الرسل ، أن التماس هذا البرهان الحس ، والعلمى ، على الله الحق ، تثبيتاً ليقين المؤمن الصادق ، وأمناً لنفسه ، وقوة لحجته ودعوته ، فقد بقى الأمر الثانى لاستيفاء الإجابة عن هذا السؤال ، وهو البحث فى تحديد طبيعة هذا البرهان .

وبالقدر المتاح من الإجابة الموجزة فى هذا هذا البحث سأتناول تحديد طبيعة هذا البرهان الذى لا غنى عنه لتثبيت يقين المؤمن الصادق ، وإطلاق قدراته وتنظيمها على طريق العمل الصالح به ، وذلك فى النقاط الآتية :

١ — البرهان عام للجميع .
٢ — وهو لا يزال ميسراً .
٣ — وهو برهان علمى .
٤ — وأيضاً بلغة العصر .

البرهــان عـام للجميع :

الصفة الأولى لهذا البرهان ، كما تحددت طبيعته بوضوح فى القرآن الكريم على أنه التفكر فى آيات الله فى السموات والأرض ، وكما أعد الله حياة العرب فى جزيرتهم المحررة للدين الحق إلى يسر هذا التفكر من خلال الرحيل وراء المرعى ، وعلى طرق التجارة ، فى قطاع مضىء من السماء والأرض — أن الصفة الأولى له هى أنه برهان عام ، أى أنه برهان متاح لجميع من وهبهم الله هذه النعمة — إذا لم يغفلوا أو يطغوا — أن يتوصلوا إليه ، وأن يتحققوا منه . إنه متاح للأغنياء والفقراء ، ومتاح لمن يقرأون ويكتبون ، ومن لا يقرأون ولا يكتبون ، وبهذه السواسية فى الحق والالتزام بمعرفة هذا البرهان ، بعد تقليب السمع والبصر فى تتبع الآيات الشاهدة به، والناطقة عنه ، يتجلى فى ركن أساسى من أركان الدين ، عدل الله ، وفضله ، ورحمته .

إن هذا البرهان العام على الله ، وهو الركيزة للدين الحق ، ولمنهجه العلمى فى الحياة ، يشهد بهذا الفارق الكبير ، بل بهذا التناقض ، بين الدين الحق وبين جميع الفلسفات التى تزعم بتمويهات أصحابها أنها تقيم « المجتمعات الفاضلة » على أساس من « علومها السرية » التى قصرتها على الصفوة من كهنة هذه العلوم ، وسخرتها لتثبيت سلطان الملوك ، وتكريس عبودية ومهانة العبيد لهؤلاء الملوك والفلاسفة والتجار .

إن هذه السواسية فى عموم هذا الحق المتاح على أرض الدين الحق ، وبأحكام الله فى شرائع هذا الدين الحق ، لاستطلاع هذا البرهان على الله فى آياته ، وملء ملكوته ، تؤكد مدى الصدق فى حقيقة المساواة فى الحقوق والواجبات بين جميع البشر أمام الله ، كما أشرقت بها فى التطبيق دعوة الإسلام بعد انتصاره وانتشاره . . وتؤكد أيضاً صدق ما جاء به شرع الله بدينه الحق من أن لكل إنسان بحسب عمله ، وبأن لكل محتاج فيما دون الكفاية بقدر حاجته ، وفى أنه لا طبقة ، ولا استغلال ، ولا بخس لحقوق ، ولا كنز للأموال ، ولا عدوان على الحرمات ، ولا تفريط فى طهارة الجسم والنفس ، والقول والعمل ، والفكر والشعور . .

إن أفلاطون الذى لا يزال « شيئاً مذكوراً » عند بعض موالى الثقافة الأوروبية ، كان يعبر فى مدينته الفاضلة المزعومة عن مصالح الأرستقراطية الأثينية أو الصفوة من التجار والمحاربين ، وكان يرى أن يكون كل شىء مشاعاً فى مدينته ، مع تفضله باحتقار العمل اليدوى ، وحرمان أهل الحرف من الحقوق السياسية ، وإصراره على أن يبقى العبء الأكبر فى خدمة سادة هذه المدينة من الملوك والكهنة والفلاسفة ، ملقى على الأسرى المحرومين من كل حق * !

وأما أرسطو فكان فى فلسفته النامية على ركائزها من الأرستقراطية اليونانية — بعد أفلاطون ، أطول باعاً فى متاهاته التجريدية ، وفى احتقاره العمل اليدوى ، الذى حمله على أن يرى حرمان العمال من حقوق المواطن ، وذلك لأنه — بمستوى حياة اليونانى القديم ، حيث كان مخدوماً بأسراه

(*) راجع كتاب جورج سول عن « المذاهب الاقتصادية الكبرى » ترجمة الدكتور راشد البراوى .

وعبيده ، ومتفرغاً ليستمتع بالكلام الخرافى عن « الديمقراطية ، والمثالية ، والمـــادية » كان يرى أن « العمل فى المهن الوضيعة » يسبب الدمار للعمال ومديرى العمل على السواء ، لأن العمل اليدوى يدفعهم إلى العزلة فى بيوتهم ، وإلى قضاء اليوم كله بجوار المدفأة — وليس عند الأكروبول للجدل الفارغ مثل السادة الأثينيين — وبذلك فإن هؤلاء العمال يصبحون فى المجتمع من « أهل السوء » الذين لا يهتمون بالدفاع عن بلادهم ! !

ويكفى فى تأكيد خرافة المفهوم الديمقراطى ، والإنسانى ، فى حياة الأثينيين القدماء فى أزهى عصور فلسفتهم — وذلك بتقدير الأوربيين وحدهم — أن نذكر ما رواه المؤرخ الأغريقى بلوتارخ من أن الإسكندر المقدونى عندما نما إلى علمه — بعد أن خرج إلى غزواته للوطن العربى وباتجاه الهند — أن معلمه الفيلسوف أرسطو قد نشر بعض كتبه فى الفلسفة ، ثار لهذا النبأ ثورة شديدة ، وكتب يقول له — فيما هو مفهومهما الموحد لأرستقراطية وسرية الفكر الفلسفى لتعزيز سلطة الملوك ، ومصالح التجار والسادة الأثينيين ، عبدة زيوس ، وباخوس ، وديونيسيوس ، كتب الإسكندر إلى أرسطو يقول له بغير خفاء لغضبه ، ولمـــا يعنيه من قوله :

« من الإسكندر إلى أرسطو ، لقد ارتكبت خطأً بنشرك « الأجزاء الباطنة من العلم » وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس إذا جعلت « المعرفة العليا » التى اكتسبناها منك مشاعة فى العـــالم أجمع ؟ » .

وكان رد أرسطو مهدئاً لمخاوف الأسكندر ، ومؤكداً له بقاء الواقع الطبقى والسرى والغامض للفلسفة وذلك حيث قال فى كتاب إليه :

« لقد نشرنا هذه الكتب ولم ننشرها . . ولن يصل إلى فهمها إلا من درس علينا مثلك !! » .

وبكل بساطة . . وصدق . . هذا هو الدين الحق فى سواسيته ، وعلومه ، وعدالته ، ووضوحه . . وهذه هى الفلسفة فى طبقيتها . . وسريتها . . ومتاهاتها . . واستبطانها فى عملها الكهنوتى لخدمة سلطان المـــلوك ، والتجار المستغلين ، وطلاب المتعة والفجور تحت أقدام آلهة الخمر . . والخصب . . والمتاع ! .

وبهذا القياس نفسه ، الذى ننكر به أن يكون البرهان على الله فى طاقة العلوم الفلسفية ، الطبقية ، السرية ، غير العلمية — نؤكد أيضاً أن هذا البرهان العلمى على الله الحق ، الواحد الأحد ، الملزم بأمانة العمل الصالح ، والإيثار المتصل ، والطهر المتجدد — لا يمكن أن يكون كاملا ، وفعالا ، من طريق التأثر العابر بقراءة الكتب العلمية ، عندما تتناول من عجائب خلق الله ما يشير إلى قدرته تعالى ، وينبه الغافلين ، والملحدين من العلمـاء ، أمام مثل هذه الآيات الدقيقة إلى هذا النظام الكامل ، والعجيب ، والمتحرك فى كل اتجاه بغير اختلال — إلى أن هناك « قوة عليـــا » كما يسمونها ، أو إلاها — بلغتهم التى لا تملك الدلالة على الله الحق باللغة العربية . ذلك أن مثل هذه الآيات العلمية الدقيقة من آثار تجارب العلماء المتنوعة على المعادن ، أو النبات ، أو الحيوان ، أو فى عالم الفضاء ، وداخل الذرة ، أو فى تصور وجود هذا العدو الراصد للبشر ، وللحياة على الأرض ، فى هذه الصورة الدقيقة الغريبة للكهيرب — أى الأليكترون — الموجب ، الموجود حالياً خارج الفضاء الأرضى ، فإذا نزل من عليائه إلى جو الأرض — حيث كل الكهيربات أو

الإلكترونات فى الذرات سالبة -- وقعت الواقعة . . إن مثل هذه العجائب التى قد يقرأها القارىء الواسع الخيال فيملكه العجب ويذكر الله ، أو قد يباشرها العالم الأوروبى بنفسه فيرطن بكلام يفيد قدراً من المصالحة مع الإيمان بهذه « القوة العليـــا » . وقد يباشر العالم العربى المؤمن هذا الشعور نفسه فيزداد حرجه من قصوره عن طاعة الله ، أو يزداد إيمانه بالله ، وتصديقه بالرسل والكتب واليوم الآخر .

إن كل ذلك لا يغنى قط — وبخاصة بالنسبة للشعوب العربية التى منحها الله فى قلب العالم هذا القطاع المضىء والمتكامل من السماء والأرض — لا يغنى قط عن توجيه السمع والبصر ، واطلاق العقل والقلب وراء هذا « البرهان » الجلى فى السماوات والأرض على الله الحق ، والذى يتساوى الجميع بغير فروق ، وبغير طبقات فى يسر الوصول إليه ، وفى واجب التيقن منه .

ذلك أننا إذا اعتبرنا هذه الآيات الدقيقة ، والخاصة بطبقة محدودة من العلماء ، والحبيسة داخل الكتب والمختبرات العلمية — هى البرهان الأول ، والأعظم ، والأعجب ، على أن الله سبحانه هو الخالق المدبر ، وهو الواحد الأحد ، فإننا نكون بذلك قد رجعنا القهقرى إلى متاهات علوم الصفوة ، وطبقية الفلسفة ، وأسرارها ، وظنونها أحياناً ، حيث لا يمكن أن ترقى جميع الكشوف العلمية فى تفسيرها للطبيعة عن « الإطار النظرى » القابل للشك أو التعديل ، أو زيادة الإيضاح . مما لا يجعل من مثل هذه العجائب العلمية فى عالمها المغلق برهاناً عاماً أول يكون حاسما ، وشامل الأثر ، وبالغ اليقين ، كهذا البرهان الذى تقدمه السماوات والأرض فوق وطننا العربى بمعايشة الناظر إليها ، والمتحرك معها فى واقعها ، والمتفكر دائماً على مدى اتساعها وارتفاعها فى هذا الانتظام

والاتساق والدأب الذى يحكمها برهاناً لا ريب فيه ، ولا برهان يدانيه ، على الله القوى العزيز ، والواحد المتفرد ، والرحمن الرحيم .

كذلك فإن الانزلاق إلى إعطاء هذه العجائب العلمية فى برجها المغلق ، وعالمها شبه المستور على العامة ، صفة البرهان الأعظم ، والأول ، والأعجب ، على الله — رغم ما أشرنا إليه من قصورها فى الدلالة ، وفى مدى الصحة ، فإننا بذلك نكون قد قلبنا التاريخ الدينى المشرق رأساً على عقب ، ورفعنا فوق قدر أسلافنا مثل الطالب الذى يقرأ بإعجاب شديد — مثلا — عن نظرية « الطفرة » للعالم النباتى الهولندى هوجودى فريز ، والذى يرى الأنواع الجديدة من الكائنات الحية تنشأ فجأة دون مقدمات بقوة ما يسميه فى نظريته بالطفرة ، وأن هذه الطفرة توجد كامنة فى الأصول ، وأن هذه الطفرة تحدث فى جميع الاتجاهات ، وأن قدرة الطبيعة بهذا « على الخلق » لا حد لها ، وذلك من حيث أنها تمنح الفرص للحياة أو تترك البيئة لاختيار ما يلائمها » . . أقول إننا بوضع هذه العلوم المستحدثة بعجائبها موضع « البرهان الأول » ومجال الآيات الأعظم فى الدلالة على الله — نكون قد أزرينا بإيمان جميع الرسل وأصحابهم ، أولئك الذين كانوا — رغم يقينهم الثابت بالله ، وبرهانهم الحى أمام أعينهم عليه ، بتعاقب النهار والليل ، وملء السماوات والأرض ، وجهادهم الصادق فى سبيله ، لم يكونوا وهم الأبرار الأخيار — يعرفون شيئاً عن : هوجودى فريز ، ولا عن قوانين مندل فى الوراثة ، ولا عن نظرية أنيشتين فى النسبية ، ولا عن جهود علماء القرن العشرين فى أوروبا وأمريكا فى تفتيت الذرة ، والصعود إلى القمر ، واستخدام الأقمار الصناعية فى التنقيب عن الموارد المطلوب سرقتها من الشعوب المتخلفة ،

وفى التجسس على الأعداء والأصدقاء معاً . . والسير بالعالم من خلال « علم لا يقوده الإيمان » إلى الدمار العاجل . . وتعاظم الرعب القاتل ! !

ومن أجل ذلك . . فإنه حتى الذين أعلنوا من العلماء الأوروبيين الملحدين عن بعض كلمات تفيد اهتزاز إلحادهم ، واقتراب عقولهم من الإيمان بخضوع هذا العالم الكامل القوة ، والبالغ الدقة ، إلى « قوة عليـــا » تدبر من أمره . . لم يثبتوا أنهم آمنوا حقاً . . فهل تطهروا . . وهل سجدوا لله . . وهل كفوا عن الخمر . . . وهل توقفوا عن تسخير العلم لخدمة طبقة . . ودمار العالم !؟

والبرهان لايزال ميسراً

والآن أنتقل إلى النقطة الثانية من الكلام عن طبيعة هذا البرهان العلمى على الله فى السماوات والأرض ، وهى : هل لا يزال هذا البرهان بعد تقلص دولة الجمل ، ونعمة الأنعام بالظعن والإقامة ، تحت السماء المشرقة ، ونحو الآفاق المضيئة ، فى أرض العرب . . هل لا يزال هذا البرهان ميسراً للمؤمنين ، أو للباحثين عن الإيمان الحق ، من طالبى اليقين على الله بهذا البرهان العلمى والحس على الله الحق ؟

والجواب نعم . . إن هذا البرهان فوق أرضنا العربية كلها ، ولا أقول الجزيرة العربية وحدها ، ميسر لجميع من يطلبونه من المتثبتين لدينهم ، والمتطهرين من وساوسهم ، ومن سلطان العصر وتياراته الإلحادية الوافدة عليهم .

إننى أقول ذلك عن دراسة وتجربة عامة ، كما أقوله أيضاً عن سابق مجاهدة وتجربة خاصة . والأسوة فى أن إدراك هذا البرهان لا يزال

ميسراً هو الرسول عليه الصلاة والسلام . فلقد تحقق له قبل بعثته أن يشهد هذا البرهان، وأن يتيقن منه وهو يرى فى أسفاره للتجارة مع عمه أبى طالب ، وفى سفره فى تجارة زوجه خديجة – رضى الله عنها – آيات الله المتسقة فى ملكوت السماوات والأرض ، وليكون بها وهو يراها بثاقب بصره ، وحدة سمعه ، ونقاء نفسه – من الموقنين .

ثم انتقل الرسول – عليه الصلاة والسلام – قبيل بعثته إلى غار حراء ، وهو كهف أو مرقب مفتوح على السماوات والأرض بأعلى جبل حراء ، على مسافة فرسخين شمال مكة ، وذلك ليتحنث ، ويتفكر ، ويدعو الله بما يحب لقومه ، وبما تحقق له من برهان ربه على أنه الواحد الأحد ، لا شريك له ، وهو يمد بصره بعيداً إلى تلك الآفاق المضيئة والمشرقة ليلا ونهاراً ، لتجدد له من علمه ويقينه ببرهان الله عليه ، وآياته المسبحة له ، والناطقة باسمه . .

وهكذا فقد أصبح ميسراً بأسوة الرسول أن يتبصر المستقر فى مكان مشرف على السماء والأرض أن يطلب هذا البرهان على الله باستطلاع آياته ، والكشف فى اتساقها عن قدرته ، وحكمته ، ورحمته ، وذلك فى كل مكان من وطننا سواء فى البادية ، أو القرية ، أو المدينة .

أما فى البادية فمن الحقائق التى لا يكاد يذكرها أحد من المعاصرين أنه على بعد بضعة كيلومترات من أية مدينة مصرية ، أو عربية ، توجد الصحراء ببدائها وجلائها ، وبشموسها وأقمارها ، وبسكينتها وأنسها ، وبآياتها الناطقة عن الله بعيداً عن سلطان البشر ، وعن وساوس الهوى ، وقريباً جداً من خلق الله باهراً كما هو ، ومن صنعه الذى أتقنه وسخره لعباده كما جاء فى قوله تعالى :

« وَتَرَى الجِبَال تحسَبُهَا جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » . النمل : آية ٨٨

كذلك فهذه المراقبة لآيات الله ، وطلب البرهان من اتساقها عليه ميسرة لمن يتعذر عليهم فى المدن الخروج بضعة كيلومترات على أقدامهم لمواجهة هذه الآيات النشطة فى مداراتها ، وذلك باتخاذ أسطح منازلهم وعمائرهم « مرقباً » بين الحين والآخر لاستحضار هذا البرهان ، وتجميع شواهده ودلالاته ، والتسبيح مع كل ما يرى من الآيات بحمد الله . .

وأما فى الريف ، وسمائه المفتوحة ، ولياليه القمرية ، وسكينته المستحبة ، ففيه لأبنائه ولمن يزورونه من أبناء المدن سعة ومجال لطلب هذا البرهان ، وتحقيق البلوغ إليه ، وتثبيت اليقين به .

على أن من افتقدوا كل هذا — وهو عدد قليل ولا شك — ففى تلاوة كتاب الله تلاوة صحيحة واعية ، يعززها علم بلغة القرآن الكريم ، وباللسان العربى المبين — ما يعين على استحضار هذه الآيات التى امتلأ كتاب الله بالإبانة عنها ، وبالحث على التفكر فيها ، واستخلاص البرهان منها على صدق الدعوة فى هذه الرسالة الخاتمة على أن الله هو الواحد الأحد ، والخالق المدبر ، والرحمن الرحيم ، بما لا ينتهى نور القرآن الباقى من الدلالة عليه ، والعون على استحضاره ، وعلى زيادة اليقين به بقدر متابعة التلاوة الواعية ، والتدبر المتجدد لهذا الكتاب الكريم .

وأما عن مجاهدتى فى هذا السبيل ، وما يسر الله لى من تجربتى الخاصة ، قاصداً إلى زيادة اليقين بهذا البرهان العظيم الذى صحبنى طلبه من سن مبكرة من مراحل الشباب ، فقد كان ذلك خلال بضع سنوات

قضيتها مع أسرتى وأبنائى الصغار راحلا ومقيما بين بوادى وجبال طور سيناء ، أحيا حياة العرب البسيطة هناك ، أظعن وأقيم ، وأنظر وأتفكر ، وأمد السمع والبصر ، وأنا أرى وأشهد هذه الآيات والمشاهد نفسها ، التى وجفت لها قلوب الأسلاف رغبة ورهبة ، وأمنت إليها أنفسهم عيشاً وعقيدة ، واستقر بها إيمانهم عليها برهاناً ويقيناً . .

لقد رأيت بعد أن أنست نفسى كأن الجبال تكلمنى ، وتصغى لتسبيحى ، وسمعت كأن فى الرياح أصواتاً تنادينى ، وتأنس لى ، وتردد التسبيح معى ، وبينما امتد بصرى إلى أبعد مما امتد إليه نحو الآفاق ، وارتفع إلى أعلى مما ارتفع إليه نحو السماوات ، أحسست وأنا فى أقرب ما كنت من سنوات عمرى إلى الله — كما وقع ذلك فى شعورى ويقينى — كأن الله سبحانه وهو يشرح صدرى ، ويضع عنى وزرى ، ويطهر من كل الوساوس والمخاوف فكرى ، يعيد بنائى ، ويقوم ويدعم أركان اعتقادى ، لأتسق بهذا التطهير ، والتصحيح ، والتقويم ، مع سنن وقوانين خلقه البديع كما وعيتها ، ومع عجائب آياته البينات كما اجتمعت لى حقائقها فى أبهى صورها ، وأكمل مداراتها ، وأصدق شواهدها ، فكان لى من كل ذلك هذا البرهان الذى ظننت أنى ملأت عقلى به ، واغترفت يقينى منه ، وأصبحت حياتى حتى اليوم — إن لم أكن فتنت أو غويت — ملتزمة بهذه الحجة إن شاء الله ، ومتحصنة من كل المتغيرات بهذا اليقين ، والحمد لله . .

هذه هى لمحة من تجربتى فى حدود الإشارة إليها على استحياء ، حيث لا أملك غير ذلك تحدثا بنعمة الله ، وتأكيداً لصحة الجواب عن طبيعة هذا البرهان العلمى ، وقد شاء الله أن تكون الإجابة عنه من نصيبى

فى هذا الكتاب . وكذلك لأنه ليس كل ما يعرض لعباد الله المؤمنين ، من غير رسله ولاصحابته ، من نعم لله تكون فوق تصور عامة الناس ، مما ينبغى أن يخاض فيه ، توقياً لفتنة البسطاء ، واتقاء لعيب تزكية النفس . على أنى حتى لا يطير الخيال ببعض القراء إلى أن هذه المرحلة من حياتى — كما تصورها البعض — كانت لوناً من ألوان « التصوف » أؤكد أنى لم أكن فى يوم من الأيام ، فى طاعتى لله على شريعة كتابه ، وأسوة رسوله ، صوفياً قط ، ولن أكون إن شاء الله . . مع دعائى للبسطاء ، والمتعففين من المتصوفة — بسعة الرحمة من الله ، وبالهداية به إلى سواء السبيل .

وهو برهان علمى :

وأنتقل من هذا إلى النقطة الثالثة فى الكلام عن طبيعة هذا البرهان العلمى على الله ، وهى إثبات أنه « برهان علمى » وفى إثبات هذه الحقيقة نرجع إلى منهج القرآن الكريم فى إثباتها ، ذلك أنه من المهم أن لا نقيد كلمة « علمى » بالمفهوم المعاصر الضيق ، فنتصور أنه برهان يستند إلى « نظرية علمية » كيفما كان العلم الذى تنتمى إليه . وإنما المقصود بكلمة « علمى » فى طبيعة هذا البرهان على الله هو منهج القرآن فى تأكيد الحقيقتين الآتيتين ، اللتين يقوم بهما هذا البرهان مشرقاً جليــاً ، بما هو فى بيانه لا يتناقض قط مع العلم ، وإنما يعزز هذا العلم ، ويجعل من منهجه السليم ، المرتبط بقيادة الإيمان ، قراراً وأمناً وتنمية لحياة المؤمنين :

— الحقيقة الأولى هى أن هذا الخلق المتسق ، وغير المختل فى أى جانب من جوانبه ، والدائب الانتظام مع تعاقب مداراته ، وسرعة حركته ، وتعدد اتجاهاته ، لا يمكن أن يكون فى نظر المشاهد البصير ، المتتبع لحركة هذا الخلق المتسق ، إلا من صنع وخلق إله قادر مدبر .

ويقدم القرآن الكريم هذا الدليل العلمي على هذه الحقيقة، استناداً إلى ما وفره سبحانه لمن يخاطبهم بهذا القرآن من هذه القدرة المشتركة بينهم ، وغير المتاحة لغيرهم ، فى أراضى الجليد ، أو الغابات ، لـكى يشهدوا ويتابعوا هذه الآيات ، ويستبينوا ظواهر اتساقها ، وشواهد انتظامها .

فمن ذلك قوله تعالى فى هذا البيان القاطع بهذه الحقيقة فى هذه الآيات المبينة :

« تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » . الملك : الآيات من ١ إلى ٤ .

واضح فى هذه الآيات الكريمة أن معنى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى لا ترى أيها المشاهد ، المتتبع لهذه الآيات فى أفضل الظروف والمجالات الطبيعية لتتبعها ، أى اختلال فى كل ما تراه من خلق الله من آيات . بل تجد ما نسميه هنا بالاتساق ، والانتظام ، والموافقة التلقائية الفطرية للأشياء فى ذاتها ، وللأشياء فيما بينها وبين ما حولها . ولا يمكن أن يكون هذا الاتساق فى الخلق — بأى مقياس علمى — إلا دليلا على أن لهذا الخلق ، الذى مهما رجعت ببصرك إليه كرة أو كرتين أو ثلاثاً أو مائة ، لتجد فيه فطوراً ، أى فجوة أو صدعاً ، أو أية ظاهرة على الاختلال — فإنك لن تجد إلا هذا الاتساق المنتظم ، والانتظام المتسق ،

الدال على أن لهذا الخلق خالقاً عظيما ، خلقه ، ودبر أمره ، وقام عليه بحكمته ورحمته .

— الحقيقة المتممة لهذه الحقيقة الأولى هى أن هذا الخالق المدبر ، والمنظم لهذا الكون المتسق ، إنما هو خالق واحد أحد ، لا شريك له ..

ويقدم القرآن الكريم بمنهجه العلمى — الذى خرج منه بالحضارة العربية القرآنية نقضه الحاسم لتجريدات الفلسفة بمنهجه العلمى التجريبى . أقول يقدم القرآن دليله على هذه الحقيقة بأن شرط الاتساق الذى سلمنا به فى الحقيقة الأولى ، والذى تحققنا به من شرط وجود الخالق المدبر لهذا الخلق المتسق ، يفرض علينا — أى هذا الاتساق — أن ننفى وجود أى تنازع بين آلهة كثيرين ، وخالقين متباينين ، على هذا الكون الواحد ، وذلك حتى يبقى هذا الخلق متسقاً بغير تفاوت ، وبغير فطور أو اختلال .

وفى هذا الدليل الواضح وضوح الحق يقول الله سبحانه وتعالى وهو يقدمه لمن أسلموا بقلوبهم وعقولهم وفطرتهم إليه :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يصفون » . الأنبياء : آية ٢٢

ويزيد الله سبحانه هذا الدليل قوة وسطوعاً فيقول فى آية أخرى قاطعة بالقول الفصل فى تأكيد هذه الحقيقة :

« مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

المؤمنون : آية ٩١

أليس مثل هذا — مع الفارق — مما يحدث بين ملوك الأرض وزعمائها ، وهم يتغالبون ، فيعلو بعضهم على بعض ، ويختل أمر المجتمعات ، ويفشو الظلم ، وتضيع العدالة ، حتى يعود الأمر بيد حاكم عادل إلى الله ، ليعود الاتساق إلى كل شيء فى حياة الناس ، وقواعد إنتاجهم ومنافعهم . .

فكيف يكون مع الله آلهة يفسد بتنازعهم الكون ، ويختل الاتساق ، بينما هذا الاتساق قائم بغير تفاوت ، ولا فطور ، ليشهد لمن يسمع ويرى ، بأن الله الخالق المدبر ، هو واحد أحد ، لا شريك له فى الملك والأمر .

وأيضـــا بلغة العصر

والآن بعد أن أحطنا — وإن يكن بإيجاز — بالنقطة الثالثة من طبيعة هذا البرهان العلمى على الله ، وذلك بعرض منهج القرآن الكريم فى تأكيد الأساس العلمى لهذا البرهان ، ننتقل إلى متابعة طبيعة هذا البرهان العلمية فى هذا العصر ، ونتساءل ونبحث عن الصورة الموجزة التى بقيت لنا بعد تألق الحضارة العربية الإسلامية ، ثم أفولها ، من هذا المنهج القرآنى للعلم ، أى المنهج الذى يتوحد فيه العلم بالدين ، ويقود فيه الدين العلم . أى ننتقل إلى النقطة الرابعة وهى تحديد صيغة هذا البرهان العلمى على الله بلغة العصر .

وللإجابة عن هذه النقطة نقول إن المسلمين فى الوطن العربى ، وهم يقودون بعد ظهور الإسلام نشاط الحضارة العربية الإسلامية طوال عشرة قرون ، كانوا يؤمنون — كما ينبغى أن يبقى إيمانهم بذلك إلى اليوم ، وفى المناخ الملائم جغرافياً وتاريخياً لتصورهم الصحيح لوحدة الخلق والكون — بأن وحدانية الله فى عقيدتهم هى الأساس لهذه القواعد الصحيحة ، والبسيطة ، التى يقوم عليها منهج علمى ، وتنمو بها حضارة علمية مؤمنة .

لقد آمنا — بما هو التحليل والتفسير العصرى لمنهج القرآن العلمى — بأن هذا الكون الذى يدبره إله واحد هو كون واحد، وليس جملة أكوان متعددة أو عوالم منفصلة — مستدلين على ذلك من القرآن الكريم — كما سبقت الإشارة إليه — بأنه لو كان أكثر من إله لكان أكثر من كون . .

ونتيجة لهذه الحقيقة تنشأ الحقيقة أو القاعدة الثانية لهذا المنهج العلمى الدينى أو القرآنى المعاصر ، وهى أن«الطبيعة فى واقع هذا الكون الواحد متسقة ، وأن القوانين التى تتحرك بها هذه الطبيعة المتسقة هى كذلك متوازنة ، ومتسقة ، وغير مختلة ، وذلك من حيث أن الإرادة التى تصدر عنها هذه القوانين فى هذا الكون الواحد هى إرادة إله واحد ، حكيم ، وقادر ، ومدبر » . .

ونتيجة لهذه القاعدة الثانية فى عرض المنهج العلمى القرآنى المعاصر . وهى أن قوانين الطبيعة فى هذا الكون الواحد ، المتسق بإرادة إله واحد ، هى قوانين متسقة ، وغير مختلة أو متناقضة ، تنشأ القاعدة العلمية الثالثة لهذا المنهج وهى أن جميع الوحدات ، أو الأجزاء ، أو الذرات ، فى جميع مواد الطبيعة هى بالنسبة إلى المواد التى ترجع إليها متساوية فى القيمة العلمية ، أى أن الوحدة فى أى نوع تساوى فى كل قيمتها وظواهرها العلمية قيمة هذا النوع الذى تنتمى إليه ، وبذلك يمكن أن تستمر الكشوف العلمية التى ما كانت لتتم لو لم تتساوى الظواهر العلمية بين الوحدة فى النوع وبين قيمة هذه الظواهر فى النوع نفسه .

بهذه القواعد الأساسية فى منهج القرآن العلمى ظهر هذا المنهج فى تطبيقات الحضارة العربية الإسلامية فى أوج ازدهارها ، ولا يزال

قابلا للظهور والتأثير والإبداع فى بناء المجتمع الإسلامى السليم فى هذا العصر . .

إنها هى هذه القواعد التى سبقت الإشارة إليها فى براهين القرآن الكريم على أن الله الخالق المدبر لهذا الكون المتسق هو إله واحد لا ينازعه ملكه سواه .

إنها هى القواعد التى نعيدها مرة أخرى ببرهان القرآن الكريم عليها ليزداد استقرارها فى برهان الإيمان فى عقل القارىء وذاكرته :

١ — إله واحد ، إذن فهو كون واحد وليس جملة أكوان .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ » .

المؤمنون : آية ٩١

٢ — قوانين الطبيعة فى هذا الكون الواحد متسقة لأنها إرادة إله واحد وليست إرادة عدد من الآلهة .

يقول تعـالى :

« مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » . الملك : آية ٣ .

٣ — الوحدات فى عناصر هذه الطبيعة المتساوية القوانين متساوية مع أنواعها فى القيمة العلمية ، أى ليست هناك ذرة من الحديد أصغر أو أكبر من ذرة أخرى ، ولهذه المساواة أثرها فى تقدم العلم ، وتنمية الإنسـان .

يقول الله تعالى وهو يضرب المثال على صحة هذه القاعدة بالإنسان الفرد بالنسبة لنوعه :

« مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » . المائدة : آية ٣٢.

معنى هذا أن الفرد فيما شرعه له الدين من الحقوق يساوى جميع نوعه فى هذه الحقوق ، فمن اعتدى على إنسان واحد بغير حق فكأنما اعتدى على الناس جميعاً ، ومن أحسن إلى إنسان أو حفظ عليه حقه فى الحياة ، فكأنما أحسن ، أو أحيا الناس جميعاً . ذلك لأنه بحسب القاعدة الثالثة فى هذا المنهج العلمى القرآنى لا يوجد إنسان أصغر من إنسان ، أو إنسان أكبر من إنسان بالنسبة لهذا القياس الذى يجمعهم جميعاً على صف واحد ، تجاه إله واحد ، حكيم عليم ، ورحمن رحيم .

وهو برهـــان صلاح المجتمع :

والآن ننتهى فى هذه الإجابة حول « برهان الإيمان » إلى هذه الغاية العملية المشرقة من بناء الدين الحق فى منهجه العلمى والعملى والأخلاقى لهذا الفرد المؤمن ، النضر الوجه ، المتحرر من الخطايا والعقد ، الفرد « المتسق » فى سلامة قلبه ، وصحوة فطرته ، ويقظة عقله ، مع خلق الله الذى رأى فى آياته برهان الله عليه ، وملك فى نوره يقين قلبه به .

نعم . . إن برهان الإيمان الذى يطلبه الإنسان المؤمن من حوله ، بامتداد الآفاق ، وبحركة سمعه وبصره بين الأرض والسماء ، إنما هو الذى يبنى فى غاية المنهج العلمى القرآنى هذا الإنسان الصادق مع نفسه ، والصادق مع ما حوله ، ومن حوله . الإنسان الصادق بأيمانه ، والصالح بعمله ، والمؤثر على نفسه ، الذى يمضى به هذا البرهان العلمى على الله ، كما فتح قلبه وعقله وسمعه وبصره عليه ، إلى غاية هذا المنهج المؤسس

فى القرآن الكريم على وحدانية الله ، فيبنى بهذا المنهج الدينى العلمى هذا المجتمع الصالح ، المتطهر ، المتماسك ، « مجتمع المؤمنين » . . يبنيه بالإيمان والعلم ، والعدل والسلم ، والتكافل والأخاء ، والتنمية والتقدم .

إن الوحدانية الخالصة كما رأيناها شرعاً وتطبيقاً على هذا الطريق الواسع والمضىء للتفكر فى خلق السماوات والأرض ، من أجل هذا البرهان العلمى ، والمحس ، على الله الواحد الأحـــد ، الذى لا إله إلا هو — إن هذه الوحدانية الخالصة هى مفهوم الدين الحق ، ومنهج القرآن العلمى ، قد قدمت ، ولا تزال تقدم لنا فى حياتنا الإسلامية كما عاشها الأسلاف الصالحون ، وكما ينشدها الخلف المتفائلون — هذه المنظومة العلمية التى سبقت الإشارة إليها ، والقائلة بحق : « إله واحد ، كون واحد ، طبيعة متسقة القوانين ، وحدات نوعية متساوية الأهمية فى مجال العلم » .

وهذه المنظومة العلمية نفسها فى انبثاقها الباهر من هذا البرهان العلمى على الله ، وصدق الإيمان ، هى التى ترجمتها الوحدانية الخالصة فى مقاصد الشرع الحكيم ، كما لا يزال فى الإمكان أن تترجمها فى هذا العصر — إلى مفهوم سياسى — يتوازن مع ديمقراطية الإسلام فى الشورى ، ومع منهج القرآن العلمى هكذا :

« إله واحد ، فهو مجتمع إنسانى واحد ، فالعدالة فى هذا المجتمع متسقة القوانين ، والقوانين فى هذا المجتمع لجميع الأفراد . والوحدات — أو الأفراد — فى هذا المجتمع متساوون تماماً أمام هذه القوانين فى الحقوق والواجبات ، فالفرد الواحد لا يمكن أن يحسب بأقل من واحد ، كما أن هذا الفرد الواحد لا يمكن أن يحسب بأكثر من واحد ، لأن معنى

هذا هو الإخلال بوحدة هذه القوانين ، واتساقها ، وتسلسلها ، وهى تصدر من مصدرها الأول الذى هو الله، منشىء الحياة ، وخالق الإنسان، ومنزل القرآن » .

كذلك فإن هذه الوحدانية الخالصة هى التى يمكن أن تترجم هذه المنظومة العلمية – الإسلامية – كما ترجمتها فى مجتمع المؤمنين الأولين من قبل ، إلى مفهوم اجتماعى يتوازن مع تكافلية الإسلام فى المقاسمة لمـــال الله ، وخيرات الوطن ، وواجبات العمل ، أى إلى مفهوم للتكافل على بناء المجتمع يحقق المعنى المعاصر للعدل فى علاقات العمل ، وفى درجات الأفراد ، وفى الأهداف الخيرة والسلمية لهذا المجتمع .

فمعنى مساواة الآحاد أمام القانون الواحد للمجتمع الواحد ، الخاضع لتدبير الله الحق الواحد يجعل هؤلاء الأفراد – فى سياق هذه المنظومة العلمية الإسلامية – متساوين فى الواجبات ، كما أنهم متساوون فى الحقوق ، وهذه المساواة فى الواجبات تجعل الالتزام الأول للأفراد هو العمل لبناء المجتمع ، والدفاع المتجدد عن بقائه ونمائه وتقدمه ، دون أن يكون ذلك بتضحية وجودهم الذاتى ، أو حقهم فى قدر عادل من الرخاء ، والحرية الخاصة .

ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم نتاج المجموع ، ولأن المجموع هو الحركة المتسقة لوحدة هؤلاء الأفراد . واتساق الحركتين وتكاملهما فى حياة كل فرد بالإيمان الصادق، المعزز بالبرهان العلمى على الله الواحد الأحد ، الذى لا إله إلا هو ، يحفظ للفرد قدرته على أن يملك رؤيته بالعلم ، وأن يملك قراره بالحرية ، كما يحفظ له قدرته الفلكية على أن يدور حول نفسه فى ذات المدار الدائب له حول مركز المجتمع ، هذا المركز الذى

يجتذب كل حواسه وطاقاته لمصلحة حياته الأفضل وفق غاية الدين ، ومنهجه العلمى ، وشرعه القرآنى ، ونقائه الأخلاقى ، أى لمصلحة وجود الأفراد الذين هم وحدات نوعه المؤمن ، وإخوة جهاده المتصل ، ليعيش الجميع عيشاً آمناً ، رخياً ، راضياً ، ناظرين بأعين منهجهم القرآنى العلمى ، وفى نور برهان إيمانهم اليقينى ، إلى ما بعد جهادهم الدنيوى الشديد ، باتجاه هذا الرجاء فى النعيم الأخروى الموعود . . إن شاء الله .

ولعل فى هذا القدر من البرهان على برهان الإيمان ، من شرف البداية ، إلى شرف الغاية ، ما فيه بعض البلاغ ، وعلى الله قصد السبيل .

السؤال الثـــالث :

« كيف .. فى ضوء ايمانك القوى تثبت بالبرهان العلمى ، وبالحجة القاطعة ، فساد رأى الملحدين بأنواعهم ، وبخاصة هذه الآراء المستوردة أخيرا الى الوطن العربى المؤمن ، والتى تتضع الأقنعة على بطلانها وهوانها بتوهم السند العلمى ؟ :

أذكر بايجاز قصة واحدة حقيقية جرى فيها حوار ناجح بينك وبين أحد هؤلاء الملحدين المغرورين حول عقيدة الايمان بالله ، موضحا برهانك العلمى على سلامة هذه العقيدة علميا وانسانيا — ان كان قد وقع لك هذا الحوار والجدل يوما ما » .

الإجـــابة :

يتجه السؤال من أول الأمر إلى اختبار قوة هذا المؤمن الصادق ، الذى أقام يقينه بصحة ما آمن به على هذا « البرهان العلمى » كما كشف له عنه تفكره فى خلق السماوات والأرض ، وهو اختبار له فى ميدان

جديد ، بعد أن صح له — كما أوضحنا فى الإجابة عن السؤال الثانى — أن يدرك هذا البرهان المضىء فى ملكوت السموات والأرض ، على أن الله الواحد الأحد حق لا ريب فيه . وهذا الميدان الجديد — كما يظهر من السؤال — هو بطبيعته مكمل لقدرات المؤمن الصادق ، الذى ينبغى له وقد أقام إيمانه على البرهان الملزم ، واليقين الثابت ، أن يحصن إيمانه — وبخاصة فى عصرنا هذا — من الغزوات المباشرة ، وغير المباشرة ، لأنواع الإلحاد الظاهر والخفى ، والمتكلم والصامت ، وذلك بالقدرة الذاتية ، وبالتدريب مع أهل العلم والذكر إن تيسر ، على مواجهة جميع أنواع الإلحاد المعاصر بالبرهان العلمى على فسادها ، وعلى الخلل الوضعى فى حججها ، وعلى افتقادها — رغم الدعاية والتهويل — إلى أى سند علمى يحميها من هذه الضربات القامعة للغلواء والغرور ، والكاشفة عن أقنعة الزيف والادعاء ، كما يمكن ، وكما ينبغى أن يستطيع المؤمن الصادق توجيهها إليها دائماً .

ومعنى هذا أن هذه الإجابة ستتجاوز مجالين أكثر التصاقاً بالجهاد اليومى فى حياة المؤمن الصادق ، وهما مجال تثبيت المؤمنين الأقل علماً بحقائق الإيمان بما هم فى حاجة إليه من العلم بهذه الحقائق ، وانشراح الصدر بها . ثم مجال دعوة من هم مع إنكارهم سبيل الهدى أحق أن يدعوا إليه، سواء أتقبلوه أم أصروا على الانصراف عنه . وبذلك تنحصر الإجابة فى هذا المجال الثالث ، الذى تزيد فى أهميته متغيرات العصر ، ومخاطره ، وهو القدرة على المواجهة العلمية ، الهادئة ، والمتمكنة ، لجميع تلك الجدليات ، والحجج الوهمية ، وأضغاث أحلام المذاهب الإلحادية المعاصرة ، فى أفواه الملحدين المنادين بها ، أو المتسترين عليها .

أما عن المجال الأول للدعوة فى حياة المؤمن الصادق ، وهو تثبيت المؤمنين الأقل علماً بحقائق الإيمان ، وذلك بتزويدهم بما هم فى حاجة إليه من العلم بهذه الحقائق ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى الأمر به للمؤمنين الصادقين :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . آل عمران : آية ١٠٤ .

والله سبحانه يوصى فى مجال هذه الدعوة بالرفق ، والصبر ، والكلمة الحسنة ، وذلك فى مثل قوله :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » . النحل : آية ١٢٥ .

وغالب هؤلاء المدعوين فى هذا المجال ممن يفيدهم التوجيه ، وتنفعهم الموعظة ، ويستقر فى ذاكرتهم العلم ، والله سبحانه يقول فى مثلهم :

« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . الزمر : آية ١٨ .

وأما مجال الدعوة الآخر بين من هم مع إنكارهم سبيل الهدى فهم أحق بأن يجدوا من أهل العلم والتقوى من يدعوهم إلى هذا الهدى والحق ، فقد أعفى الله فيه الدعاة الصادقين من عبء موالاة هؤلاء المنكرين ، المعاندين أو الغافلين ، بهذه الدعوة حتى يؤمنوا . وجعل لهذه الدعوة حداً ينتهى عنده جهد الداعية إلى ما كان يرجوه ، أو إلى أن يدع أمر هؤلاء إلى ربهم الذى بيده وحده أن يهديهم إذا شاء .

وفى مثل هذا المعنى يقول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة لجميع الدعاة من علماء المسلمين :

«وَمَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » . النمل : آية ٨١ .

وقوله تعالى لنبيه أيضاً :

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

البقرة : آية ٢٧٢ .

وبهذا تتضح أهمية الإجابة عن هذا السؤال فيما ننتقل به من جهود المؤمن الصادق إلى هذا « المجال الثالث » من جهاده عن الدين الحق فى هذا العصر ، ومن التزامه بقدر كبير من المشاركة فى إزالة الكثير من هذه المعوقات الجدلية ، والفخاخ الدعائية ، التى تبثها الآراء الإلحادية المستوردة ، وغير المستوردة على طريق الشباب الغض من المؤمنين ، الذين يتعرضون وهم لا يزالون بمناهج تعليمهم وتربيتهم منذ الحضانة حتى الجامعة غير محصنين ، ولا معقمين ، ولا مستضيئين لطريق هدايتهم ، وسط هذه الفخاخ الإلحادية ، بألغامها وتمويهاتها الجدلية المطردة .

أنواع الإلحاد المعاصر

ومن هذه النقطة أبدأ الإجابة عن هذا السؤال بتأكيد الحقائق الثلاث الآتيـــة :

١ ــ الحقيقة الأولى أن الإجابة عن هذا السؤال ترتبط ــ فى منهج القرآن العلمى الدينى ــ ارتباطاً وثيقاً بالإجابة عن السؤال الثانى من هذا القسم ، أى بالإجابة عن كيف يتيسر للمؤمن الصادق إدراك برهانه

العامى على الله الحق ، متفكراً فيما أتاحه الله من قدرات هذا التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، فوق وطنه العربى ، فى كل مكان منه ، وبذلك يستقر يقينه بصحة الإيمان ، وتنطلق قدراته وملكاته حية ، ومنتظمة ، ومتسقة ، فى طريق العمل الجماعى ، والإجتماعى ، لنصر هذا الإيمان الصادق ، ولبناء مجتمع المؤمنين المنشود على أساس ما قام عليه من دين ، وعلم ، وأخلاق .

٢ ــ الحقيقة الثانية أن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تتوجه فى مجادلة الملحدين الظاهرين بإلحادهم إلى محاولة إقناعهم بتصحيح معتقداتهم ، أو تعديلها فى الإتجاه الصحيح ، وذلك لأننا إنما نجادلهم عن عن الدين الحق لمجرد إثبات فساد معتقداتهم ، ولوضعهم بذلك فى الدرجة الأدنى من الحجة ، مما يكون له أعظم الأثر فى تثبيط عزائمهم ، وضرب غرورهم ، وتقويض نظرياتهم الجدلية الوضعية ، واللولبية ، والزئبقية ، فوق رؤوسهم ، ونحن نعلم يقيناً أن أكثرهم ممن يصح فيهم قول الله تعالى :

« وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ » . غافر : آية ٥ .

فإن استجاب منهم القليل ، وأفاق من بينهم المخدوع ، فهذا هو الأحب إلينا وإلى الله ، ولا ضير علينا ؛ .

ومعنى هذا أنه من الخطأ أن يبدأ المؤمن الصادق مهمته مع أمثال هؤلاء المجاهرين بإلحادهم ، والمفتونين به ، والمتحصنين بزعمهم بالقوة

الجدلية الفتاكة ضد جدل خصومهم ، وبخاصة من المؤمنين — أقول إنه من الخطأ البدء فى مهمة إزهاق باطل الملاحدة بمحاولة دعوتهم إلى الله ، واستخدام الآيات العلمية ، وعجائب آيات الكشوف الحديثة منها — كما حدث فى إجابة بعض المتسابقين بقصد حسن — لإقناعهم بالعدول عن « إلحادهم » ، والتحرر من سطوة الشيطان الذى تقمصهم فوق عقولهم وفطرتهم . فإذا ما ظهرت من أحد منهم — بعد تقوض جدله ، وتطاير أوهامه ، أمام هذا البرهان العلمى للمؤمن الصادق على فساد رأيه بالإلحاد — بادرة إنابة إلى الله ، وظاهرة صحوة للرجوع إلى الحق ، تغير الموقف بالضرورة إلى الأخذ بيده ، وإلى أقصى الحكمة فى التحرك بعقله وحواسه على الطريق الصحيح ، والمستقيم إلى الله ، فى ضوء منهج القرآن الكريم ، العلمى والدينى ، وإلى أسوة الرسول المصطفى كما أشرنا إلى ذلك فى الإجابة عن السؤال الثانى .

٣ — الحقيقة الثالثة أن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تمتد إلى أكثر من عرض هذه المواجهة لهذا الإلحاد الظاهر ، الذى لا ينقسم المسلمون على استنكاره ، والذى يعتبره جميع المؤمنين — سواء أكان هذا الإلحاد إيجابياً أو سلبياً — مصدر أكثر العوائق التى نواجهها على طريق تحقيق الأمل المنشود ببناء مجتمع المسلمين ، القائم على شريعة الله ، وغايات الدين الحق ، وأخلاق القرآن الكريم .

وعلى هذا فسأتناول فى إجابتى — بقدر ما أجد من توفيق الله وهدايته — هذه الأنواع الثلاثة من الإلحاد — كما أرى أنها أخطر أنواعه — وذلك عن طريق رواية القصة الحقيقية التى وقعت لى مع أشهر المعتنقين

لهذه المعتقدات الإلحادية الشائعة فى هذا العصر ، وذلك بأسلوب مباشر ، مع شرط الإيجاز الذى لا مجال لغيره فى مثل هذا الحيز المحدود .

وأما هذه الأنواع الثلاثة من المعتقدات الإلحادية الظاهرة حتى تحت أقنعة بعض أصحابها ، وكما اخترت فى هذه الإجابة النموذجية أن أروى أشهر مواجهاتى الحقيقية لأذكى أو أغبى قادتها . . فهى :

١ – الإلحاد الشيوعى .

٢ – إلحاد البطرين المترفين .

٣ – إلحاد العاجزين المستضعفين .

الالحاد الشيوعى :

أبدأ أولا – فى مجال المواجهة العلمية إسلامياً – للالحاد الشيوعى فأذكر أننى تعرضت لهذه المواجهة على ساحتين :

الأولى – مع الشيوعيين فى الوطن العربى ، وفى مصر بالذات ، وهم الذين يضعون على فكرهم العقيم ، والمستورد ، والمتناقض مع أصالة وطنهم وتراثه الدينى ، اسم « اليسار » ، تمويهاً على شيوعية اليسار كله ، واستدراجاً لمن يوهمونهم من الشباب بإمكان طلب «العدل الاجتماعى» « يسارياً » مع الاحتفاظ بالأساس الدينى للمجتمع ، وبذلك ينزلقون معهم إلى هذا التيه الشيوعى الوافد ، والغريب .

بالنسبة لهذا اليسار – الشيوعى فعلا – والذى أرى أن قيام حزب له فى بلادنا أمر غير مقبول أصلا ، أذكر أنى واجهت عدداً من قياداته وفلاسفته علناً ، وفى أكثر من مقال فى جريدة الأخبار ، وذلك خلال سنة ١٩٧٦ فيما بين شهرى مارس ويوليو . وقد تناولت فى هذه المقالات ،

بمنهج إسلامي واضح ، مهمة التفنيد العلمي والقاصم لظهر عدد من الأباطيل اليسارية الشيوعية ، والتي منها :

١ – توهم الأساس العلمي إبتداء لأي فكر شيوعي .

٢ – الأكذوبة أو الخدعة التي ينقضها العلم بإمكان الجمع بين إسلام الشيوعي المصرى بمجرد إظهار صلواته في المساجد ، وبين اعتقاده بضرورة بناء المجتمع على أساس التطبيق الماركسي للنظرية الشيوعية الإلحادية . وقد استخدم اليسار مثل هذه الخدعة ونجحت أخيراً ومؤقتاً في قلب نظام الحكم في أفغانستان .

٣ – القبول أصلا بحق الوجود العلني المنظم ، أو السرى المتربص ، لأي جماعة من المواطنين في مصر ، أو في أي بلد في الوطن العربي ، تعتنق النظرية الإلحادية الشيوعية ، وتتجمع لتحقيق أهدافها . ذلك – كما شرحت ببعض التفصيل – لأن الشيوعية في روسيا ، وفي الجزء الشيوعي من أوروبا ، ليست موضع اعتراض أحد من العرب المؤمنين بأنها عقيدتهم التي من حقهم أن يقيموا مجتمعهم على أساسها ، وهم بالنسبة لأنفسهم ، وإلينا أيضاً ، ليسوا كاذبين ولا مخادعين لأحد خارج بلادهم في اعتقادهم أن هذه الشيوعية هي أفضل النظم والمذاهب في العالم لإقامة المجتمع السليم في بلادهم .

إن اعتراضنا وحده هو على محاولات الشيوعية العالمية ، وبتخطيط واسع ومتصاعد ، أن تتسلل بهذا المذهب الخاص بأصحابه في بلادهم ، إلى بلادنا ، مع تناقضه السافر مع معتقداتنا ، ومع إحتواء هذا الغزو الضارى على مفهوم « الإستعمار الكامل لأوطاننا » وإن كان من وراء الأقنعة ، والشخوص الوهمية ، كما حدث في عدن الجنوبية ، وهو

استعمار يشمل بنفس أسلوب « الغزو الإستعمارى الغربى » ومحاولة الاحتلال الإسرائيلى الصهيونى التوسعى ، أهداف تمزيق وحدة العرب ، وطمس معتقداتهم ، وتغيير لغتهم ، وسرقة مواردهم ، وتهديد مصير وجودهم وبقائهم .

ومع كل ذلك فإنى لا أستطيع أن أترك الإشارة إلى أن وجود اليسار الشيوعى المصرى ، أو أى يسار آخر فى الوطن العربى ، إنما ترجع أكبر المسئولية فيه إلينا نحن المسلمين ، الذين اختلفنا على الإسلام فى التأويل والتفسير والتطبيق . كما أننا لا زلنا مع إجماع رأينا ، ومع النص الدستورى لم نقم بتطبيق الشريعة الإسلامية فى مجتمعنا ، وفى تقنين حياة المسلمين الصالحة على أساس « الدين الحق » فى كل المجالات الإقتصادية أو الإجتماعية أو السياسية .

ولو أننا أقمنا هذا المجتمع الشرعى القرآنى ، ولو بالتدرج وعلى مراحله ، لأعددنا المناخ الصالح للوعى الدينى السليم ، ولقدمنا — فى مجال التطبيق — هذا المثال الحى الذى لا نزال نفتقده فى مجال التطبيق العملى بين الإسلام والشيوعية ، وذلك عندما نناقش اليسار الشيوعى حتى الآن عن مجتمع إسلامى كان فى الماضى ، وسوف نعمل على إحيائه إن شاء الله فى المستقبل ، بينما هم يشيرون بأيديهم الطويلة إلى المجتمع السوفييتى العملاق فى تقدمه ليقولوا بغير حياء ، وبغير أمانة : انظروا . . فهذا هو المثال !

فماذا فى هذه المقارنة التطبيقية يقدم المجادل عن دينه ، وبخاصة وقد برع الشيوعيون فى ترديد محفوظاتهم التى لقنها لهم أساتذتهم حول عمود النظرية المادية الجدلية فى تطور المذاهب الاقتصادية . . على مفهوم نظرية دارون — مع التطور الزمنى — متجاهلين أو جاهلين ، أن كل التطورات التى أصابت

المجتمعات الإنسانية الثابتة على قانونها الأول — ليست إلا تطوراً فى الشكل، والنظريات ، والشعارات ، وليس فى نوع الطبقة المسيطرة ، والغـاية المستهدفة ، والمصير المحتوم ! !

إننى لذلك أعتقد أن عدداً كبيراً من الشيوعيين أو اليساريين فى مصر والوطن العربى سيرجع إلى رشده ، وسينيب إلى أصالته ، إذا ما أمكن حقاً أن نستعيد لمجتمعنا المنشود جميع ما أمكن تحقيقه فى المجتمع الإسلامى الأول خلال بضعة قرون ، من حقائق العدل الاجتماعى ، ومن السواسية الشاملة لجميع المواطنين فى واجبات وحقوق العمل والانتفاع ، بغير طبقات ، أو قهر أو خرافة ، بل على نفس الأساس العلمى الذى كان منهجه التجريبى هبة القرآن والحضارة العربية للعالم كله ، وبخاصة أوروبا فى عصر نهضتها التى قامت على عطاء الفكر العلمى العربى القرآنى .

كذلك أذكر لقارىء هذه الإجابة أنى قد تناولت قدراً من هذه المواجهة . العلمية بالبرهان الإسلامى لهذا اليسار الشيوعى ، المتخلق كالطفيلى الخطر فى المناخ الملائم له الآن ، وذلك ببعض الإيجاز فى الكتاب الذى أصدرته بالاتفاق مع المركز الثقافى لشركة « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان » ، والذى يتناول الإجابات النموذجية للمسابقة القرآنية الأولى بين أبناء العاملين بالشركة. وإلى هذا القدر من المواجهة العلمية للأباطيل الشيوعية فى هذا الكتاب الجديد أوجه نظر القارىء الكريم .

مع الشيوعيين فى بلادهم :

على أنى سأركز إجابتى عن نص هذا السؤال الثالث على هذه المواجهة باسم البرهان العلمى الإسلامى لهؤلاء الشيوعيين فى بلادهم . وسأختار

من هذه المواجهة واحدة صريحة لأحد أقطاب الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية الشيوعية .

كان ذلك فى سنة ١٩٦٩ وكنت قد أوفدت إلى تلك الدولة الشيوعية ضمن بعثة من القيادات الشعبية المصرية ، ورئيساً لهذه البعثة ، وذلك لقضاء ثلاثة أشهر فى دورة دراسية فى مدرسة الهندسة الزراعية بقرية تويتشنتال بمقاطعة هالة بألمانيا الشرقية – وأرجح أن هذه البعثة التى كانت ضمن اتفاقية ثقافية بين البلدين لمثل هذه البعثات كانت بتأثير اليسار الشيوعى فى مصر ، والذى كان قد اقترب كثيراً فى ذلك الوقت من السلطة ، بحيث أصبح فلاسفته هم المسئولين عن « التثقيف السياسى » لجميع القيادات الشعبية لما كان يسمى بالاتحاد الاشتراكى .

لقد سافرنا إلى ألمانيا الشرقية بالطائرة فى صباح أول فبراير ١٩٦٩ ، ومنذ هبطت الطائرة بنا وكنا عشرين مواطناً مصرياً من شتى محافظات مصر ، بدأ وضعنا داخل مناخ التأثير المباشر ، وغير المباشر ، لاستهوائنا المحقق نحو الشيوعية ، وكان ذلك فى عجائب ومبتدعات هذا المخطط الاستهوائى أمراً محتوماً ، ظاهراً بصراحة ، وساذجاً بوداعة ، ومتخفياً بشراسة . وكان أعجب ما فى هذا المخطط بدايته العلنية ، ومن أول لقاء ، وذلك بدعوتنا غير الأخلاقية ، والصريحة ، وغير المنقطعة طوال الأشهر الثلاثة إلى شرب الخمر . . وما بعدها من أخواتها فى قائمة التحرر من الأخلاق ، بمفهوم الحضارة الآخذة فى الانهيار حالياً شرقاً وغرباً على السواء .

فى هذه الأشهر الثلاثة ، ولشدة عجب هؤلاء الشيوعيين ، الشديدى الغرور بأخطائهم ، والشديدى الجهل بأخبار العرب وخصائصهم ومعتقداتهم

أقمنا والحمد لله « مجتمعاً إسلامياً » صغيراً ، داخل تلك القلعة الشيوعية التى أقمنا فيها ثلاثة أشهر فى تويتشنتال . وقد حرصنا خلال تلك الفترة غير القصيرة أن نكون مهذبين تماماً مع مضيفينا من الألمان ، مع حريتنا الواسعة فى مناقشتهم ، ومع إفادتنا بقدر ما نستطيع من تسجيل الجوانب الحقيقية — غير المذهبية — فى تقدمهم ، وكذلك حرصنا على أن نتفوق تماماً فى دراستنا ، مع تنقية كل ما درسناه فى جلساتنا الليلية من كل ماشابها من التوجيه الأيديولوجى الشيوعى الظاهر والخفى .

والحق لقد عانى الألمان منا كثيراً ، كما كنا من جانب آخر مريحين لهم تماماً ، ولاتزال تجربتنا التى ذاقوا مرارة الفشل فيها مسجلة عندهم بكل تفاصيلها فى محاولة غبية وحائرة لتفسيرها . وأخيراً أقبل يوم «تحررنا» من قبضة آسرينا الناعمة ، والخطرة ، وقد أرادوا — من باب تكريمنا عندما وصلنا فى طريق العودة إلى برلين أن ينظموا لنا لقاء مع رجل من قادتهم وثوارهم ، والذى هو فى نفس الوقت عضو فى المكتب السياسى للحزب ، أى المكتب الحاكم ، وقد اختاروه بطبيعة أن بعثتنا زراعية رجلا من كبار العلماء الزراعيين إلى جانب أنه فى قمة السلطة السياسية للحزب الشيوعى ، وكان هو الدكتور ريبن زاما رئيس أكاديمية العلوم الزراعية ، وأحد الذين صحبوا ألبرخت رئيس الجمهورية وقتذاك إلى مصر فى زيارته لهـا سنة ١٩٦٦ .

المواجهة للزعيم الشيوعى :

ذهبنا جميعاً — نحن وفد مصر من قياداتها الشعبية — لمقابلة الزعيم والعالم الشيوعى الدكتور ريبن زاما فى مكتبه فى برلين ، وفى اليوم قبل الأخير من عودتنا إلى مصر من ألمانيا الشيوعية . وكان تدبير هذا اللقاء

هو كما فهمت بقصد إلقاء كلمات طيبة عن العلاقات الحسنة بين ألمانيا الشرقية ومصر ، والعرب ، وبخاصة فى موقف الألمان من تأييدنا ضد إسرائيل ، وهى كلمات تخفف من أثر ماوصلت أخباره إلى هذا الزعيم الشيوعى من الفشل الذريع لجميع تفاصيل واستهدافات مخطط الاستهواء إلى الفكر الشيوعى فى التعامل مع هذا الوفد المصرى ، الذى تحصن بعقيدته التى أعلن عنها ، ورفض أن يجعلها عرضة فى مبادئها وأخلاقها للتجريح ، وجادل الألمان فى صحتها على الأساس العلمى مجادلة الند المتمكن ، وبغير عصبية أو انفعال ، بل مع إظهار المودة وتبادل الدعابة المهذبة فى كثير من المواقف .

كذلك ربما يكون من أسباب تحديد هذه الزيارة مع هذا الزعيم الشيوعى أن يرى بنفسه هؤلاء « المصريين العرب المتخلفين » الذين سببوا لجميع من اتصلوا بهم من قادة الحزب ، ومن التابعين المسخرين له ، هذا الشعور بالعجز ، والحيرة ، والقصور عن التحليل والتعليل لهذه الظاهرة التى لم تتكرر بالنسبة لوفود كثيرة جاءت إليهم قبل هذا الوفد ، وبعده ، من سورية والعراق ومصر وكوبا وغيرهم !

وكنت قد أعددت نفسى عندما أخطرت بهذا الموعد ، الذى لم يكن بد من قبوله ، ومع ما بدالى من المعنى الكامن وراءه ، وهو عرض أعضاء هذا الوفد على هذا الزعيم ، والعالم الثاقب النظر ، وأمامه التقرير المخجل لجميع أجهزته عما قام به هذا الوفد من تخطى جميع الفخاخ ، ومن ابتكار جميع الحصانات — أقول إننى أعددت نفسى لمواجهة هذا الزعيم بكل ماكان ينبغى أن أقوله ولا أكتمه عن زعيم محنك مثله ، وقد قصدت من أول الأمر أن أتجاوز هذا الحيز الضيق لمواجهة هذا الزعيم الشيوعى باسم

الوفد المصرى المسلم المؤلف من ٢٠ عضواً ، إلى مواجهته بالبرهان العلمى للقضية كلها ، وباسم جميع العرب المسلمين ، وهى قضية هذا التخلف الخطر فى فهم الشيوعيين للعرب بوصفهم متخلفين ، وعلى أساس اعتقادهم بأن دين هؤلاء العرب وإيمانهم بالله هباء ، فليس أمامهم إلا « الشيوعية الإلحادية » حلا لجميع مشكلاتهم ، وطريقاً وحيداً إلى آمال تقدمهم .. !

نعم .. توكلت على الله .. ولم أدع هذه الفرصة تفلت منى ، والكلمات التالية أنقلها إلى القارىء العزيز من كتابى « سباق المستقبل بين الدين والشيوعية » طبعة دار الجيل سنة ١٩٧٦ صفحة ٢٨٥ ، وهى الكلمات التى أضعها هنا موضع الإجابة المطلوبة فى الرد على « الشيوعيين » بصفة عامة لإثبات فساد معتقدهم الإلحادى بالبرهان العلمى ، المشرق من أفق اليقين بالله الواحد الأحد ،وما دعا إليه من الدين الحق ، والإسلام الخالص. فقدقلت للدكتور ريبن زاما بعد أن أتم الإجابة التقليدية على أسئلتنا المكتوبة ، وبعد فترة من المناقشة معه حول بعض الأسئلة الفورية .. لقد قلت له وأنا أحدد النظر إليه وعلى غير انتظار منه :

« هل حقاً توصل الماركسيون فى ألمانيا الديمقراطية ، أو فى غيرها ، مع هذا التقدم العلمى الشامل إلى أن ينفوا علمياً ومادياً داخل المختبرات والأجهزة العلمية وجود الله ! ؟ »

استدار الدكتور زاما فى مقعده بهدوء ، ونظر نحوى وقد تملكته الدهشة والمفاجأة معاً . لم يكن يتصور رغم التحذيرات التى وصلت إليه أن مثل هذا السؤال يطرحه عليه أحد أعضاء الوفد المصرى . قال فى صوت

حاول أن يجعله هادئاً ومرحاً : « لا .. لم نتوصل بعد إلى هذا الدليل العلمى فى المختبر » .

قلت : «حسناً ... ونحن المؤمنين لم نتوصل ، ولن نحاول أن نتوصل إلى إثبات قيام لله الحق على هذا الكون بالدليل المادى الذى يلمسه الملحدون باليد فى المختبر ، وليس بالفعل ، أو بالبصيرة فى السماوات والأرض . . ومع ذلك فنحن لانعاديكم من أجل الإلحاد ، بل وتتسع صدورنا وعقولنا لنتصور أنه من الممكن أن تكونوا أصدقاء لنا ، تساعدوننا ضد الابتزاز الاستعمارى ، وضد الغزو العنصرى الصهيونى . . فلماذا إذن تتخذون بسبب إلحادكم موقفاً إيجابياً ونشطاً ضد إيمان العرب بالله ، وتمسكهم بمعتقداتهم ؟ » .

قال الدكتور زاما وهو يجتهد أن لايتجاوز الكلمات المحسوبة والمحفوظة... « إن الماركسيين فى بلادنا ليسوا أعداء للأديان ، ولذلك فهم قد قبلوا التحالف مع الحزب المسيحى الكاثوليكى داخل الحزب الحاكم وهو الحزب الاشتراكى الموحد » .

قلت : « لقد جئنا بلادكم باسم الصداقة ، وقد تركتم فى أنفسنا أثراً طيباً ، فيما عدا هذا الموقف « النضالى » المرن ضد «الإيمان» كما يؤمن به العرب . لقد تحققنا من ذلك من طبيعة المناهج التى تضعونها وتدرسونها للوفود العربية . وتحققنا منه من خلال الأحاديث الخاصة مع بعض الحزبيين منكم . فإذا كنتم تحرصون على صداقة العرب فعلا ، كما يحرصون هم عليها ، وبخاصة من أجل هذا الصراع المصيرى مع عدوهم الصهيونى فى إسرائيل ، فإن الطريق السليم إلى دعم هذه الصداقة هو أن تجعلوا نقط الاتفاق وحدها

حول التقدم العلمى ، ومكافحة الاستعمار بدعم حركات التحرر ، وتأييد جهود السلم العادل ، هى محور العلاقات الشعبية والحكومية بيننا ، وليس هذا النشاط المنظم ضد الإيمان ، وضد وحدة الشعوب العربية بالإيمان » .

قال زاما وهو ينقر بأصابعه على بعض أوراق مكتبه : « إن الماركسيين ينظرون دائماً باتجاه صداقة الشعوب المتحررة ، وبخاصة الشعوب العربية ، فإذا كان هناك بعض الإيضاح لأى لبس فإن الماركسيين يهتمون كثيراً بموضوع التقدم والعالم » .

قلت حتى لا أطيل عليه الحرج « إننى أتكلم إليك بوصفك أحد المسئولين عن سياسة بلد شيوعى صديق لنا : ولهذا فإنى أقول من غير لبس إن الشعوب العربية — مع كثير من شعوب آسية وأفريقية — قد تنبهت بالاشتراكية العلمية كما تسمونها إلى مسئوليتها عن معارك التحرر من الاستعمار والاستغلال ، ومن الجوع والجهل . وبالنسبة للشعوب العربية فإنها تنبهت بشدة إلى «دينها» الذى تحمل به وحده جذوة قتالها ضد كل هؤلاء الأعداء : الاستغلال والاستعمار ، والجوع والجهل ، والانقسام والتمزق إلى أقاليم وطوائف متنافرة . . من أجل ذلك فإنه لايضر الشيوعيين أبداً أن يقفوا موقف الحياد الأمين من إرادة العرب أن يستعيدوا مبادىء دينهم فى نفس الاتجاه الذى تؤيدونه معنا ، ونؤيده معكم ، ضد الاستعمار والاستغلال ، وضد الجوع والجهل والتخلف » !

وهنا . . قام الرجل المهيب ، الدكتور ريبن زاما — وقد انغلق فمه بقفل — ليودعنا شاكراً ! !

إلحاد البطرين المترفين :

وأنتقل إلى النوع الثانى من أنواع الإلحاد المتسربة إلى بعض المترفين المثقفين فى بلادنا — وذلك بمحض المحاكاة العلمانية للغرب ، ولموقفه النفاقى من الدين بعد الثورة الفرنسية ، حيث اعتبر الأوروبيون إلغاء نفوذ البابوات الذين كانوا حلفاء الملوك والأباطرة وذلك بعد إسقاط سلطان هؤلاء الملوك والأباطرة ، إنما هو تَحوُّلٌ إلى حياة جديدة ترفض الدين باسم الحرية ، وإن كانت تنافقه حين تستمتع باللهو الجارح فى أعياده ، وحين تبقى على الكنائس فى مواضعها — كما يفعل الشيوعيون — أطلالا أثرية ، وأشباحاً قاتمة ، لايطرقها إلا العجائز والمرضى .

هؤلاء « المترفون » باصطلاح القرآن الكريم والذين يمثلون بلغته قبل الثورة الفرنسية بأكثر من أحد عشر قرناً ، طبقة باغية ، يطغيها المال ، والترفع على النصح ، فتعمد إلى الشذوذ فى المتاع ، وإلى المبالغة فى الزينة ، وإلى تحدى مبدأ السواسية بين الناس ، فتستضعف الفقراء بفقرهم ، وتبغى عليهم بعجزهم ، وهى تعتدى على كل حرماتهم . ثم يمضى بها التطاول بهذا الترف الطاغى إلى حد المعاجزة لله ، وشن الحرب على كل الداعين إلى الإيمان . وأخيراً يبلغ بها اختلال توازنها بكل أثقال موبقاتها أن ترى الإيمان بالله الواحد الأحد « عقيدة العجزة » التى تعلو هى عليها ، وتترفع عما تزينه لها سكرات أضغاثها من الشك فى حقائقها ، وأقوالها ، وأعمالها ، معتزة بسلطانها على مستضعفيها ، بل وعلى إلههم الذى يؤمنون به . . فأين هو إله المؤمنين هذا . . وماذا يمكنه إذا أراد شيئاً أن يفعل حيالهم ؟!

وعن هذه الطبقة من البطرين المترفين الذين ذكر الله من أمثالهم فى القرآن الكريم أقوام عاد وثمود ومدين ، وما حق عليهم بكفر النعمة ،

وبالطغيان على الضعفاء ، وتكذيب الرسل ، من سوء المصير — يقول الله تعالى :

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ » .

هود : آية ١١٦

ويقول سبحانه فى تكذيبهم للرسل ، وترفعهم على المصلحين

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » . سبأ : آية ٣٤

والبطر فى لغة القرآن الكريم مثل الترف تماماً فيما يعنيه من الطغيان بالنعمة ، والتكبر على دعوة الحق ، وفى هؤلاء البطرين الذين ساواهم الله بالمترفين فى الخلاق والمصير ، وجعلهم طبقة واحدة بطغيانها وإلحادها يقول تعالى :

«وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً » . القصص : آية ٥٨

ويقول سبحانه فى فسق هذه الطبقة من البطرين المترفين ، وفى المصير المحقق لمجتمعاتهم إذا تمكنوا من التسلط عليها :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » . الإسراء : آية ١٦

أقول هنا لأقص قصة مواجهتى العفوية لواحد من هؤلاء البطرين المترفين ، أى الأغنياء غير الشاكرين ، والطاغين الملحدين ، الذين

يرون من آثار ثقافة ما بعد الإستعمار ، وبالتقليد الأعمى لجانب واحد متهدم من جوانب الحضارة الأوروبية التى يختلط بها الحسن والقبيح — أن الدين رجعية ، وتراث مشكوك فيه ، ويجب عزله عن السياسة والإقتصاد ، وعن الحياة اليومية للمجتمع ، وذلك لأن الدين الحقيقى للعصر الحديث إنما هو عندهم العلم فقط ، طريقاً إلى القوة والمتاع والترف .

بذلك أصبح اصطلاح « العلمانية » هو التعبير بلسانهم عن العصرية بالإلحاد بديلا للرجعية بالدين ، نعم فهذه « العلمانية » هى الإشارة إلى طرح الدين بغير ضجة ، أو حرب معلنة ، من أجل الإلتفاف فقط حول العلم والترف فى حياة « متحررة » من مثل هذه الأوامر والنواهى الصارمة من مصدر مجهول يقول للناس : إفعلوا كذا .. ولا تفعلوا كذا .. كما هى الصورة المهزوزة والمشوهة والمعتمة عند هؤلاء « المترفين البطرين » عن الدين الحق .

وكان تاريخ ذلك الذى أقصه الآن من لقائى بابن أحد الباشوات ، السيد المترف ، هو أواخر الثلاثينات ، وكنت يومها أعمل صحفياً صغيراً مبتدئاً فى جريدة البلاغ ، مهمته التى أطلقوه إليها جمع الأخبار الهامة من بعض الوزارات . كذلك كنت فى تلك السن المبكرة التى لم أتجاوز عندها الخامسة والعشرين أعمل رئيساً لتحرير مجلة « الأنصار » الثقافية العربية الإسلامية ، التى كانت تصدر شهرية لتواجه برغم قلة وسائلها صحف ومجلات ودعايات الأعلام الشيوعى والرأسمالى ، فى نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات — لتؤكد باتساع الوطن العربى أن العروبة والإسلام معاً هما الأساس السليم والوحيد لوحدة وتقدم العرب فى هذا العصر .

من خلال هذا العمل الصحفى الصغير فى جريدة البلاغ ، ومع استباقى فى تلك السن المبكرة إلى حمل أعباء هذه الدعوة الكبيرة فى مجلة الأنصار – تيسر لى مع هذه الزيارات اليومية لعدد من الوزارات الهامة بطبيعة عملى الصحفى بالبلاغ – أن أكتسب ثقة وصداقة عدد غير قليل من العلماء المؤمنين المجاهدين عن الدين من الوزراء وكبار الموظفين ، الذين أذكر منهم ممن لا أنسى أبداً حياتهم المضيئة : الدكتور عبدالواحد الوكيل ، والدكتور عبد الرزاق السنهورى ، والمجاهد البار أحمد حمزة ، والدكتور محمود سليمان أباظة ، والدكتور أحمد حسين ، والشيخ عالم اللغة العربية وناشر فضائلها فى التراث محمد أحمد جاد المولى . ولقد بلغ من حد هذه الثقة والصداقة – مع فارق السن والتجربة – أنه قد كان لهؤلاء وأمثالهم جميعاً فضل تأييد رسالة مجلة الأنصار العربية الإسلامية ضد خصومها الأقوياء فى فترة الحرب العالمية الثانية من الملك ، والإنجليز ، وبعض وزراء الوفد ، وغيرهم .

ولم يكن من العجيب ، بل كان من شأن الأمر الواقع ، أن أتعرف بجانب هؤلاء الأعلام الأبرار من كبار العلماء المؤمنين المجاهدين فى شتى التخصصات العلمية ، إلى عدد آخر من كبار الموظفين التقليديين الفارغى القلوب والرؤوس إلا من هموم وظائفهم ودرجاتهم ، غير أن مفاجأتى الحقيقية كانت عندما ألقى قدر الله على طريقى واحداً من هؤلاء المردة البطرين المترفين ، المترفعين ، الذين قل أن يجدهم الإنسان فى ديوان حكومة ، وإنما فى النوادى الخاصة بطبقة الإقطاع ، أو طبقة حاشية الملك ، أو فى بعض المقاهى التى تخصصت فى استيعاب غرائب الشذوذ والمروق

والإدعاء من أولئك الذين فرضوا أنفسهم قمة الفنون والآداب الإنجليزية والفرنسية التى يتكلمونها أو يترجمونها إلى العربية . !

لقد أصبح هذا الرجل الذى اختصرت فيه كل سيئات طبقة المترفين ، المستغلين ، المترفعين ، صديقاً لى بحكم لقاءات العمل الصحفى ، الذى كان من شأنه فى تجربتى الأولى أن أصبر على مثل هذا المجاهر بإلحاده ، والفخور بعصريته بمعنى أنه غير رجعى بالإيمان ، وبمعنى تبعيته للحضارة الغربية بمحض هذه المحاكاة السطحية لجانب واحد من أضعف جوانبها وهو هذا الجانب « الترفى » و « العبثى » و « الإستغلالى » ، وذلك حيث نجح صاحبنا بتفوقه فى اللغة الإنجليزية فى أن يصبح من أدباء المسرح ، كما نجح فى أن يجعل من توافه المسرح الأوروبى مصدراً لمسرحياته التى ينعكس عليها كما ينعكس على مرآة مقعـــرة ، فهمـــه السطحى ، وتمصيره الهازل ، وترجمته المستترة ، لما كان يقرأه من الأدب المسرحى الأوروبى ، ولقد كان كل ذلك ميسراً لأنه من البداية كان وارثاً لمال أسرته ، ولترفها ونفوذها . . .

قلت إننى برغم سابق علمى بسيئات طبقة المترفين ، المجاهرين بالإلحاد ، والمترفعين على النصح والإرشاد ، فقد ظلت صحبتى بحكم العمل لهذا الصديق الغليظ النفس والجسم ، حيث كان كل منا فى حاجة طبيعية إلى الآخر فى مجال العمل اليومى . إلى أن كان يوم لا زلت أذكره بقوة كما أذكره الآن بعد عشرات السنين . وحيث من غير توقع منى أو منه ، ومن غير عنف أو انفعال ، جرت بينى وبينه هذه المواجهة الحاسمة ، وغير المنتظرة ، لهذا الخلاف بل التناقض الظاهر بيننا ، والذى كانت آثاره تطفو بهدوء على سطح لقاءاتنا فى غير تصريح ، ومن غير بغضاء ،

حول قضية الإيمان والإلحاد ، وطاعة الله أو الشيطان ، وذلك عندما قلت له بطريقة عفوية ، وجواباً على رجاء منه لى أن أعنى بنشر بعض أخبار مكتبه : « قل معى .. إن شاء الله » وابتسمت إبتسامة فهم مغزاها . . .

وهنا — كما لازلت أذكر تماماً — حدجنى بنظرة طويلة فيها الكثير من العجب والإشفاق ، ثم قال وكأنما قد آن الأوان لينصحنى النصيحة الغالية التى كان يدخرها لى : « إن شاء الله ! . . وإذا لم يشأ .. ؟ .. إننى لأعجب لشاب متفتح مثلك أن يظل عقله مغلقاً بهذه الخرافة .. ! »

وكنت واقفاً لأنصرف فجلست .. وفى لمحة من خاطر مشرق حبب الله لى أن أقبل هذه المواجهة بين حق طال صمته بالحياء ، وباطل طالت عربدته بالترف . وعزمت أن لا أدع هذه الفرصة تمر حتى أنزل بعقله الفارغ من عليائه ، إلى أن أبلغ به بمشيئة الله وحجته أن يمس مواطىء الأقدام ، متحدياً باسم الله ترفه ، وغروره ، وإلحاده ، وثقافته اللغوية الإنجليزية ، ومسرحياته .. ثم ثراءه العريض .. وسلاطة لسانه أحياناً كثيرة ..

قلت له وأنا أبتسم ، وأشجعه على أن يسمع ، وأثيره لكى يفهم : إننى أريد اليوم أن أنصحك نصيحة — فى مقابل نصيحتك لى — فهل تسمعها منى ؟

قال مثاراً : فى أى شىء ؟

قلت هادئاً جداً : فى قضية الإيمان بالله .. !

قال وهو يضحك فى سخرية مفتعلة : لا تتعب نفسك ..

قلت : إنما أريد أن أستفيد من علمك ، ومن ذكائك ، فأضعك فى

« موقف أفضل » من هذه القضية التى أعتقد أنك لم تفكر فيها قليلا ولا كثيراً . . فلماذا ترفض أن تسمع لى ؟

قال — وكأنه رضى أخيراً أن يجاملنى ، وأن يستمتع كذلك بالإصغاء إلى تخريفى : قل .. يا سيدى !

قلت له جاداً تماماً ، وصادقاً ، فى هذه المواجهة التى أقدمها هنا نموذجاً للإجابة عن مثل هذا البرهان العلمى فى إثبات فساد المعتقدات الإلحادية للبطرين المترفين :

« إننى لا أقصد أبداً أن أدعوك لأقنعك بالإيمان ، ولكنى أريد فقط أن ترتفع بعقلك ، وعلمك ، عن سذاجة ، أو عدوانية هذا القطع بأن الله خرافة ، وأن الدين رجعية ، لكى أنقلك إلى الاعتقاد بأن الإلحاد بالله ، وإنكار قيامه بالخلق ، وعلى أمر الخلق ، إنما هو مجرد احتمال ، وأن الاحتمال الأقوى فى ضوء النظر العلمى هو أن الله حق ، وأن الدين حق » .

قال وقد بدا عليه قدر من الإهتمام : وكيف تقنعنى علمياً بذلك ؟

قلت : حسناً .. إننى سأبدأ معك من النقطة الأولى فى العلم وهى الحساب . سأبدأ معك من الرقم الصغير ١ أو الرقم ١٠ ، أو الرقم ١٠٠ أى هذه الحقيقة العلمية البسيطة المملوكة لجميع الناس ، حتى لهذه القروية المصرية الذكية ، والمحرومة حتى اليوم من القراءة والكتابة . هذه الأرقام إذا طلبت إليك أن تضاعفها من طريق المتواليات الحسابية ، وليس المتواليات الهندسية ، إلى أبعد مدى تستطيعه ، فهل ترى أنه من الممكن لك ، أو لأعلم علماء الأرض أن يصل بهذه المتواليات الحسابية لرقم (١)

بمضاعفته ، أو الرقم (١٠) بمضاعفة الأصفار على التوالى عن يمينه — هل ترى أنه من الممكن لأعلم الرياضيين في الأرض أن يصل إلى نهايتها ، فيقول هنا تنتهى الأرقام .. هنا ينتهى نمو العدد (١) ؟

قال وقد بدأ يتزايد اهتمامه : طبعاً لا . .

قلت : فإذا دفعنا بهذا الرقم أوالعدد (١) من أول الأمر ليسير فى وجهه متضاعفاً بغير عائق على طريق « المالا نهاية » . . فهل تستطيع أنت ، أو أى عالم فى الأرض أن يتابع هذا الواحد الصحيح فى سيره البطىء ، أو السريع إلى مالا نهاية ؟

قال فى اقتضاب : لا . .

قلت : « إذن فهناك مما هو فى قبضة وعيك الآن من الحقائق الصغيرة جداً ، ما يمكن أن يعجزك تتبعه بتصور استمرار تضاعفه ، وهذا ليس احتمالا ، وإنما هو حقيقة علمية تمضى إلى نهاية طاقة الإنسان على التصور ، ثم تبتعد خارجة عن سلطان هذه الطاقة بحيث أن مسيرة هذا الرقم الصغير (١) إلى مالا نهاية تقتضى منك لكى تقرأ قدراً من مضاعفاته قبل « نقطة مالا نهاية » أن تعيش ملايين أو بلايين السنين الضوئية . . ومع ذلك فأنت أيها الإنسان المتجبر بالترف تغفل من هذه النقطة الأولى فى العلم عن تدبر الحد الذى تملكه من الطاقة ، بالقياس إلى مالا تملكه ، مع إمكان تصورك بالنظر العلمى لهذا الاتساع غير المتناهى للحقائق العلمية الصغيرة وراء قدرة الإنسان على استيعابها » .

قال : وقد أخذ يقطب حاجبيه ، وتبدو عليه بوادر الانكسار أمام حقائق بسيطة بدأت تضىء أمام عينيه وقد كان فى وسعه أن يفكر فيها من قبل : هذا صحيح . .

قلت وأنا أحاول متلطفاً ومظهراً الثقة بذكائه — أن أضعه أمام الحقيقة الفاصلة بكل مافى وسعى من إثارة إهتمامه : « والآن إذا انتقلنا من أصغر نقطة فى العلم وهى رقم (١) والتى يمكن أن تكبر إلى مالا نهاية فلانستطيع اللحاق بها — إلى هذا العقل البشرى نفسه . . أى العقل الذى يملك به الإنسان بصور متفاوتة هذه القدرة على التحكم ، والتشييد ، والتدبير ، والإبداع ، وإصدار القرار ، وتوقع المستقبل ، والمشاركة فى صنع هذا المستقبل . . فتصورنا على مثل ماتصورنا فى رقم (١) — وهذا تصور ممكن وسليم بالنظر العلمى — أن هذا العقل البشرى بكل قدراته المتكاملة ، والفعالة ، والهادفة ، قد تضاعف فى متواليات حسابية ، أو هندسية ، إلى مالا نهاية . . فقل لى بكل أمانة إلى ماذا يمكن أن يقودك هذا التصور الذى يقره العلم . . ألا يقودك بإيجاز إلى مايمكن أن يسمى بالعقل المطلق أو « القوة العليا » التى تحكم وتدبر وترعى أمر هذا الكون ؟ ! »

قال وقد شملته مع زيادة اسمرار وجهه، وتقطيب حاجبيه ، وانكسار صوته ، بعض الطمأنينة : « نعم نعم .. إن الإيمان بمثل هذه القوة من طريق هذا التصور لتضاعف قدرات العقل البشرى إلى مالانهاية هو أقرب إلى الحقيقة العلمية منه إلى أنه مجرد احتمال علمى »

قلت وقد انشرح صدرى لاقترابه من الاقتناع بفساد رأيه السابق فى الدين ، وفى الاعتقاد فى الله: « إننى لا أطلب أكثر من ذلك . . وإن كنت أنبهك إلى أن هذه هى مجرد بداية الطريق إلى الإيمان . . لأن هذه « القوة العليا » كما نتصورها بهذا الفرض بتضاعف العقل البشرى إلى مالا نهاية ليست هى « الله الحق » . . ولكن من هذه البداية يمكن أن يستمر التفكير العلمى السليم ، بعد كسر هذا الحاجز الترفى ، والطبقى ، الذى يحول بينك وبين صحة النظر » .

ثم وقفت لأنصرف وأنا أبتسم وأقول له مداعباً بلغة نصف دارجة : « والآن هل تحرم تنكر الله ، وتطعن في الدين ؟ »

قال وهو لايزال مأخوذاً حتى نخاعه ، ودون أن يبتسم ، أو يجلجل بصوته كعادته « نعم . . سأحرم على نفسي — على الأقل — أن أطلق لساني بعد اليوم ضد الدين والإيمان » .

قلت وأنا أربت على كتفه مبتسما ومحيياً وأنا أنصرف : « هذا يكفي جداً . . هذا يكفي . . السلام عليكم » .

ورفع يده محيياً وهو يبتسم أخيراً !

وهكذا تركته راثياً لحاله ، ومترحما عليه في مصيره ، وأنا أشعر أن الأغلال التي تكبله إلى طبقته من المترفين ، المباهين بالإلحاد ، والمترفعين على النصح ، والمستغلين لقدرتهم في الإفساد وفي الفساد ، هي أكبر من طاقته على التحرر منها ، وعلى قبول النصح ببداية الهدى والإيمان ، وبتذليل قدراته بين إخوته من البشر في تنمية الحياة والإنسان .

وعلى هذا فقد تتبعت أخباره من بعد أن باعدت الأيام بيننا ، حتى تحقق لي ماكان من التصاقه بطبقته ، ومن استمتاعه بغفلته ، حتى أدركه في حياته وبعد موته ما كتبه الله في سننه على هؤلاء المترفين الباغين ، من اختلال العيش ، وفقدان الأمن ، وسوء المصير ، وهكذا مات من بعده كما كان ميتاً في حياته — كل ماكان فخوراً به من ثقافته وأدبه ومسرحياته ! .

على أن من أكبر ذنوب هؤلاء المترفين الملحدين ، الفخورين بالشذوذ في المتعة ، والمبالغة في الزينة ، والعدوان على الحرمة ، أنهم يقدمون أسوأ

الأسوة إلى كثير من الشباب المعد بقدراته الفتية، وأمنياته البطولية الفطرية، ليسلك طريق الإيمان والعمل، ويتخلق بخلق الجهاد والشرف، ولكنهم فى مستهل الطريق يفتحون أعينهم على بعض رواد هذه الطبقة من المترفين، الطاعنين فى الدين، والموغلين فى البغى، والسادرين فى الهوى، فلايكون منهم بفتنة التقليد إلا أن يسيروا على غرارهم، وأن يغتربوا بهذا التقليد الأعمى عن نعمة هدايتهم، وشرف غايتهم :

إلحاد العاجزين المستضعفين :

أما العاجزون أو المستضعفون الذين نتعرض لهم فى هذا المثال فهم هؤلاء الذين يستسلمون لإرادة من يضل عن طريق الله من كبرائهم المترفين، فلا تخطر المقاومة ببالهم، بل يستسلمون لهم، ويضلون معهم، ركوناً إلى حجة العجز والضعف المفروض عليهم ممن هم أقوى منهم، وفى هؤلاء الذين يلحدون عجزاً واستضعافاً لكبرائهم يقول الله فى وصف اعتذارهم عن شركهم وكفرهم :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ » . النساء : آية ٩٧

ويقول أيضاً من حوار الضعفاء والكبراء يوم القيامة :

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا » . إبراهيم : آية ٢١

هؤلاء العاجزون المستضعفون كانوا ولايزالون يجدون مبرراً لضلالهم برغم تقاعس الكثرة منهم عن المواجهة لمن ضللوهم، وعن المقاومة،

فى سبيل الله لهذا الضلال ، فقد تنتصر إرادة الكثرة منهم على ضعفهم على إرادة القلة من الكبراء الضالين المترفين رغم قوتهم .

وربما كان أقبح ما انساق إليه هؤلاء العاجزون من حماقة الاعتذار الفاسد ، مع مافيه من الدليل المعكوس ، والسراب المضلل ، ماخرجت به بعض تلك المذاهب الاعتقادية المفارقة للحق والصواب ، وذلك فى العصر الممتد مابين ترف العصر الأموى ، وتفلسف العصر العباسى ، من القول فى الجبر والاختيار . أى محاولة الإجابة عن أمر محكم فى القرآن الكريم وهو « مشيئة الله واختيار العبد » بما هو بعيد عن الحق والصواب ، ودافع إلى البلبال والضلال والسراب .

لقد قال « مذهب الجبرية » بأن الإنسان لا إرادة له فيما يفعل ، وهذا جنوح عن الصواب ومغالاة . ومثل ذلك فى الجنوح والمغالاة قول « مذهب القدرية » إن للإنسان استقلالا بإرادته عن إرادة الله ، بل إن هذا القول أبعد فى الجنوح . وممن قال بهذا القول أيضاً « المعتزلة » وهم أولئك الذين ساروا فى التفلسف والتأويل لكتاب الله كما سار « الفروشيم » أى المعتزلة من اليهود ، وقد أشار أحمد أمين فى كتابه « فجر الإسلام » إلى هذه الحقيقة .

وأما المرحوم الشيخ محمد أبوزهره أستاذ الشريعة الإسلامية فيقول عنهم : «والمعتزلون يتأولون كل مافى القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة » أى الفلاسفة اليونان . ولم يكن غريباً حقاً أن تقتحم الشعوبية فى ظل ترف واستهتار خلفاء العصر العباسى الفارسى رحاب القرآن الكريم المطهر ، ليقوم أهل الزيغ من المعتزلة وأمثالهم بمحاولة تفسيره بالتأويل ، وقد حملوا فى ظلمات عقولهم ، وقوفاً عند أعتاب القرآن الطاهرة ،

كل ما فى ظنون الفلسفة ومتاهاتها، وجدلها وسرابها ، بينما هذا القرآن الكريم كما كان ولايزال فى رحابه المطهر ، يشرق على قلوب المؤمنين بيقين لسانه العربى المبين ، سوياً بحقائق تنزيله الإلهى ، الذى لاينتهى معناه عند أهل الذكر ، صاعداً بمعراج نوره الذى لايتبدل باطنه عن ظاهره ، ولا أعلاه عن أدناه . .

وعلى هذا فإن القول فى مشيئة الله واختيار الإنسان هو فى ضوء القرآن الكريم أبعد من أن تنشأ عنه مزالق الرأى التى تولدت ولاتزال تتولد عنها الحيرات والبلبلات فى صدور بعض العجزة وضعاف الإيمان . ذلك أن الحق المبين فى كتاب الله، وفى برهان المؤمن على الله، وفى الأسماء والصفات الواجبة لله هو أنه صاحب المشيئة فى كل شىء من أمر هذه الحياة ، ومصير من فى هذه الحياة ، فيما سبق من الأمر، وما حضر منه، وماسوف يكون من بعده ، والله سبحانه وتعالى يقول من قوله المحكم فى هذا الأمر بعامته :

« وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إن اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » .
الإنسان : آية ٣٠

ويقول سبحانه فى مشيئته بالهدى والضلال :

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى من يَشَاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » . النحل : آية ٩٣

كذلك فإن المشيئة لله وحده فى كل أمر غير ذلك من الخلق والرزق ، ومن الحياة والموت ، ومن البعث والحساب .

والأمر فى هذه المشيئة التامة لله فى كل شىء لا خلاف فيه بين أحد

من المؤمنين ، الذين يعلمون من إيمانهم وفهمهم وتدبرهم لكتاب الله ، أن الله إنما هبط بالإنسان من الجنة إلى الأرض ليبتلى المحسن فيه من المسيء ، وليتم بهذا الابتلاء خلق هذا الإنسان الصالح بعمله للخلود فى الجنة ، وذلك بعد تمييز الطيب من الخبيث ، والمؤمن من الكافر ، وهنا تأتى مسألة اختيار الإنسان ، الذى لا اختيار له ، فنجد أن الله تعالى فى كمال عدله ورحمته قد وهب هذا الإنسان — المحسن منه والمسيء — هذا اليقين بأن الاختيار له فى كل عمله ، ذلك أن الإنسان حين يعمل : والمشيئة لله فى هذا العمل — لا يعلم شيئاً عن مشيئة الله قبل عمله ، لأنها من غيب الله ، ومن خاص علمه . ومعنى هذا أن القرار بالنسبة لعمل مايقوم به الإنسان هو له قبل أن يقوم به ، أى أن الاختيار الظاهر هو للإنسان فى هذا العمل حتى يقوم به ، فإذا ماقام به ، أصبح عليه أن يعلم — إن كان مؤمناً — أن ماقام به خيراً أو شراً ، إنما هو من مشيئة الله له . وبذلك — مع امتداد عدل الله ورحمته بمنح الإنسان هذا القدر المحدد من شكل الاختيار قبيل قرار العمل ، يصبح الإنسان مؤمناً أو كافراً ، ومحسناً أو مسيئاً ، شاهداً على نفسه يوم القيامة بأنه قد كان له من فضل الله عليه حق شهادته لنفسه أو عليها بهذا الاختيار الموقوت ، الذى كان بحرية اختياره الظاهرة له قبل العمل دليلا شاهداً له أو عليه عن نوع معدنه ، وحقيقة أخلاقه ، ودرجة إيمانه أو كفره .

أما مايكون بعد ذلك من فتنة السؤال عن : « لماذا كانت مشيئة الله بالهدى لإنسان والضلال لآخر » فالإيمان أولا ينفيه كما ينفيه الفهم لحكمة ابتلاء الله لهذا الإنسان فى هذه الدنيا التى هبط به إليها ، ليتم بامتحانه بالخير والشر ، والمال والبنين ، والحياة والموت — خلق هذا الإنسان الصالح الذى لا يعصى بعد ، ولا يكفر بنعمة الله بعد ، ولا يئوده القرب والرضوان من الله

بعد ، وهو « إنسان الجنة » الذى سيتمخض عنه مولد الإنسان مرة أخرى — بعد البعث والحساب — سعيداً فى الجنة ، أو شقياً فى النار . . فأما المؤمن السعيد فلايسأل الله لماذا ؟ . . لأنه سيعلم ويزداد علمه بحكمة الله الذى هو على يقين من حكمته ، بقدر ماينتقل من مراحل حياته بين الدنيا والآخرة . .

وأما الكافر فحسبه كفره ليقول به مايشاء . . وماهو من مشيئة الله له بحق وعدل . .

ومن هنا أبدأ فى سوق المثال — فى هذه الإجابة — عن البرهان العلمى فى مواجهة أهل هذا النوع من إلحاد العاجزين المستضعفين ، وهو فى الحقيقة قد وقع لى أكثر من مثال ، فكثيراً ماسمعته ممن أسروا لى به فى حيرتهم ، وهم بين الإيمان والكفر ، وقد دفعت بهم هموم العيش ، وسطوة الكبراء أو الرؤساء على معايشهم ، إلى شبه القنوط الذى يتردى به المستضعف سريعاً على مثل هذا المنزلق الناعم إلى قرار الهاوية السوداء البعيدة القرار ، وهى الإلحاد واليأس ، وسوء المصير . وذلك حيث يقول « إذا كان قد شاء لى الفقر ، أو الذل ، فلماذا يحاسبنى على الكفر . . وإذا كان قد شاء لى الكفر فلماذا يعاقبنى عليه ؟ »

إن أكثر من يسألون بهذا الاعتراض من بين أنصاف المتعلمين ، أو حديثى التأهيل بالمؤهل الجامعى ، أو بعض متفلسفة المثقفين العابثين . وأكتفى مع كثرة من سألنى من هؤلاء أن أقول إن الجواب عليهم جميعاً واحد ، وهو موجز وقاطع ، وبعيد جداً عما جرى عليه بعض علماء الدين من الخلط فى الإجابة على هؤلاء بمحاولة غير مجدية معهم لإقناعهم بعدالة الله سبحانه وتعالى حين يهدى وحين يضل .

أما هذا الجواب الحاسم على جميع من يقولون من هؤلاء العاجزين

المستضعفين « إذا كان قد أضلني فلماذا يعاقبني ؟ » فهو كما يأتي ، وبهذا الإيجاز :

« إسمع يا أخي : أنت بهذا القول رجل من رجلين ، إما مؤمن زلزلته الأعباء ، حتى اقترب إلى حافة اليأس من رحمة الله ، وهذا تكفيه العظة الصادقة لكي يذكر بإيمانه أن الله عادل حكيم رحيم ، وهو فى عدله وحكمته ورحمته لايظلم أحداً ، حتى هذا الكافر المسترسل فى خطايا كفره لم يظلمه الله حين شاء له الكفر . وعلى هذا فإن كنت مؤمناً رجعت إلى الله واستحييت من أن يخامرك أى ريب فى عدله ، ومن ذلك عدله معك حين اختار لك الإيمان . وأما إن كنت غير ذلك ، أى إن كنت كافراً بالله ، أو منكراً بالإلحاد لقيام الله على هذا الخلق ، فلماذا تسأل عن « العدل » عند من كفرت أصلا به ، وبحقيقة نسبة الخلق والحياة والحكمة والرحمة إليه ؟!! » .

بعض هؤلاء الذين أجبتهم فى حدود هذا البرهان العلمى الموجز بكوا حياء من الله مما كادوا أن ينزلقوا إليه من الكفر ، وأن يتردوا إلى قراره من المعاجزة لله ، والطعن فى الدين . . وبعضهم ضحك ضحكة الشيطان ، وأسرع الخطى بعيداً وهو يهز أكتافه ، وقد علم يقيناً بانكشاف خدعته ، وانفضاح هدفه وعبثه !

التفرق فى الدين والرجوع إلى الله :

وأخيراً . . فإنه فى ختام هذه الإجابة لابد من الإشارة إلى أخطر الظواهر فى قضية الإلحاد بأنواعه ، وهى هذا التفرق الذى لا خفاء له بين المسلمين فى مذاهبهم الاعتقادية ، التى صاروا بها كغيرهم من الأمم السابقة من أهل الكتاب فرقاً وشيعاً . فمثل هذا التفرق الذى يتخلق به

أخطر مناخ لتشجيع القوى المعادية على بث الإلحاد بين هؤلاء المسلمين المنقسمين على الإيمان . . إن مثل هذا التفرق ليس مما يمكن فى قضية محاربة الإلحاد المستورد أو المقيم أن نسكت عنه . كذلك ليس من المصلحة أن نأخذ جانب أحد الأطراف فيه ، أو نخطىء الرأى الراشد لتلافى مخاطره ومضاعفاته .

فى خطر هذا التفرق الذى تجاوزه قوم النبى بحسن التدبر والاستجابة لكتاب الله يقول سبحانه وتعالى :

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ماجَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . آل عمران آية ١٠٥

ويقول سبحانه لنبيه الكريم :

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ » .
الأنعام : آية ١٥٩

على أن الأخطر من تفرق المسلمين المعاصرين قيام كل فريق منهم ، وكل شيعة ومذهب ، بصولة الدفاع عن « تأويلهم » الذى وصلت إليهم فتنته ، ومتاهاته ، وفلسفاته ، من تلك القرون التى أشرنا إليها عند ظهور أمثال المعتزلة — وغيرهم كثيرون — وبذلك تنبرى كل فرقة أو شيعة — كما هو الحاصل فى مجال الكتب والأعلام باتساع الوطن العربى والعالم الإسلامى — إلى « تكفير » الفرق والشيع والمذاهب الأخرى ، هذا فى الوقت الذى يستقر على بعض أرضنا العربية المقدسة ، ورغم إرادتنا ، وبسبب تفرقنا وانقسامنا — هذا العدو الإسرائيلى الصهيونى العنصرى الذى يستهدف القضاء

على مقوماتنا بكل ماتمثله فى وطننا من قرآن ولغة ، ومن أرض وبشر ، ومن موارد وخيرات ، ومن حرمات ومقدسات ، بل ومن بقاء ومصير ! ! إلا إذا وقفنا منه وقفة المؤمنين ، المتحدين ، القادرين على تحرير الأرض ، وفرض السلام العادل ، بالسلام أو بالحرب ، كما وفق الله الرئيس السادات إلى مقدمات النجاح المأمول لمبادرته الشهيرة بما تم الاتفاق عليه ، على طريق هذا السلام العادل — مع إسرائيل ، فى مؤتمر كامب ديفيد ، وبالجهود الأمريكية المكثفة .

الأمر الجدير بحكمة علماء المسلمين جميعاً ، مهما تفرقت مذاهبهم الاعتقادية فى الدين ، أن يرجعوا إلى ما لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم حياً بينهم اليوم لأوصاهم به ، ودعاهم إليه . بل إنه صلى الله عليه وسلم وهو لايزال حياً بسيرته الشريفة العطرة فى كتاب الله ، لايدعوهم إلا إليه ، وهو الرجوع إلى الله ، والاحتكام إلى المحكم — وليس المتشابه — من كتاب الله ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ » . المائدة : آية ١٥

وقوله تعـــالى :

« وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ » . الأنعام : آية ١٥٥

فالرجوع إلى الله ، بتدبر كتاب الله ، واتباع كتاب الله ، هو الطريق الرحب لتقارب المنقسمين من المسلمين على مالا يمكن الخلاف عليه من محكم آيات الله ، ومن صحيح الإيمان بالله ، بدليل العمل الصادق والظاهر على طاعة الله .

على أن مثل هذا التدبر القاضى بالتقارب السلمى ، والعلمى ، والأخلاقى بين المتفرقين من المسلمين المعاصرين ، لا يمكن أن يتم إلا بأداته الحية

التى جعلها الله دون غيرها ، طريق هذا التدبر للقرآن الكريم ، وبلوغ شرف النعمة بفعل آياته ، وعلم محكمه وتفصيله ، وهو اللسان العربى القرآنى العربى المبين ، الذى لابد من استعادته تحت إشراف صفوة العلماء المجاهدين فى معاهد الأزهر وكلياته ، ابتداء من الكتاتيب التى تقرر والحمد لله إنشاؤها أخيراً فى الأزهر لتحفيظ القرآن الكريم من الصغر ، أى من الطفولة المبكرة .

لقد تعرضت اللغة العربية طويلا لعدوان كل أعدائها وأعدائنا ، حتى أثخنوها بالكلام والجراح ، وأصابوها بالدوار واللكنة ، وأعجزوها بعجائب العاهات عن أن تبلغ بالناطقين بها مرتقى هذا البيان العربى الذى لاسبيل بغيره إلى العبور بالعقل والفهم ، وبالتدبر والتفكر ، وبالخشوع واليقين ، إلى كتاب الله الكريم .

وفى أمانة الله التى ألقاها على عاتق العلماء باستعادة هذه اللغة الفصحى ، القرآنية ، إلى ألسنة المسلمين فى هذا العصر ، وبخاصة هذه الأمة العربية بكل إلتزاماتها تجاه اللغة ، والدين ، والمقدسات ، يقول الله فى امتداد تذكيرهم فى كتابه بهذا اللسان العربى المبين الذى نزل به الوحى ، وختمت به الرسالات ، ليبقى الدين لا ليبلى :

« كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

فصلت : آية ٣

ويقول سبحانه فيما يشير إلى أمانة الحفاظ على هذا اللسان عربياً حتى لايكون القرآن بين أهله مهجوراً :

« وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا » . **الأحقاف : آية ١٢**

و « أَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ » .   فصلت : آية ٤٤

فالرجوع إلى الله فى كتابه الكريم ، وباستهداء اللسان العربى المبين ، إلى حقائق محكمه ، وبينات آياته ، ينفتح الطريق المسدود أمام المسلمين جميعاً للخروج من حصار انقسامهم وتفرقهم ، ليسيروا متفائلين إلى تحقيق أمل تقاربهم واتحادهم .

والبداية هى كتاب الله ، الذى يدعونا أول مايدعونا إليه اليوم إلى استعادة لسانه ، وتنقية لغته ، وتعميم حفظ هذا الكتاب الكريم ، الحافظ للغة ، والدين ، والوحدة ، وكل مقومات القوة والنصر ، وذلك فى كل معاهد التربية الأزهرية والمدنية ، ومن بداية الكتاتيب أو دور الحضانة إلى نهاية مراحل التعليم .

وإذا كان الله قد أوجب على المسلم حفظ ماتيسر من القرآن الكريم ، وحفظ مايعين من لغته المبينة على تدبره ، وصدق الخشوع لآياته ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوجب مثل ذلك على صحابته ، ومن صحيح أحاديثه فى هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه » .

بحوث القسم الثالث

القرآن الكريم
واللغة العربيّة

يجيب عنه

الدكتور السيد رزق الطويل
المدرس بجامعة الأزهر
ورئيس جمعية دعوة الحق الإسلامية



السؤال الأول :

« اذا كانت فرنســا فى مرحلتها الاستعمارية قد عمدت منذ احتلالها الجزائر سنة ١٨٣٠ الى قطع لسان شعبها العربى ، لكى تصل بهذا السلاح الى ضــياع الذات الجزائرية العربيــة بين الجزائريين ، والى محو عروبتهم ، والى ازالة قوميتهم وماضيهم لكى تعيد تشكيلهم بعد ذلك على صورة الجنســية الفرنســية الأوروبية الغربية عليهم • تابعين وموالين بهذه الجنسية لفرنسا التى امتلكت الأرض الجزائرية واستغلت قوة العمل لشعبها لصالح الاقتصــاد الفرنسى فى الجزائر وفرنســا معا ، بعد أن قهرت الجزائريين على ترك لغتهم العربية جيلا بعد جيل •

فاذا كنا نشهد اليوم بعد تحرر الشعب الجزائرى بثمن قدره على الأقل مليون شهيد — مدى ما يعانيه الجزائريون من الأعباء الثقال ، وهم يعملون بأعظم الايمان والشجاعة والصبر على استعادة لغتهم العربيــة ، وذاتهم ، ودينهم ، وقوميتهم ، ووحــدتهم ، وبتائهم ، فى خطة مرحلية قاسية للتغريب الشامل بعد الفرنسة الشاملة ••

فكيف لا تعتبر الشعوب العربية فى هذا العصر بما وقع أمــام اعينها للشعب الجزائرى الشقيق فتبادر بالحفاظ على لغتها العربية القرآنية الفصحى فى أفواه أبنائها ، وأجيالها ، بعد أن أحاطت بها أخطار العامية ، والتراكيب الأجنبية ، واهمال تدريسها الصحيح فى مدارس الدولة ، ومع تراجع مستوى معلم اللغة العربية عن القدر الذى تفرضه المحافظة على وجود الأمة العربية ببقاء لغتها الحافظة لدينها وتاريخها ووحدتها ، حية ومتجددة •• ؟

كيف لا تعتبر الشعوب العربية بما وقع للجزائر وتبادر فتمتنع بالدفاع عن لغتها — عن أن تقطع لسانها بيدها — لكى يأتى جيل غريب بعد ذلك يقاسى من أجل حياته ، وذاته ، ودينه ، أعبـاء التعريب بعد هوان وشتات التغريب ٠٠ ؟

الإجـــابة :

كانت اللغة العربية التى هى لسان القرآن الكريم فى مقدمة الأهداف التى وجه إليها الاستعمار فى الوطن العربى سهامه القاتلة ، ليقضى بذلك على مركز حيوية الأمة العربية ، فى دينها ووحدتها وثقافتها ، وليتمكن بذلك من إحكام السيطرة عليها ، وإخماد أية جذوة قد تنهض بها لاستعادة حريتها ، وبذلك يتحقق له من إضعافها ، وتوهينها ، وتمزيقها ، مايكفل له ابتزاز كل مواردها ، واستغلال الجهود الإنتاجية لجميع مواطنيها . .

الجزائر وغيرها :

وقد بدأت نكبة الاستعمار للوطن العربى بعد استيلاء الإنجليز على ميناء عدن سنة ١٨٠٢ للتسلل منه إلى الجزيرة العربية باحتلال فرنسا لجزائر سنة ١٨٣٠ ، ومن يومها بذلت كل جهدها للقضاء على اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، وذلك بأن جعلت اللغة الفرنسية لغة الدواوين ، ولغة التعليم ، ولغة الصحافة ، ولغة الثقافة ، فقلما تجد صحيفة تصدر بالعربية أو كتابا يصدر بها ، بينما فتحت فرنسا أبوابها لاستقبال ألوف العمال بها من الجزائريين الذين تتم فرنستهم بها من خلال العمل والحياة اليومية الفرنسية ، ومن ثم يعودون بعد ذلك إلى وطنهم المقهور « الجزائر » وقدنسوا لغتهم ، وما ترمز إليه من دينهم ، وعروبتهم ، وقوميتهم . .

ولقد كان مما يلفت النظر أن قادة الثورة الجزائرية أنفسهم كانوا لا يحسنون العربية، بل ينطقونها بلكنة أعجمية ، بل كان منهم من فقد لسانه العربى بجملته ، ومن هنا عاشت الجزائر بعد تحررها بالثمن الغالى من شهدائها تواجه الكثير من المشقات لتستعيد لسانها العربى المبين من جديد .

على أن مثل هذه المحنة لم تكن مقصورة على الجزائر ، فلقد كان هذا هو مخطط الاستعمار وطريقه فى الأوطان العربية المختلفة ، وإن كان بنسب متفاوتة .

فنى تونس منذ احتلالها سنة ١٨٨١ حاول الاستعمار نفس محاولته فى الجزائر ، كما أن هذا كان منهجه على يد فرنسا أيضاً فى بلاد الشام سنة ١٩٢٠ ، وكما حاول الاستعمار الإيطالى ذلك فى ليبيا منذ احتلالها سنة ١٩١٢ .

وأما الاستعمار الإنجليزى فلقد كانت له جولاته الضارية فى مصر منذ سنة ١٨٨٢ ليعمل على قطع لسانها العربى ، وذلك فى محاولته صرف المصريين عن لغتهم العربية بعد أن جعل من اللغة الإنجليزية لغة التعليم الأساسية ، ولغة الطبقة الإقطاعية التى ربطت مصلحتها بمصلحته ، والتى كان أبناؤها ينادون بأن هذه اللغة التى جاء بها الاستعمار هى لغة المدنية والحضارة ، ويقصدون بذلك ما غرقوا فيه من الأباحية والاستهتار . .

على أن المصريين لم يتوقفوا عن المطالبة بالموضع الأول فى التعليم للغتهم التى هى أساس بقائهم ونمائهم ، ومن ذلك أن اللجنة التشريعية طالبت الحكومة سنة ١٩٠٧ بإعادة اللغة العربية إلى موضعها الطبيعى فى المدارس ، وهو الموضع الذى احتلته اللغة الإنجليزية ، فما كان

وزير المعارف فى ذلك الوقت إلا أن تملص من الاستجابة لهذا المطلب الوطنى ، والقومى ، وذلك بادعاء قيام صعوبات كثيرة أمام تنفيذ هذا المطلب ، والتى منها كما قال لأعضاء اللجنة التشريعية « قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم الفنون المختلفة باللغة العربية ، فإذا كنتم توافقون على الاقتراح المقدم إليكم كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بغير سلم »(*).

كذلك فقد حاول الإنجليز فى السودان — كما فعلوا فى مصر — أن يبعدوا العربية الفصحى عن ميدان التعليم الجامعى ، وأنشأوا لذلك كلية غوردون ، التى تدرس فيها معظم المواد باللغة الإنجليزية ، وجعلوها المنفذ الوحيد إلى التعليم العالى ، واضطهدوا كل من تلقى من السودانيين علومه بمصر ، فحالوا بينه وبين التعليم الجامعى .

على أن هذا الاستعمار بكل جهوده لمسخ الذات العربية بين شعوب الوطن العربى ، وإخماد جذوتها للحرية ، وحفاظها على المقومات ، لم يجد أهدافه ميسرة كما كان يتوقع بين هذه الشعوب ، بل لقد كانت المقاومة له حية ومتصاعدة من جميع العناصر الواعية التى تجردت لمقاومته ، وإحباط مخططاته ، بكل ما تملك من جهد وعلم ووسائل . .

ففى الجزائر كانت جمعية علماء الجزائر التى كان يرأسها العالم الجليل الشيخ محمد بشير الإبراهيمى تنشىء المكاتب على نطاق واسع لتحفيظ القرآن الكريم ، كما تنشىء المدارس لتعليم اللغة العربية ، وتعليم الإسلام ، والتفقيه بعباداته وشرعه ، وسلوكه وأخلاقه .

وكان للمعهد الدينى بأم درمان أثر هام فى إبطال مخطط الاستعمار

(*) من كتاب « لغتنا القومية » للاستاذ عمر الدسوقى .

ضد اللغة العربية فى السودان . وفى مصر قام الأزهر ، والكتاتيب المنبثة فى القرى ، وعدد من الجمعيات الإسلامية النشطة بمواجهة فعالة للمخطط الاستعمارى ضد لغة القرآن الكريم ، حفظت هذ اللغة من الضياع ، ووفرت لها الصيانة التى انتهت بها إلينا لنعمل على أن نزيدها بفضل الله قوة على قوة ، ودرجة نحو الفصحى الكاملة بعد درجة . .

اللغة والانتماء القومى :

لا نكاد نجد ما هو أعظم أثراً فى الحفاظ على كيان أمة من الأمم من الحفاظ على قوة لغتها ، الجامعة لمقومات وجودها من العقيدة ، والتراث ، والتاريخ ، وقرة الحركة نحو المستقبل .

واللغة فى حد ذاتها ظاهرة اجتماعية تنشأ مع نشأة المجتمعات الإنسانية ، للتعبير عن طريق الوعى للأصوات والصور فى مكان بعينه هو الوطن عن حاجات الإنسان ، وعن أفكاره وآماله ، باتجاهها الفردى والجماعى . نحو التقدم ، وإيجاد الحلول لكل المشكلات لتحقيق الآمال .

ومن هنا تعيش اللغة مع الإنسان منذ وجوده ، ليجرى فى أصواتها فكره ، وتظهر رغباته ومشاعره ، حاملة بألفاظها وتراكيبها وخصائص الوطن الذى يعيش فيه ، ومحتفظة بقدرته على أن يجدد حياته ، ويواجه متغيرات زمنه ، دون أن يفقد ارتباطه بتراثه ، وأخلاقه ، وقوة انتمائه لشعبه .

لهذا كانت اللغة هى العامل الأساسى الذى تقوم عليه قوة الانتماء القومى، أى قوة شعور الفرد بالانتماء إلى أمة بعينها لها معتقداتها ، وأخلاقها ، وثقافتها ، وآمالها .

وعندما ظهرت الحركات القومية فى أوروبا فى أواخر القرن الثامن عشر كانت اللغة هى الباعث القوى لوجودها ، والعامل الأساسى الذى

أبرزها إلى حيز الوجود ، كما حدث ذلك بالنسبة لحركة الوحدة الألمانية ، وقيام بولندة بعد الحرب العالمية الأولى فى صورة دولة قوية ، بعد أن كانت ترزح قبل ذلك تحت احتلال كل من روسيا وبروسيا والنمسا ، وكذلك موقف أيرلندا الصلب من مقاومة الاحتلال الإنجليزى إلى أن تحقق استقلالها ، فكل هذ الانتصارات التى حققتها شعوب ممزقة بتوحيد أجزائها ، واستعادة الصورة القومية السليمة لوجودها ، كانت اللغة هى الباعث الحقيقى لقوة انتمائها القومى ، بالدرجة التى أظفرتها بما كان عزيزاً أن تظفر به بدونها ، وهو الوحدة بعد التمزق ، والحرية بعد الاحتلال .

وهكذا لا تزال لغتنا العربية الواحدة ، والتى قضى الله بحفظها وتكريمها منذ نزل بلسانها القرآن الكريم ، هى مصدر هذ القوة التى حالت بين الاستعمار ، والقوى المختلفة من بعده ، وبين تفتيت الأمة العربية ، هذه الأمة التى لا تزال شعوبها تتحدث من الخليج إلى المحيط بلغة واحدة ، يحفظها من الإندثار كتاب خالد ، وهذه اللغة – مهما تعددت لهجاتها–تتكلم الفصحى أو ما هو أقرب إليها فى شئونها الأساسية، والثقافية ، وليس من المستبعد ، بل هو الأمل القريب أن تكون رعاية هذه اللغة العربية القرآنية نقطة الإنطلاق إلى وحدة الأمة العربية ، وإلى جمع شتات قدراتها وسياساتها ومواردها لتحقيق أمنها القومى الذى لا تزال تتهدده الأطماع التوسعية لإسرائيل ، ولدعم مسيرتها الحضارية بالإيمان والعلم ، وبالأصالة والعصرية . .

خصائص العربية :

لا شك أن الاستعمار – والقوى المعادية للعرب على اختلافها – كانوا ولا يزالون فى حرصهم البالغ على صرف أبناء اللغة العربية عنها ،

يدركون ما لهذه اللغة ، وما لهذا اللسان العربى من خصائص القوة التى تجعله مصدر المواجهة المنتصرة لهذه الأمة المؤمنة المسالمة على كل أعدائها .

إن هذا اللسان العربى — وكلمة اللسان أقوى فى التعبير من كلمة اللغة — قد أتيح له من خصائص التعبير والفصاحة والأبانة التى استمدها من البيئة الأولى ، واكتسبها من البداوة الخالصة ، ما لم يتح للسان آخر من ألسنة البشر الذين يسكنون أرجاء المعمورة .

لقد كان للسان العربى من القوة والحسم ما كان للعربى فى سيفه ، كما كان له من الحسنى واليسرى ما كان للعربى فى جوده ، وبسبب هذا الأثر البين من الحسم والكرم لكلمة ينطق بها اللسان لفوره فقد وردت كلمة « اللسان » فى القرآن الكريم فى مكان كلمة « اللغة » ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا »

مريم : الآية ٩٧

وقوله تعـالى :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ » الشعراء : آيات ١٩٣ ، ١٩٤ و ١٩٥ .

إن نزول القرآن الكريم بهذا اللسان العربى فى إبان بيانه ، وذروة إفصاح العرب به قبيل بعثة النبى — صلى الله عليه وسلم — كان شاهداً حياً ، وخالداً ، على ما لهذا اللسان العربى من خصائص الدقة فى أداء المعنى ، والوفاء به إلى درجة هذا الكمال الذى يتطلبه وحى ينزل من

عند الله ، برسالة خاتمة يحيا بها هذا اللسان فى كتاب الله ، محفوظاً لا يبلى ، ومشرقاً لا يأفل .

لقد كانت اللغة العربية ، أو اللسان العربى ، بما تم لها من خصائص الإبانة ، وكمال التعبير ، لفظاً ومعنى وتركيباً ، وعاء مضيئاً وصادقاً وأميناً لحقائق القرآن الكريم ، الحافظ للدين الحق ، فى رسالة الله الخاتمة بالإسلام ، والباقية ببقاء هذا الكتاب ليسير الناس على هديها حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن هنا أصبحت اللغة العربية ملازمة لانتشار الإسلام ، ولازمة له ، تمتد بمده ، وتنتشر بانتشاره ، وتيسر لكل من اهتدى إلى الإسلام من غير العرب أن يتعلمها ، ليتعلم من أحكام دينه ، وشرعه ، وأخلاقه ما هو بحاجة إليه .

ومن الأحداث التاريخية التى شدت انتباه الباحثين فى الشرق والغرب سرعة انتشار اللغة العربية بنسبة سرعة انتشار الإسلام فى القرن الأول من الهجرة ، حتى أصبحت لغة القرآن الكريم لساناً لأبناء الشمال الأفريقى ، وبلاد الشام والعراق ، الذين زاد اهتمامهم بدراسة قواعدها ، والتأدب بآدابها ، وتوحيد ألسنتهم المشتقة عليها ، وحيث جعلوا من القبائل المهاجرة إلى تلك البلدان مرجعاً لاستيضاح ما يغمض عليهم من ألفاظها أو نظمها .

ومع أن اللغة العربية أقدم لغات البشر فى هذا العالم فإن الإيقاع الصوتى الذى تميزت به فى نطقها لا يزال ثابتاً لم يتغير منذ نزل بها القرآن الكريم حتى اليوم . وما ذلك إلا لأن قراء القرآن الكريم حرصوا على نطق الحروف كما سمعوها من النبى صلى الله عليه وسلم . كما كانت

عنايتهم كاملة بضبط مخارج الحروف وصفاتها . وبنفس هذا الضبط للأداء الصوتى قرأوا الآثار الأدبية نثراً وشعراً .

ولئن كان أبناء الأمة العربية من الخليج إلى المحيط تختلف لهجاتهم العامية فإنهم جميعاً يتفقون تقريباً فى طريقة الأداء الصوتى للغة الفصيحة . وعلى النقيض من ذلك نجد اللغات الأخرى كالأوربية مثلا ، وذلك حيث نجد نطق الإنجليزية اليوم يختلف عنها فى عهد شكسبير ، كما نجد أن نطق الأمريكى يختلف عن نطق الاسكتلندى ، وذلك لأن هذه اللغات لم تجد كتاباً مثل « القرآن الكريم » يحفظها بقدسيته الباقية والفعالة فى شئون الدين والدنيا ، كما يحفظ لها استمرار وحدة معانيها وأصواتها ودلالاتها .

الاتساق والاشتقاق :

ومن خصائص اللغة العربية إتساق لسانها فى صيغ مضبوطة ، وقوالب موزونة ، بحيث نجد أن لكل صيغة من صيغها ، ووزن من أوزانها ، دلالة فى المعنى يحملها كل لفظ بحسب صيغته أو وزنه .

مثال ذلك ما يصاغ من الفعل الثلاثى على وزن فاعل ، ومن غير الثلاثى على وزن المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل الآخر ، وذلك للدلالة على الفاعلية .

وأما للدلالة على اسم المفعول فما يجئ من الثلاثى على وزن مفعول ، ومن غير الثلاثى كاسم الفاعل مع فتح ما قبل الآخر .

ومثل ذلك إتساق الصيغ فى دلالتها على الزمان والمكان ، وعلى الحرفة والآلة ، وعلى التفضيل . فمثل هذا الاتساق فى هذه المجالات كلها بما يعنى وحدة الدلالة فى المعنى لكل الألفاظ ذوات الصيغة الواحدة ، إنما

ييسر إلى حد بعيد تعليم اللغة العربية ، فضلا عن أنه يحفظ بهذا الاتساق كيانها العام كما لو كان هذا الاتساق إيقاعاً « معنوياً » داخلياً يشد كيان اللغة دائماً إلى وحدة بنائها ، ويدفع بها إلى يسر إطرادها وتجددها .

وأما خصيصة الاشتقاق ، بعد الاتساق ، فهى فى خصائص اللغة العربية ظاهرة توالدها ، وعلامة بارزة من علامات الحياة فى الكائنات الحية تتميز بها ، ذلك أن رجوع كل مجموعة من الكلمات بهذا الاشتقاق إلى أصل واحد ، أو أب واحد تصدر عنه ، إنما يعنى تقارب المعانى فى هذه المجموعات بتقارب الألفاظ ، وتقارب الأصوات ، كما نجد المشتقات مثلا من مادة « كتب» أنها كلمات كتابة ، وكاتب ، ومكتوب ، ومكتبة ، وكتاب ، بينما تكاد تنعدم هذه الظاهرة على الحياة بالتوالد الاشتقاق ، وعلى التجانس اللفظى والمعنوى بهذا الاشتقاق فى اللغات الأخرى .

قيامها بكلام الله :

بهذه الخصائص الفريدة بين لغات البشر لم يكن عجيباً أن تكون اللغة العربية هى اللسان المهيأ بكماله اللفظى ، والمعنوى ، والترتيلى ، لينزل به كلام الله ، مبيناً بدعوته لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد بغير شريك أو شبيه ، ومحكماً لشريعته التى فصلها وأحكمها للمؤمنين ليعملوا بها ويتآخوا فى طاعة الله وتقواه . فبهذا البيان المبين الذى أتم الله نعمته على قوم النبى صلى الله عليه وسلم كانت حجة الله المنعم على من دعاهم إلى الإسلام الخالص إليه . إن من كان له هذا اللسان العربى يتأتى له عقل الآيات بأنواعها من عند الله ، ومن عقل الآيات تأتى له العلم بما وراءها من

أمر الله وحق الله ، ومن علم بما وراء الآيات من أمر الله وحق الله وجب عليه الإيمان بالله ، والإسلام الخالص إلى الله .

وفى ارتباط خصائص اللسان العربى المبين بكل من سلامة العقل ، وجلاء العلم ، ووجوب الإيمان يقول سبحانه وتعالى فى آيات متقاربة الدلالة فى موقف الإنسان المبين بلسانه من آيات الله :

« إِنَّاأَنزَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » يوسف : آية ٢

ويقول سبحانه :

« كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعقِلُونَ » الروم : آية ٢٨

ويقول سبحانه :

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعلمُونَ » يونس : آية : ٥

ويقول سبحانه :

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلكَ لَآيَاتٍ لِّقوم يُؤمِنُونَ » . النمل : آية ٨٦

* * *

من أجل هذا كان الاستعمار فى كل مراحله فوق أرضنا ، وبين شعوبنا ، حريصاً ودؤوباً على قطع ألسنة العرب ، كما حاول ذلك وكاد أن يبلغ هدفه فى محنة الجزائر .. إنه يعلم مدى ما فى لغة أمة من مقومات حياة هذه الأمة ، وهو يعلم بتجاربه منذ الفتح الإسلامى الذى تحررت به الشعوب العربية من نير ألف سنة تحت حكم القياصرة والأكاسرة

ماذا تعنيه اللغة العربية بعد نزول القرآن الكريم بها بالنسبة لإمكان الحياة العزيزة بها فى ظل الإيمان ، ونور القرآن ، بالنسبة للشعوب العربية التى تملك من الموقع الجغرافى والمجد التاريخى ، والأصالة العلمية والثقافية والحضارية ، ما يجعل الوجود بالقهر ، أو بالتسلل ، عسيرا على كل أنواع الاستعمار القديم والحديث ، بل يجعله بعيد المنال تماماً ..

وربما كان هذا الدرس الماثل فى حياة عملية التصحيح بالتعريب باعتباره ضرورة حياة ووحدة وإنتماء ، هو العظة الماثلة أمام أعين جميع العرب حتى يدفعوا عن لغتهم العربية ، لغة كتاب الله إليهم ، ولغة الحياة العزيزة به فى عالمهم ، بكل ما يملكون من وعى وعزم وإيمان .. فما أكثر المخاطر التى لاتزال تهدد نماءها وشمولها فى حياتنا العامة والخاصة باتجاه الفصحى .. وما أكثر ما يلزم من الجهد والأمانة والإصرار للتعرف على أنواع هذه المخاطر ، لمواجهتها بكل الوسائل ، ولإزالتها من الطريق الرحب لأمة العلم والإيمان .

السؤال الثانى :

لماذا أصبح من المسلمات فى جميع الشعوب المتقدمة تعليم الأطفال لغتهم القومية وترسيخ قواعدها وأصواتها فى السنتهم ، وملكاتهم ، قبل أية لغة أجنبية عنهم ؟

اشرح كيف أن هذه القاعدة السليمة كانت هى الأساس الذى ربط فيه المسلمون فى عصورهم الزاهرة بين تعليم اللغة لأطفالهم وبين تنشئتهم • على حفظ القرآن الكريم منذ أول قدرتهم على الكلام ؟

الإجابة :

تهتم كل الشعوب المتقدمة الآن بتعليم أطفالها اللغة القومية لشعبهم الذى ينتمون إليه ، وذلك منذ بواكير حياتهم ، ونعومة أظفارهم ، كما يقومون بأحدث وسائل التربية والترغيب بترسيخ ملكاتها وأصواتها وقواعدها فى ألسنتهم ، وأصواتهم وملكاتهم ، حتى تكون هى أساس التعبير ، وقوة الإنتماء القومى فى حياتهم ، قبل أن يسمح لهم بدراسة أية لغة أجنبية قد يكونون فى دراساتهم العليا فى حاجة إليها .

وهذا النمط الذى تحتذيه الشعوب المتقدمة سبق المسلمون الأوائل إليه ، فى غرس وترسيخ اللغة العربية الفصحى بصوتياتها وقواعدها فى واعيتهم وحافظتهم .

ولقد كان منهج هؤلاء المسلمون الأوائل يقوم فى تعليم الفصحى على أسس واضحة قويمة تمسكوا بها زمناً طويلا ، ونذكر منها ما يلى :

حضانة البادية :

لقد ظلوا حتى بعد أن انتقل الكثيرون منهم بعد الفتح إلى الشام والعراق ومصر يتأسون برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قضى طفولته الأولى بالبادية على عادة قريش ، وذلك حيث الوضوح والأصالة ،مع انفساح الآفاق أمام أعين الطفل وسمعه وحواسه ليتلقى فى حضانتها أسماء ما يرى وما يسمع من آيات الله المبينة بأصوات اللغة الصحيحة ، الفصيحة ، التى يبدأ فى تعلمها ، وتشكيل أصواته ومعانيه بها ، فى ساحة ازدهارها ، وصدق دلالتها ، حيث لم تتسرب إليها عجمة فى نطقها ، أو مقاصدها ، أو قواعدها ..

وكان فى مقدمة هؤلاء الحريصين على حضانة البادية لأطفالهم فى سن

غرس اللغة ، وتنمية أصول العقل والأخلاق — خلفاء بنى أمية ، الذين كانوا أحرص من حولهم على هذا المنهج السليم الذى حافظوا على اتباعه ، فما من خليفة أو أمير أو شيخ منهم إلا كان يرسل بأبنائه فى طفولتهم المبكرة إلى البادية ، يخالط أهلها ، ويألف عيشها ، ويرتضع لبان الفصحى فيها من مصدر صحيح ووثيق .

وما كان هذا الحرص الشديد منهم على هذا المنهج الذى لا ترف فيه فى التنشئة الأولى لأطفالهم إلا إيماناً راسخاً منهم بحق الحفاظ على اللسان العربى صحيحاً وفصيحاً ، لأن وراء ذلك الحق الأعظم فى الحفاظ على الدين ، وعلى صحة دراسة وتدبر القرآن الكريم ، وعلى ما يتبع ذلك من أخلاق حسنة ، وسلوك قاصد إلى الخير والبر والسلم ، مما كان فى تراث هذه الأمة أساساً ودعامة لما اصطفاها الله له من حمل رسالته الخاتمة .

ولم يكن هذا الأمر مقصوراً على أبناء الخلفاء ، وذوى الشأن فى الدولة الإسلامية ، وإنما كان الذهاب للبادية طلباً للغة الفصحى منهجاً سار عليه العلماء والباحثون والشعراء ، الذين كانوا يرون فى هذه الفترة التى يقضونها باحثين ، ناقلين ، مستفسرين ، بين أهل البادية ، فترة تؤهلهم لامتياز علمى وثقافى يرتفعون به درجة فى الفضل على غيرهم .

وعن هذا الحفاظ على اللغة العربية الفصحى فى العصر الأموى يقول الباحث اللغوى يوهان فك فى كتابه عن اللغة العربية « دراسات فى اللهجات والأساليب » وهو يعلل بقاء اللغة العربية على الرغم من سقوط الدولة الأموية :

« ربما كان سبب ذلك هو أن لغة القرآن صارت فى شعور كل مسلم أيا كانت لغته الأصلية . جزءاً لا ينفصل عن حقيقة الإسلام ، حتى

إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك لم يكونوا يستطيعون التفكير فى رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة » .

ويقول أيضاً فى أن البادية ظلت إلى زمن غير قليل مصدراً للتفقه فى اللسان العربى ، والاستزادة من العلم به :

« الحقيقة الثابتة أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا حتى القرن الرابع الهجرى ، والعاشر الميلادى ، على الأقل ، يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم » .

كذلك فقد كان من الخلفاء والولاة من استقدموا لأولادهم — بعد مرحلة البادية — أفضل المؤدبين الفصحاء ليأخذوهم باللغة الفصيحة فى جميع مجالات العلم المتاحة ، وليزيدوهم علماً إلى جانب علوم القرآن الكريم وثقافته — بأشعار العرب ، وحكمتهم ، وأمثالهم .

وهكذا كان الاتجاه العام فى هذا العصر هو رفض اللحن فى اللغة ، والعمل على تفاديه بوسائل تربوية وتثقيفية سليمة . وكان عبد الملك ابن مروان يقول فى تعزيز هذا الاتجاه « الأعراب جمال الوضع ، واللحن هجنة الشريف » كما كان يقول : « ليس لمن يلحن حرمة » ، وكان من وصاياه قوله :

« أصلحوا من ألسنتكم فإن المرء تنوبه النائبة فيستعير الثوب والدابة ، ولا يمكنه أن يستعير اللسان » .

وفى ذلك العهد — كما ترويه كتب التراث الأدبية — دخل أعرابى السوق فسمع جماعة من الناس يلحنون فقال متعجبا « يا سبحان الله . . يلحنون ويرزقون » !

تعريب الدواوين :

كذلك فقد كان من الأسس التى استند إليها المسلمون الأولون فى تعليم الفصحى ، والحفاظ على فصاحتها باتساع كل فئات المجتمع ما قام به خلفاء بنى أمية من تعريب الدواوين التى كانت لا تزال تستخدم فى تسجيل شئون الدولة اللغة الفارسية فى العراق ، والرومية فى الشام ، واللهجة العربية القبطية فى مصر . ولقد تم هذا التعريب رغم صعوباته فى عهد عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وبهذا اكتملت سيادة اللسان العربى القرآنى على كل مرافق الدولة والمجتمع ، وأثبتت اللغة العربية بذلك جدارتها بالنهوض بكل أعباء الحياة ، والتعبير عن كل جديد فيها ، بما هو أتم وأكمل من غيرها ، كما كان هذا التعريب للدواوين عملا تربوياً من جهة أخرى يسهم إسهاماً كبيراً فى توفير المناخ الصحيح لتظل الأجيال المقبلة تنطق باللسان الفصيح .

حفظ القرآن الكريم :

وكذلك فقد كان من المسلمات — فى مجال الأسس التى حرص عليها المسلمون الأوائل لتعليم الفصحى والمحافظة عليها — أن هذا السلف الصالح من المسلمين الأولين كانوا يأخذون أبناءهم بمجرد قدرتهم على النطق بحفظ القرآن الكريم ، حفظاً يعنون فيه قبل كل شئ بتنشئتهم به على الأداء الصوتى السليم لآياته ، وكلماته ، على النحو الذى وصانا الله به سبحانه فى قوله تعالى :

« وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » المزمل : آية ٤

وقوله تعالى لرسوله :

« وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتابِ رَبِّكَ » الكهف : آية ٢٧

وقوله تعالى أيضا لرسوله عليه الصلاة والسلام :

« وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » الإسراء: آية ١٠٦»

وقوله تعالى :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ » البقرة : آية ١٢١

ولاشك أن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم كانت أمثل قراءة من الناحيتين الإعرابية والصوتية . وقد تلقى الصحابة القرآن عن النبى عليه الصلاة والسلام مستمسكين بما سمعوا منه أداء وإعراباً . ومن هنا كان القرآن الكريم بجانب ما فيه من نور وهدى وتشريع آية باقية من الله ، حافظة للسان العرب لغة وصوتاً ، كما كان هو المنهج التربوى الذى لا يرقى إليه كلام سواه لتعليم اللسان العربى الفصيح ، وتربية الأجيال عليه جيلا بعد جيل .

ولقد كان هذا هو الأساس المتين الذى اتجه إليه المسلمون الأولون لحفظ اللغة التى حفظها القرآن الكريم بين أبنائهم ، فالطفل العربى منذ نعومة أظفاره ، وبطريقة التلقى والتشويق والتعظيم لقول الله يحفظ من القرآن الكريم ما يضبط به لسانه، ومخارج حروفه، على النهج السليم ، متوجهاً بذلك وهو آمن من عثار اللفظ أو المعنى إلى فهم معانيه ، وتدبر أحكامه ، والتحلى بخلقه ، والعمل بشرعه ، نامياً بعلم الدين وعلم الدنيا فى غير ازدواج ، أو تضارب، أو وهن ، أو قصور ، نموا يتخطى به طفولته الذاكرة إلى رجولته المبكرة ، محمود الأقوال والفعال بين الرجال ، كما كان شأن الكثيرين من فتيان الأمس المشرق ، بما نأمل أن نستعيد آيته ونعمته بالقرآن الكريم لأبناء الغد المرتقب إن شاء الله .

بل أقول – بما يشهد به التاريخ – أن غير العرب من الذين حفظوا القرآن الكريم قد قوم القرآن المجيد من ألسنتهم إلى حد بعيد ، فاذهب كثيراً من عجمة مخارجها ، ولكنة نطقها ، وأضاف إليها بعض القدرة على معالجة العجز عن أداء بعض الحروف التى خص الله بها العربية مثل حرف العين والحاء والضاد .

. . .

السؤال الثالث :

" ما الذى تعرفه عن عيــوب طرق ومناهج تعليم اللغة العــربية السائدة حاليا فى جميع مراحل التعليم ، وحتى فى الكليات والأقسام المتخصصة فى الجامعات ؟

وما هى الطرق الراشدة فى نظرك للتعجيل بترشيد ودعم هــذه الطرق والمناهج لاحياء اللغة العربية فى حياة شعبنا المجاهد عن ذاته ومعتقداته وآماله ، انطلاقا من قدرته الكاملة على التعبير بلغته الفصحى : لغة الايمان ، والقرآن الكريم ، والتقدم والنصر ؟

الإجابة :

تتناول الإجابة عن هذا السؤال أمرين هامين هما :

الأول : عيوب المناهج والطرق السائدة لتعليم اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم ، ثم فى الكليات والأقسام المتخصصة لتخريج مدرسى هذه اللغة فى الجامعات .

الآخر : الطرق السديدة التى نرى أن يتم بها التعجيل بترشيد ودعم تعليم لغتنا القومية وهى اللغة العربية ، فى جميع مراحل التعليم حتى الجامعة .

العيوب المسيطرة على تعليم العربية :

لاشك أن السنوات الطوال التى عاشتها الأمة العربية مطوية على جراحها فى قبضة الاستعمار ، ثم وهى تحاول النهوض لإصلاح شأنها فى صحوتها الراهنة ، فى وجه الكثير من القوى الطامعة الزاحفة عليها من الشرق والغرب — لاشك أن هذه السنوات العجاف بامتداد زمن ليس بالقصير قد خلفت فى مجموعة قواها ومقوماتها بعض العلل والعاهات التى لاتزال تتهدد — ما لم نعجل بإصلاحها — سلامة عقيدتها وأخلاقها ولغتها ..

ولما كان حديثنا هنا بشأن لغتنا العربية التى لقيت من ضربات الأعداء ما تنهد له الجبال ، والتى لا تزال بفضل القرآن الكريم والإسلام تقاوم بصلابة إرادتها ، ونقاء معدنها ، ونضارة صوتها ، كل ما ظهر أو خفى من ضربات هؤلاء الأعداء ، فإن البداية فى إحصاء هذه العيوب التى لا تزال تسيطر على طرق ومناهج تعليم هذه اللغة فى جميع مراحل التعليم من الطفولة حتى الشباب ، ومن الابتدائى حتى الجامعة ، هى أن نشير إلى أننا لا نزال نحسن الظن بهذه الطرق والمناهج بينما هى فى معظم أمرها تراث من عملوا جهدهم فى إبان حكمهم لنا على القضاء على هذه اللغة التى هى فى انبعاثها للحياة السوية لا تعنى أقل من وحدة أجزاء هذه الأمة العربية ، لتعود بهذه الوحدة حول مقوماتها فتربط بين ماضيها المجيد باتجاه العبور إلى غدها المشرق .

هجر القرآن الكريم :

وليس غريبا — بعد ما أفضنا فى بيانه من قبل — أن تكون محصلة كل الطرق غير الصحيحة تربوياً وتعليمياً فى تعليم اللغة العربية هى

الانتهاء بهذه الأمة بكل شعوبها إلى هجر القرآن الكريم ، بينما هو قائم ظاهر يتلى بين أبنائها صباح مساء . كما أننا لو عكسنا تناول هذه القضية فقلنا إن محصلة ما فعله أعداء الأمة العربية من تنحية القرآن الكريم عن أن يكون كما كان طوال القرون الماضية هو ركيزة التعليم الأولى والمستقرة للنشء منذ بداية قدرتهم على الكلام — لو قلنا إن محصلة التنحية لكتاب الله عن موضعه السليم من الاستهلال والاستمرار به فى جميع مراحل التعليم هى هذه الطرق غير السليمة تربوياً وتعليمياً فى تعليم اللغة العربية ، ما ابتعدنا بذلك عن الصواب فى حقيقة الأمر الواقع .

لقد أشرنا من قبل إلى أن القرآن الكريم هو المربى والمعلم الأمين لمخارج الحروف العربية ، والأداء الصوتى للسانها ، وأن الطفل سعيد الحظ الذى يبدأ مرحلة إشراق العلم فى حياته من أفق القرآن الكريم هو الذى يتيسر له مع هذه الضوابط المبكرة للنطق ، ومخارج الحروف ، والترتيل السليم للآيات ، أن يستوعب فى ذاكرته ، وأن يجمع منذ سنوات طفولته الأولى عدداً كبيراً من الألفاظ ، الصحيحة الأداء الصوتى والبيان المعنوى — والتى تسهم إسهاماً حيوياً وفعالا فى تكوين قاموسه اللغوى .

ومن هنا ندرك مدى الخسارة التى تصيب أطفالنا ، وعاهات اللكنة التى تنشأ بها ألسنتهم ، من جراء الإستمرار فى الإجراء المجحف الذى تقرر به تحت عناوين براقة وغير جدية إبعاد حفظ القرآن الكريم عن منهج تربية الطفل . ليكون نصيبه الذى لا يحفظ عليه أوده اللغوى والقومى والدينى عدة سور قصار ، أو بعض آيات متفرقات ، يؤديها المدرس أمامه أداء غير سليم ، ونتيجة لذلك فإن هذا القدر الذى لا يكاد يتبلغ به من نور كتاب الله لا يصل إليه خاليا من الخطأ والعيوب الصوتية التى

تبقى عالقة بذاكرة الطفل ، حتى وإن صعد سلم التعليم إلى درجاته العليا ، وأصبح أستاذاً فى الجامعة يلحن ، أو علما من أعلام الإعلام يلحن .. ولا بأس عليه ! !

هذا بينما نجد كثيرا من الناس ممن كان مبلغ حظهم من العلم والثقافة أنهم حفظوا القرآن الكريم فحسب ، أى لم يفقهوا كثيراً من معانيه ، ومع ذلك فإن ألسنتهم فى النطق تبدو أكثر استقامة من كثير من المثقفين ، فكيف لو أنهم نالوا حظهم الذى حرموه من العلم والثقافة ، فأضاءت فى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم إشراقة اللسان العربى السوى !

دور الحضانة :

وعندما نبدأ سلم التعليم من أوله تواجهنا من عيوب افتقاده للخطة الموحدة ، والمحددة ، والمنهج السليم والقويم ، حرمان الأطفال إلا قلة قليلة جداً من مرحلة منتظمة ، ومعممة فى جميع المدن والقرى ، هى هذه المرحلة التى تعرفها الدول المتقدمة فى هذا العصر باسم « رياض الأطفال » وتهتم بالأطفال من السنة الأولى حتى السنة الثالثة ، وتليها مرحلة « حدائق الأطفال » وتهتم بالأطفال من السنة الثالثة حتى السنة السادسة .

هذه المرحلة التى يجمعها الآن فى العالم المتقدم – وبخاصة بعد أن التحق أكثر الأمهات بالعمل خارج البيت مثل أزواجهم – اسم « دور الحضانة » هى فى هذا العالم المؤثر بثقله وعلومه وصناعاته على عالمنا الذى نسميه تلطفا بالدول النامية – هى أهم وأخطر مراحل التعليم التى تعطيها الدول الشرقية والغربية على السواء أعظم الاهتمام ، من حيث

أنها تراها المرحلة التى تغرس فيها الدولة فى أطفالها ، فى أفضل مراحل حياتهم للتقبل والتشكل ، عقيدتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . أى أنها تغرس فى قابلياتهم وأشواق طفولتهم ما هو « الدين » لهذه الدولة أو تلك ، ولهذا المجتمع أو ذاك ..

إن هذه الدول فى الشرق والغرب لا تدع أطفالها مطلقاً — كما أصبحنا ندعهم — فى هذه المرحلة ، بل إنها على العكس تدرب لهم المعلمين والمعلمات الذين لهم صبغة المسئولية الأعظم عن مستقبل الأمة فى تصنيعهم داخل هذه الحضانات لمعتقدات وسلوكيات وأهداف الأجيال الصاعدة من هذه البداية الأولى فى سنوات الطفولة ، أى من السنة الأولى حتى السادسة .

إن هذه الشعوب المتقدمة عنا بقوة علومها وصناعاتها ، وبوضوح معتقداتها وأهدافها ، تعنى وياللعجب من هذه السن المبكرة بأن تعد الطفل فى دار الحضانة لهذا الوعى المتدرج لأساسيات عقيدة الدولة والمجتمع ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ابتداء من تربيته بأحدث الوسائل التربوية لتحقيق هذين الهدفين بنسبة سنه .

أولا — أن يتكلم بطلاقة .. وذلك بغرس جذور لغته فى واعيته وتحبيبها إليه .

ثانيا — أن يشعر بشخصيته من خلال طلاقة لسانه ، وذلك حتى يتحرر من أى شعور بالقسر بينما هو يوضع باختياره فى القالب الذى حببه إليه المسئولون عنه ..

وبعد .. أو ليس هذا — والقياس مع الفارق — هو الكتاب نفسه الذى تخرج منه بحفظ القرآن الكريم ، الملايين ، والأفذاذ ، من الذين تلقوا

على يدى الشيخ البسيط ، وفوق الأرض الجرداء ، فى غرفة من اللبنات الساذجة ، وبعيداً عن أية وسائل تربوية حديثة ، أو أية رعاية تربوية مبرمجة حسب قانون ونظام الدولة — تلقوا أمانة حفظ القرآن الكريم ، أو أكثر سوره ، هذا الحفظ الذى حفظ لكل طفل عادى منهم فضلا عن نوابغهم :

١ — هذاالارتباط الوثيق بالإسلام ، الذى هو مصدر قواعد ومبادئ سلوكنا الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .

٢ — هذا الأداء الصوتى السليم للغة العربية الفصحى ، فى نطقها ، ومخارج حروفها .

٣ — هذا التكامل والوضوح لشخصية هذا الطفل ، حافظ الكثير من القرآن الكريم ، بوصفه كتاب الدين والحياة .. كتاب الدنيا والآخرة .

لقد ألغينا إذن هذه « الكتاتيب » فى القرية ، بعد أن كان صوت القرآن الكريم ، وصوت الأداء الصحيح للسانه العربى ، يرتفعان منها إلى مراحل التعليم المتتابعة ، ليحفظا بهذه المراحل قوة الإلتزام بالدين الصحيح ، وصحة الأداء الصوتى للغة الفصحى . لقد ألغينا هذه « الكتاتيب » المغفور لها ولخريجيها ، ولم ننشئ بديلا لها مع موجة الاستحداث العصرى دوراً لحضانة تقوم — كما نراها إلى اليوم تقوم فى العالم المتقدم بشطريه — على حفظ القرآن الكريم من سنوات الطفولة الأولى ، مع ربط حفظه بسلامة النطق بالعربية الفصحى ، وبتحرر الشخصية من القسر فى أمن الإيمان وطلاقة اللسان ، وبتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وبتنشيط القابليات العلمية والصناعية والأدبية بوسائل وتشويقات تربوية ناجحة .



ومعنى هذا أن قرار إلغاء الكتاتيب ، دون إنشاء دور للحضانة تحل محلها فى الرعاية القرآنية واللغوية للطفل ، كان قراراً ظالماً ، وعشوائياً ، ولم يكن من هدف له غير استحداث هذه المناهج وطرق التعليم الاجتهادية ، والقشورية ، التى تضيع بها أصالة الشعب ، وتنهار بها مقوماته ، وتغترب فى تيه الأفكار المستوردة حقيقته وذاته ..

على أن الأشد إيلاماً أن نجد أحياناً بعض دور الحضانة الخاصة ببعض الهيئات ، أو المصانع .. فلماذا أقيمت هذه الحضانات .. ومن من أصحاب النظر النافذ ألقى بنظره إلى أهدافها .. وإلى ما يلقاه الطفل من الرعاية التربوية بها .. ليكتشف العيب .. واللهو الغافل .. وجريمة الوأد للطفل الحى .. الوأد لكل قابليات الخير فيه .. !

لقد نشأت هذه الدور الخاصة للحضانة لتحقيق هدف واحد فقط فرضه اشتغال عدد من الأمهات بالأعمال المنتظمة خارج البيت .. فإلى أين تذهب بطفلها وقد يكون أقرباؤها على مبعدة منها .. ويظهر الحل السعيد .. فحيث تستطيع هيئة خاصة أن توفر للعاملين والعاملات بها داراً للحضانة يصبح من اليسير وجود هذا المكان المأمون الذى يتم فيه « تخزين » الطفل أو الطفلة ، مع فترة ترفيه رائعة بالمراجيح وأمثالها ، تحت رعاية السيدة الشغالة ، التى لا يهمها من الأمر أكثر من « حفظ النظام » و « فض المنازعات » .. إلى أن يتم تسليم الأمانة .. أى الطفل الذى قضى أهم فترات عمره « يتشقلب » و « يتأرجح » وينقل ثروة من « السباب الحديث » من هنا وهناك .. حتى تأتى أمه فتضمه سعيدة إلى صدرها وتذهب به إلى البيت .. ليأكل .. ويلعب من جديد .. بغير أى وجهة .. حتى فى اللعب ! !

أليس هذا عيبا قاسيا من عيوب الخطط والمناهج السائدة فى نظمنا التعليمية ، يبدأ بإغفال ما لا يغفل عنه شعب متقدم وهو تعليم اللغة القومية ، أى تعليم لغتنا العربية ، التى أتيح لنا دون العالمين أن يربطها كتاب حكيم ، وقرآن كريم ، بقدرتها على تنشئة الإنسان السوى ، منذ الطفولة الباكرة ، دونما عنت ، أو عسر ، أو انفصام ؟

وأليس من العجيب حقا أن لا تعمم هذه الحضانات بعد أن تحدد لها الدولة الخطة السليمة التى تجعل منها الدعامة المستقرة التى تنمو عليها وتزدهر كل مراحل التعليم ؟

وماذا يكلفنا من الجهد أن نسترجع الصواب بتعميم دور الحضانات بوصفها « الكتاتيب » العصرية ، التى نضيف إلى العاملين بها على ترفيه الأطفال ترفيها هادفا لتربية قابلياتهم وقدراتهم العلمية ، والصناعية والأدبية مدرس متخصص ، عالم بالدين ، حافظ لكتاب الله ، مؤمن بسياسة الدولة فى توحيد خطتها التعليمية ، وتشييد جميع مراحل التعليم بهذه الخطة على أساس « الأصالة والعصرية » ، أى على أساس الدين والقرآن واللغة الفصحى . وبذلك فإن هذا العالم الشيخ الحافظ لكتاب الله ، قادر فى فترة ساعتين كل يوم على أن ينمى فى أطفال الحضانة من البداية كل ما ينزعون بفطرتهم إلى تنميته قبل ضياع هذه السنوات المشرقة بطفولتها ، وصدق تطلعاتها ، فيأخذهم على حفظ ما يتيسر لهم من القرآن الكريم ، وعلى تعليمهم القراءة والكتابة من واقع صغار السور التى يبدأون بحفظها ، ومع ما يعمل على تحقيقه بينهم من تحرير شخصياتهم من الخوف ، أو القسر ، أو الخرافة ، أو العدوان ، لينشأوا فى ظل القرآن الكريم آمنين ، طيبين ، طامحين ، متفتحين لغدهم ،

ومستبينين لطريقهم : طريق الإيمان ، والعلم ، والحب ، والعمل الصالح ، والإيثار ..

المدارس الخاصة :

كذلك تظهر من الأخطار على أطفالنا فى أعمارهم المبكرة هذه المدارس الخاصة التى تدير أكثرها جهات أجنبية تبشيرية صريحة ، ففى هذه المدارس تكون الدعاية الأولى عنها هى التحبيب للوضع المقلوب قومياً ، أى التحبيب فى تعليم الأطفال العرب لغة أجنبية أساسية منذ البداية ، فهذه اللغة الأجنبية كما هو سائد فى البلاد التى قدم منها أصحاب هذه المدارس التبشيرية الخاصة لا يمكن أن يبدأ فى تعليمها مطلقاً للأطفال ، وذلك لما هو ثابت بالعقل والتجربة أن الطفل لابد له من أن يعطى بإرشاد مدرسه الأمين كل قابلياته وقدراته ليتعلم لغته القومية أولا ..

إن وجود هذه المدارس الخاصة ، مهما قيل من إشراف وزارة التربية والتعليم عليها ، يؤثر تربوياً ووطنياً على من يتلقون تعليمهم بها من الأطفال المسلمين منذ السنوات المبكرة . حيث يعيشون فى جو غريب عن جو بلادهم ، مهما ساده من مظهر النظام والانضباط ، وإنها لمسئولية تفتقد من يتدارك الواجبات الوطنية تجاهها ، ويدافع عنها ، لتحرير هؤلاء الأطفال من سموم هذه الدعاية الموجهة لأهمية التضلع فى اللغات الأجنبية على حساب ضياع اللغة العربية القومية تماماً ، وقبل تمكن الطفل من أن يتكلم لغة دينه وآبائه وأجداده بطلاقة .. وليس قبل !

ومن المؤسف أيضا – على كثرة ما نأسف له – أن هذه المدارس المصرة على سياستها التبشيرية وبخاصة تجاه اللغات الأجنبية على حساب

اللغة القومية ، لم تعد مقصورة على الأثرياء والمترفين السابقين الذين عاشوا متعلقين بمصالحهم مع الاستعمار ، ومع الأجانب الذين جلبهم ، قبل تحررنا منه ، بل إن عدداً من أبناء الشعب ، وحتى من العمال الذين تحسنت أحوالهم ، وارتفعت دخولهم ، أغرتهم دعاية هذه المدارس التبشيرية الأجنبية فألحقوا أبناءهم بها ، أملا فيما يحققه التفوق فى اللغات الأجنبية من احتمالات أفضل للعمل ، غافلين عما يصيب أبناءهم من الاغتراب الخطر تجاه جذورهم فى الوطن ، ومقوماتهم فى التاريخ ، وعلى الرغم من شحوب لسانهم القومى ، وركاكته ، وما قد يتبع ذلك من فقدان مفاجئ لقوة الانتماء ، فيكون السفر إلى الخارج ، ثم الإستيطان هناك والانقطاع عن الوطن .. وقد يكون بقاء عليل بهذه المشاعر المغتربة داخل إنسان ظلم أهله طفولته فتركوا إنساناً أجنبياً يتقمصه من داخله ، فى مجرى أصوات وتراكيب وطبائع تلك اللغة الأجنبية التى أصبحت تحتل الفراغ المعد للغته القومية العربية التى لا تعدلها لغة أخرى ، ويكفى أنها لغته التى تربطه بماضيه ، وتنميه فى حاضره ، وتزكيه إلى مستقبله .. أو لا يستحق هذا العيب ، الذى يتمثل فيه عدوان صارخ وسافر على لغة شعب ، فوق أرضه ، وتجاه فلذات الأكباد من أبنائه ، أن نراجع أنفسنا لإصلاحه .. مبادرين إلى ذلك فى غير أناة ولا تردد ، ومن خلال ما نحن أحوج إليه من « تصحيحات » دولتنا المؤمنة فى مجال تربية الأجيال المؤمنة ، المكتملة الشخصية ، والناطقة بطلاقة بأصوات لغتها الفصحى ، بما لا يمنع على أساس هذه الفصحى أن نتعلم ونتقن بعد ذلك كل ما مست الحاجة إلى تعلمه من اللغات الأخرى ..! ؟

المرحلة الإبتدائية :

لهذا .. ومن شبه الفراغ المحزن والغريب من هذه المرحلة الحيوية للتأصيل التربوى الهادف إلى تعليم اللغة ، وتكوين الشخصية ، فى سنوات الطفولة الأولى قبل السابعة ، فإننا نواجه مرحلة التعليم الابتدائى وهى بعيدة تماماً عن المناخ اللغوى السليم ، وعن معالم الشخصية الواضحة التى تعبر عن استناد تلميذ الإبتدائى إلى دعائم تربوية ولغوية فى مرحلة سابقة ..

إن اللهجة العامية هى اللغة السائدة فى المرحلة الابتدائية ، وكأنما هى الأقرب فى تصور المشرفين على هذه المرحلة إلى مداركه ، وإلى سهولة التأثير عليه ، لأنها لغة المنزل ، والشارع . وبهذا التصرف غير السليم تربوياً وقومياً لا يعنى أقل من أن المدرسة تسهم بغير اكتراث ، وبغير منهج سليم ، فى عجمة الطفل، ومسخ لسانه ، ودفعه دفعات إلى الوراء ليغترب عن ذاته وحقيقته ، باغترابه من طريق العامية عن مصدر دينه ولغته فى القرآن ، وعن تراثه وأصالته وتاريخه .

هذا ما تؤكده المشاهدة والتجربة ، وما تقطع به حقيقة بقاء اللغة العربية حية إلى اليوم منذ آلاف السنين ، إن اللغة الفصيحة ميسرة التعلم ، مع بساطة ألفاظها ، وصحة بنيتها ، وأنه من الممكن تعليمها للطفل فى المرحلة الإبتدائية إذا ما تكرر سماعه لها وهى تؤدى أداء سليما من جميع المدرسين ، ومن ناظر المدرسة ، ومن الإذاعة المدرسية ، وهذا هو الاتجاه السليم الذى ينبغى توجيه المدارس الابتدائية إليه ، بحيث يشمل استعمال اللغة الفصيحة جميع مواد الدراسة ، والأنشطة المدرسية ، وليس دروس اللغة العربية وحدها .

الإعدادى والثانوى :

وعندما ننتقل إلى مناهج اللغة العربية فى المرحلتين الإعدادية والثانوية نجد أنها تتناول فى الوقت الحاضر التعبير ، والقراءة ، والقراعد ، والنصوص الأدبية .

أما التعبير فمهمته فى هذه المناهج أن يدرب الطالب على أن يحسن الإبانة عن أفكاره ومشاعره بعبارة سليمة .

وأما القراءة الجهرية فمهمتها تعويد الطالب على النطق السليم ، والأداء الصحيح للجمل والكلمات ، بينما هدف القراءة الصامتة إستيعاب الأفكار المقروءة .

وأما القواعد التى يشملها علم النحو فواضح أن هدفها صيانة اللسان من اللحن ، على حين أن النصوص مهمتها إمداد الطالب بثروة من مأثورات الأدب الجيدة العبارة والمعنى ، وذلك من أجل تربية الذوق الأدبى عنده ، وتنمية ملكاته البلاغية إن كانت لديه .

والمناهج بهذا التحديد فى المرحلتين الإعدادية والثانوية تعد اللغة العربية مادة يمكن تعلمها من غير تدريب على وعى الصحيح من لسانها وكلامها ، وعلى الإلتزام بهذا الصحيح فى كلام الطالب ونطقه وأدائه ، سواء وهو يقرأ فى الكتب المدرسية التى بين يديه ، أو وهو يمارس التعبير عن نفسه وأفكاره مع مدرسيه ، وزملائه بتوجيه من مدرسيه .

ذلك أن اللغة العربية فى أسباب ازدهارها أداء وممارسة ، وتدريب على النطق الصحيح ، وتزود بالآيات الكثيرة من القرآن الكريم الذى هو المثل الأعلى للبيان العربى ، كما أنه المصدر والتفسير لحاجتنا إلى اللغة العربية ، نحسن تعلمها ، ونطقها ، وفهمها ، حتى نفهم ونتدبر

كتاب الله الذى يدعونا الله به لنبنى على شرعه مجتمع المؤمنين ، ونحيا بأخلاقه حياة المتقين المحسنين .

كذلك فقد كان مما ينقص المنهج السائد فى المرحلتين الإعدادية والثانوية لتعليم اللغة العربية نقص المعروض على الطلبة من عيون الشعر العربى ، ومن الحكمة والأمثال وروائع الخطب التى كان لكلماتها أثر باق فى أحداث التاريخ القديم ، وذلك ليحفظه الطلبة ، ويعتنوا بفهمه والتقبل له .

على أن أبرز عيوب هذا المنهج زيادة عن قصوره فى طريقة تدريسه أن مدرس اللغة العربية ليس أسوة حسنة لتلامذته وذلك باستخدامه للعامية ، وفى تصوره أن واجبه فى تعليم اللغة العربية قاصر على ترديد المعلومات التى يجدها أمامه فى كتب التلميذ ، دون أية محاولة منه لبعث الحياة فى النصوص المقروءة ، بتنشيط الإلتزام بصحة قراءتها ، وصحة نطقها ، وصحة فهمها مع مشاركته للتلميذ فى جدية هذا الالتزام بالصواب ، وذلك بأن يحافظ على العبارة الفصيحة فى جميع مواقفه من الدرس ، وفى جميع فروع مادة اللغة ..

الأسرة والمجتمع :

ومعنى هذا أن طالب الإعدادى والثانوى يفتقد كل منهما بالتتابع هذا المناخ الدراسى الملائم له على تنمية لغته فى لسانه ووعيه ، وعلى النمو بها فى إدراكه وسلوكه ، شأن أخيه الأصغر فى المرحلة الابتدائية ، وكأن اللغة العربية مادة لا تعنى أحداً من مدرسى المدرسة جميعا ، حتى مدرسها ، إلا بهذا القدر الضرورى الذى لا يغير من واقع العاهة العامية

فى لسان التلميذ شيئاً ، بل إنه ينتهى من مرحلة التعليم الثانوى بلغة عجيبة ركيكة مهجنة ، لا هى عامية دارجة ، ولا هى عربية فصيحة ..

ومما يضاعف من محنة هؤلاء التلاميذ الذين يقطعون أزهى سنوات عمرهم بعيداً عن تحقيق أسمى الأهداف من تعليمهم، وعلى رأس هذه الأهداف جميعاً إتقان لغتهم العربية . إنهم يفتقدون نعمة الاستماع إلى اللغة الفصيحة داخل حياتهم المنزلية مع آبائهم وأمهاتهم ، وفى الشارع ، بل وفى أجهزة الإعلام على تنوعها ، والتى لا تزال توسع من رقعة العامية فى « إعلامها » سواء فى الصحف ، أو فى الإذاعة ، أو فى أجهزة البث المصور « التليفزيون » .. وأما عما يجرى فى المسارح ودور السينما من التدنى والهبوط إلى حد استعمال العامية فى ترويج الانحراف الأخلاقى ، والتشجيع عليه .. فهذا من البلاء الذى نسأل الله أن يعجل بالصحوة الراشدة للقضاء عليه ، والتطهر منه ، لصالح هذه الأجيال البريئة ، والصالحة بفطرتها ، والتى تحتاجها بلادنا قوية ، ومؤمنة ، وقادرة بإيمانها وعلمها ، وعملها ، على أن تحمل أعباء الغد ، وأن تحسن تحقيق آمال الشعب فى هذا الغد القريب .. والبعيد .

من أجل هذا يتكرر نداؤنا بتعميم حفظ القرآن الكريم ، منذ السنوات الأولى لحضانة الأطفال ، باعتباره أنه أقوم وأصح وأسرع وأبقى الوسائل لتعليم اللغة العربية بأدائها السليم . إنه بتعميم حفظ القرآن الكريم فى جميع مراحل التعليم ، وحيث ينبغى أن يفتح الطفل فى بلادنا العربية على نور الشمس ونور الوحى معا ، ليتعلم كيف يسمع الأحرف ، وكيف يجمعها ، وكيف ينطق بها فى كلمة حية صحيحة ، ثم كيف يرتلها فى آية كريمة مبينة .. إنه بتحفيظ القرآن الكريم بهذا الهدف التربوى الدينى اللغوى الشمولى يتيسر أن نجعل لغتنا العربية — كما يقول الأستاذ

عمر الدسوقى فى كتابه « لغتنا القومية » — تدوى فى آذان الناشئة ، يسمعونها صباح مساء . كما يكون من الميسور أن نجعل تدريس جميع المواد فى جميع مراحل التعليم وحتى الجامعة باللغة العربية الفصحى ، وبذلك لن يمر جيل واحد إلا واللغة العربية الفصيحة تجرى بعذوبتها ، ومعانيها ، وأخلاقياتها ، وجاذبية القربى والتراحم فى أصواتها ، وأوزانها .. فأى تغيير نحو مجتمع الإيمان والعلم والحب والوحدة يكون قد تحقق بهذه الآية الكبرى !

مشكلة القواعد :

هذا ومن العيوب السائدة فى طرق تعليم اللغة العربية ونوعية الاختيار والتدريس لمناهجها مشكلة قواعد اللغة التى يهرب منها الطلاب فى المرحلتين الإعدادية والثانوية ، وذلك لأنه لم يدرب المدرس الكفء القادر على تيسيرها وتوصيلها إليهم بالطريقة التربوية السليمة منذ المرحلة الابتدائية الأولى ، فأصبحت فى نظرهم طلسمات جامدة لا تكاد تفهم ، فأعرضوا عنها ، مكتفين بتحصيل ما يحصلونه من فروع اللغة الأخرى .

ومما ساعد على إهمال الطلاب للقواعد — غير العسر فى طريقة تدريسها — أنهم يرون فى الإجابة عن أسئلة القراءة والنصوص وهى ميسرة بسهولة مناهجها ، وضعف مستوى اختيارها ، ما يغنيهم عن تحمل أعباء دراسة قواعد النحو .

ولقد فات المسئولون عن تعليم اللغة ، وعن مدرسيها ، أننا لو عودنا الطالب النطق السليم فى درس القراءة ، وحفظ النصوص ، لحققنا الجانب الأكبر من درس القواعد ، إذ لا يبقى بعد النطق الجيد والسليم

إلا أن يشرح المدرس لطلابه فى مجال النصوص والقراءة قواعد الرفع والنصب والجر لأواخر الكلمات ، وهى المعروفة باسم الإعراب .

كما يستطيع المدرس الكفء فى هذا المجال نفسه ، ومع اعتياد النطق الصحيح ، والفهم السليم ، أن يتكلم مع طلابه من صميم درس القواعد عن تكوين الجملة ، وعن نظمها ، وعما يلحق بذلك من بعض القواعد التصريفية فى الجمود والاشتقاق ، فى التجرد والزيادة ، وفى التذكير والتأنيث ، وفى الإفراد والتثنية والجمع ، والتصغير والنسب . كما يستطيع وهو يتخذ من شواهد النصوص والقراءة بيانا عملياً لحركة هذه القواعد فى إقامة أركان اللغة أن يتحدث عن تصريفات الأفعال ، وعن ارتباط الفعل بالزمن ، والبناء للمعلوم أو المجهول ، وعن التعدى واللزوم ، والصحة والاعتلال ، وعن الإسناد للضمائر .

ومن هنا يتأكد أن المشكلة فى الضعف العام بين طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية فى القواعد النحوية يرجع إلى بداية الضعف فى التكوين اللغوى من المرحلة الأولى ، كما يرجع إلى إهمال الأسلوب الأقوم لتدريسها ، وإهمال العناية بها عند تدريس الفروع الأخرى للغة العربية .

دراسة البلاغة :

وإذا كانت البلاغة هى الغاية المنشودة من تدريس كل فروع اللغة العربية فإن هذه البلاغة تعتمد أساساً على الذوق السليم . وسلامة الذوق ترجع إلى خبرة واسعة بالأدب العربى شعراً ونثراً ، وإلى الوقوف باطلاع واسع ، ونظر شامل ، على فنون القول التى طرقها

العرب من قديم ، أى من أقدم ما وصل إلينا من عصور الرواية للشعر والحكمة والمثل عند العرب .

ولم يكن حفظ هذا التراث ، وروايته ، ونقده نقداً سلبيا ، أو الاعتزاز به إعتزازاً مستنيراً من خصائص الرواة والشعراء وحدهم ، بل لقد كانت القدرة على تمييز الحسن والحفظ له ، والازورار عن النابى والاسقاط له ، شاملة لكل العرب بدواً وحضراً فى عصور إشعاع ثقافتهم اللغوية والأدبية قبل الإسلام ، وحضارتهم الدينية والقرآنية بعد الإسلام ، وكان هذا الشمول يمتد فى العصر الأول من الحضارة العربية الإسلامية فيشمل الرعاة والولاة ، والعلماء والخلفاء . .

ومما يقصه علينا الرواة من هذا الشأن أن عبد الملك بن مروان لما سمع الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات يقول فى مدحه :

يتَألَّقُ التَّاجُ فَوْقَ مفْرقه   على جبينٍ كأنَّهُ الذَّهب

فقال له منكراً عليه هذا التشبيه : إنما شبهتنى بملوك الأعاجم ، وما بهذا يمتدح العرب !!

ثم أضاف قوله إليه فى فطنة المتذوق لطرق القول ، وضروب الشعر ، ودرجات البلاغة :

« هلا قلت عنى مثل ما قلته فى مصعب بن الزبير :

إنما مصعبٌ شهاب منَ الله   تَجَلَّتْ عنْ وَجْههِ الظَّلْمَاءُ

مُلكُهُ مُلْكُ قوة ليس فيه   جبروت ولا به كبرياءُ

إن هؤلاء ورثة من استيقنوا بفصاحة لسانهم العربى الذى نزل به

الوحى أن القرآن من عند الله فاستجابوا به لله وللرسول ، وآمنوا وأسلموا ، وأقاموا دولة الدين الحق ، ومجتمع المؤمنين ..

ونحن الآن وقد ورثنا قواعد البلاغة عن هذا السلف الصالح بعد أن تدخل فى تقعيد قواعدها فى صور جامدة وخامدة ، عدد من علماء الأعاجم مثل السكاكى ، والرمانى ، والخطيب ، وعبد القاهر الجرجانى وبعد أن أقحموا على هذه القواعد قوالب المنطق والفلسفة اليونانية ، وإن كان عبد القاهر قد عنى أكبر من سابقيه بمنهج التذوق ، مستفيداً من خبرة العرب عدداً من المقاييس التى وضعها لجمال النظم لم يسبقه رفاقه إليها ..

هذه القواعد البلاغية الاجتهادية نقوم بتلقينها لطلابنا ، فيحفظون جيداً قواعد التشبيه ، والاستعارة ، والكناية . وبسرعة فائقة يستخرجها الطالب من النصوص الأدبية ، ولكن عندما نستوقفه لنسأله عن النواحى الجمالية فى نص من النصوص ، وعن قيمة الاستعارة أو التشبيه والكناية فيه — يتوقف تماماً ، ويبدو أن كل ما تلقنه من علوم البلاغة وقواعدها لم يكن إلا قوالب صماء .

ونتيجة لذلك لا تتحقق الفائدة المستهدفة أساساً من دروس المقاييس البلاغية لأن المفروض أن يعرف هذه المقاييس من خلال تجربتها فى ثروة وحصيلة أدبية كبيرة ، حتى يستطيع بذلك أن يهضمها ، وأن يوفق بهضمها واستيعابها إلى تطبيقها فى حديثه ، وفى كتابته ، الأمر الذى يفتقده الطلاب فى هاتين المرحلتين تماماً .

ومعنى هذا أن نصيب المقاييس البلاغية فى خلق الذوق البلاغى بين طلاب العلم فى مراحل التعليم الوسطى ، هو كنصيب القواعد النحوية

من القصور بأسلوب تدريسها الراهن عن تقويم لسانه ، وإلزامه بالفهم ، والتدرب ، والاعتياد ، جادة اللغة الفصحى .

المستوى الجامعي :

منذ قرون طويلة كان الأزهر فى مصر قائماً على أمر اللغة العربية ، والدراسات الإسلامية ، وظل له هذا السلطان ، بل إن سلطانه قد تأكد فى عصور سيطر فيها الضعف والتخلف على مصر والوطن العربى ، حيث لم تبق من منارة للعلم والثقافة العربية الإسلامية فى هذا الوطن الكبير إلا حيث الأزهر فى مصر ، وحيث تتناثر بعض المساجد التى تواصل رسالة التعليم الإسلامى ، مع بعض الكتاتيب المنبثة فى القرى والمدن تجاهد بتحفيظ القرآن الكريم .

ولقد استمر ذلك الظلام الكثيف عدة قرون هى جانب من عصر المماليك ، مع عصر العثمانيين بأكمله ..

وهذا الأثر العلمى الذى كان للأزهر فى هذه الفترة وإن كان ضئيلا إلا أنه وسط تلك الظلمات المطبقة كان علامة حياة ، وإصراراً على الحياة ، فلقد استطاع برغم كل شىء أن يحتفظ بقدرة اللغة العربية على البقاء ، وأن يحافظ على القرآن الكريم مصدراً لبقائها ، ونوراً لشعلتها ، التى ظلت بجهد الأزهر فى تلك القرون العصيبة مضيئة وإن لم تكن واسعة الإشراق والإشعاع . .

وفى بداية القرن التاسع عشر ظهرت بوادر نهضة جديدة فى صورة حركة تعليمية واسعة نبتت فى الأزهر أيضاً ، وكان باعثها محمد على لا يقصد بها تعزيز حق العرب فى العلم والتعلم ، بقدر ما كان يقصد

أساساً إلى بناء جيش من أبناء مصر العربية يحقق به طموحه وأطماعه ، فكان لزاماً أن يبعث بحركته التعليمية التى استفادت منها اللغة العربية طوال حركة بناء الجيش .

ثم تأسست دار العلوم فى عهد إسماعيل ، وقام عليها على مبارك ، الذى عزز بمناهج هذه الدار رسالة الأزهر اللغوية والإسلامية ، مع توســعه فى تغذية منابع تعليم اللغة العربية ، والتمكين من تذوقها ، والكشف عن خصائص بلاغتها ، فى منهجه لإعداد المدرس الصالح لها وذلك بالعناية التى وجهها إلى الدراسة الأدبية والنقدية ، وبهذا الأساس الذى أرساه بزيادة الاهتمام بدراسة الشعر العربى القديم قبل الإسلام ، مع متابعة الحديث من أدب العصر لمناقشته والحكم عليه .

وفى أوائل القرن العشرين ، مع احتدام المواجهة مع الفصائل التى جندها الاستعمار لتقويض مقومات اللغة والدين والانتماء القومى العربى ، كان الأزهر ودار العلوم قد أنضجا معاً بثقافة عربية إسلامية أساسها المتين هو القرآن الكريم عدداً وافراً من المفكرين والأدباء والصحفيين الذين كان أثرهم واضحاً فى الانتصار لهذه المقومات ، فى حركة غنية بالمؤلفات الجيدة ، والحوارات البليغة ، تم بها الصمود والردع لأصحاب هذه التيارات التى استهدفت – على طبيعة الاستعمار – القضاء على اللغة العربية . .

ثم أنشىء قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، وكانت رسالته – وقد أنشىء ردا على هزيمة التيارات الوافدة فى المرحلة السابقة – إنشاء مركز لتخريج أجيال جديدة من معلمى اللغة العربية ، تتجه أفكارها – تحت شعار حرية الجامعة – إلى الإشادة بأقوال المستشرقين المعادية لتراثنا ،

مع قلة اكتراث بدراسة النحو ، فإذا أضفنا لذلك أن الطالب بهذا القسم ليس له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، كان معنى ذلك أن خريج هذا القسم يتم إعداده بمحتوى واتجاه غربى فى فهم اللغة العربية التى لايحسن الأداء الصوتى للسانها ، بينما هو فى ظاهره دارس متخصص فى اللغة العربية ! .

ومن المؤسف أن يكون قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعات هو القدوة التى انتزعت إلى محاكاتها مناهج كلية اللغة العربية بالأزهر ، ومناهج كلية دار العلوم ، فالجميع فى هذا العصر لا نكاد نجد بينهم من يحفظ القرآن الكريم ، وتلك ولا شك قاصمة الظهر لكل دارس لغـــوى . .

إن الطالب فى معاهد اللغة العربية على تنوعها يتشابه مع أخيه فى أنه يدرس علوماً شتى لغوية وغير لغوية ، ثم يتخرج بأمشاج من الثقافات المتباينة ، حول إلمام هزيل وضئيل بلغته العربية التى يراد إعداده ليكون مدرساً وأستاذاً لها ، أما نطقه لهذه اللغة فهو أكثر ضآلة وهزالا ، وهكذا فإن حال الخريجين من هذه المعاهد والكليات المتخصصة فى إعداد معلم اللغة العربية هو فى حد ذاته شاهد أمين على عقم المناهج وطرق الإعداد النفسى والتربوى والعلمى بهذه المعاهد .

بل إننا نجد أحياناً ما هو أغرب من ذلك فى أحوال من يتقدمون لنيل الأجازات العليا فى اللغة العربية ، ورسائلهم فيها هى قمة التخصص ، وذلك حين نجدهم أمام لجان المناقشة لرسائلهم يتحدثون بالعامية ، أو يهربون إليها أحياناً ، كما نسمع منهم فى لحظات التزامهم

بالفصحى ألواناً من اللحن يتنزه عنها الدارس المبتدى فضلا عن الباحث المنتهى . .

إن الأمر ولا شك بكل هذه الظواهر من العقم والتجمد والتخلف فى طرق ومناهج تعليم اللغة العربية بجميع مراحل التعليم تحتاج إلى إصلاح جذرى ، فضلا عن ضرورة ملء الفراغ الذى كانت تشغل به الكتاتيب أعوام الطفولة الأولى حتى السنة السادسة ، وذلك بتعميم نظام الحضانات التى تؤسس عليها الدولة كل مراحل التعليم ، التى يقوم فيها الأساس الدينى واللغوى بتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءة والكتابة من سوره ، أساساً لبناء صرح التعليم كله بناء سليما من فوقه ، ولا شك أنه – كما كان الأمر منذ ظهور الإسلام وانتصاره المتجدد – هو الأساس المتين ، والمرتكز الأمين ، على أن يخضع منهج الترويح عن أطفال هذه الحضانات لأهداف تربوية سليمة هى تنشيط وتنمية قدرات الأطفال العلمية والصناعية والأدبية ..

الطرق والمناهج الراشدة لإحياء اللغة العربية :

على ضوء ما قدمت من العيوب والآفاق الظاهرة فى مناهج الدرس اللغوى بمراحل التعليم عندنا ، أطرح فيما يلى عدداً من المقترحات التى أرى أن فى الأخذ بها تخلصاً من هذه العيوب ، وتثبيتاً لهذه الطرق والمناهج الراشدة التى تتأكد وتتدعم بها حركة إحياء اللغة العربية فى حياة شعبنا المصرى ، العربى ، المجاهد عن ذاته ، ومعتقداته ، وآماله ..

العودة للقرآن الكريم :

والبداية هى العودة الجادة إلى تحفيظ القرآن الكريم فى المرحلة

الأولى قبل الابتدائى ، والتى يجب أن تعمر بها سنوات الطفل التشكيلية الأولى بالتكوين القرآنى المباشر لنطقه الحروف والكلمات والجمل ، وذلك بأن تتقرر عودة مكاتب تحفيظ القرآن ، أو الحضانات بمفهومها الإسلامى فى التكوين السليم للمرحلة الأولى من حياة الطفل .

فإذا ما بدا لنا من المعوقات أننا قد لا نجد المعلم الذى يستطيع الإلقاء الصحيح لآيات الله على الأطفال فى هذه المرحلة الأولى قبل الابتدائى ، هذا الإلقاء السليم الذى نعول عليه فى نجاحها ، كان من الممكن تجاوز هذا العائق من طريق الاستعانة بالأشرطة المسجلة للمصحف المرتل ، وذلك بأن يقوم المدرس بإسماع الأطفال مرة بعد أخرى هذا القدر من الآيات الذى يريد لهم أن يحفظوه حفظاً سليما .

ومن ثم فإن العناية باستمرار تحفيظ القرآن الكريم فى المراحل من الابتدائى وعبر الإعدادى إلى الثانوى يجب أن تستمر فى التصاعد لتحقيق الغاية منها فى سلامة التكوين اللغوى ، والوعى الدينى ، والانتماء القومى فى حياة هذه الأجيال التى تحمل أمانة إعدادها لمهام وآمال المستقبل ، فى وجه تحديات العصر ، ولصحة المواجهة لأخطار العدو الرابض فوق أرضنا ، والأهبة لتحديد توسعه ، وتقليص وجوده ، واستعادة المحتل من أرضنا بقواته .

هذا ولا بد — فى مجال العودة المقررة إلى تحفيظ كتاب الله — من أن يعود الأزهر فيستمسك استمساكاً جاداً بتطبيق الشرط القديم وهو أن لايدخل المرحلة الإعدادية للأزهر إلا من يحفظ القرآن الكريم حفظاً كاملا ، وعلى أن يعفى هؤلاء الحفاظ للقرآن من شرط المجموع فى المرحلتين الإعدادية والثانوية .

كذلك فلا بد للمعاهد التى تقوم بالدراسة اللغوية المتخصصة لتخريج مدرسين متخصصين فى اللغة العربية وذلك فى كلية دار العلوم، أو فى أقسام اللغة العربية بكليات الآداب بالجامعة أن لا تقبل بين طلابها من لا يحفظ القرآن الكريم .

ولكى نوفر المناخ اللغوى السليم عن طريق الإكثار من حفاظ القرآن الكريم فإن علينا أن نقدم لشبابنا الحافز على هذا الحفظ وذلك بأن نعطى طالب الثانوية العامة حق زيادة ١٠ ٪ من مجموع الدرجات الذى يحصل عليه عند النجاح إذا ما تحقق له شرط حفظ القرآن الكريم، ولا غرابة فى ذلك ونحن نقدم مثل هذا الحافز فى حالات البطولة الرياضية ونحوها ..

الكتاب المدرسى :

ومن المقترحات الأساسية فى دعم الطرق السليمة لتعليم اللغة العربية الارتفاع الجاد والهادف بمستوى الكتاب المدرسى المخصص للقراءة والنصوص فى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية . وذلك حتى نثرى مثل هذه الكتب المقررة للقراءة بموضوعات تتجلى فيها اللغة الفصيحة ، والميسرة ، والتى يؤديها المدرس لطلابه أداء صوتياً سليما . مع مراعاة تدرجها فى المستوى والإفصاح بتدرج مراحل التعليم ، ووعية الطلاب .

وأما النصوص فيجب أن نتخير لها المستوى الجيد فى اللفظ والأسلوب والعبارة ، بالقدر الذى يتحقق به تنمية موارد الطالب اللفظية ، وتغذية قاموسه اللغوى ، مرحلة بعد أخرى ، يزداد فيها على الدوام إلمامه

وإقباله على التراث الأدبى القديم والمعاصر ، بما يناسب المرحلة التى يكون بها .

المدارس الخاصة :

وكما أشرنا من قبل فإن المدارس الخاصة التى تنشئها جهات التبشير الأجنبية الصريحة يجب أن تعطى اللغة العربية مكانها الأول واللائق فى تعليمها ، إذا ما أرادت أن تستمر على إباحة التحاق الطلبة المصريين بها . ومعنى هذا أنه لا ينبغى أن يدرس للطفل المصرى لغة أخرى غير لغته فى المرحلة الأولى من تعليمه ، إلى أن يتمكن من استيعاب صوتيات لغته القومية العربية أو من سلامة نطق حروفها وكلماتها ، وتكوين الجمل ذات المعنى بها . فبغير ذلك نكون قد قضينا بقطع اللسان القومى عن هؤلاء الأبناء فى قلب وطنهم ، وبين أهليهم ، وتحت رعاية دولتهم ، لكى نسلمهم باللغة الأخرى ، فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، والتى يتعلمونها ابتداء قبل أن يحسنوا نطق الكلمة العربية ، إلى انتماء أجنبى عنهم ، وإلى اغتراب غريب فى وطنهم ، مما يترتب عليه فى حياتهم الكثير من الآثار السيئة عليهم ، وعلى من حولهم ...

كذلك فلا بد فى هذه المدارس الخاصة من تدريس جميع المواد المختلفة باللغة العربية أسوة بالمدارس الوطنية .

قواعد اللغة :

ومن طرق الترشيد والإصلاح لتعليم اللغة توجيه أكبر العناية لقواعد اللغة العربية ، والإكثار من التطبيق عليها ، مع مراعاة تبسيط شرحها ، وتيسير تناولها فى كل من الشرح والتطبيق حتى تزول رهبتها

من ذهن الطالب ، حين يراها الضابط السهل التناول لعربية اللسان ، ولصحة النطق ، ولتمام المعنى بسلامة الأداء . ومن المهم لذلك أن نجعل لها درجة خاصة ، وورقة خاصة فى الامتحان ، منفصلة عن الفروع الأخرى .

وعلى هذا فإن الوضع الأمثل أن تكون مادة اللغة العربية جامعة لثلاثة أقسام متكاملة ومحددة :

الأول : قواعد اللغة ومقاييسها البلاغية .

الثانى : أدب اللغة العربية .

الثالث : التعبير ، والثقافة اللغوية ، والأداء الصوتى .

اللغة فى المدرسة :

ومن المقترحات الأساسية توفير المناخ اللغوى فى المدرسة ، ويتحقق ذلك بالوسائل الآتية :

١ ــ أن يتعاون مدرسو المواد الأخرى مع مدرس اللغة العربية بالتزام اللغة الفصيحة ، وطرح العامية تماماً فى شرح وتوضيح الدروس، والحرص على النطق السليم ، وإظهار احترام وتقدير اللغة العربية الفصيحة لتلاميذهم .

٢ ــ تأكيد الاهتمام باللغة العربية من خلال الاشتراك بها فى النشاط المدرسى بطريقة جادة ومؤثرة ، وبالتحديد فلا بد من وجود جماعة الخطابة ، والمحاضرات ، والمناظرات ، وأن تتوفر الوسائل للمدرسة ، وفسحة الوقت للمدرس لاستثمار النشاط المدرسى فى الارتقاء بمستوى اللغة العربية بين الطلاب .

٣ ــ ولا شك أن للإذاعة المدرسية أثرها الواضح والمؤثر فى تعزيز استخدام اللغة الفصيحة بين التلاميذ إذا ما أعطتهم الأسوة على ذلك ، نطقاً واستعمالا ، فى كل مناسبات اتصالها بهم .

٤ ــ كذلك فلابد من إعداد مسابقات أدبية ولغوية دورية تكون حافزاً للطلاب بجوائزها ، وعلى تَعَوُّد المتفوقين بنتائجها ، على الإكثار من البحث والدرس بالطاقة الذاتية فى مجال اللغة العربية .

المناخ العام :

ولكى نسرع فى إنقاذ شعبنا من كارثة ضياع اللسان الفصيح لابد أن نضع حداً لهذا التّهافت الذى هوت إليه وسائل الأعلام ، ولغة الدواوين .

فالأخطاء اللغوية بجميع أنواعها أصبحت ظاهرة شائعة فى الإذاعتين المسموعة والمرئية ، وكأنهما فى سباق على تأكيد هذه الظاهرة ، وعلى تنويع الأخطاء بأنواعها الإعرابية ، والصوتية ، والذوقية ، مع الاستمتاع بالهرب ما بين الحين والآخر إلى العامية ، وكأنها الأم التى يرتمون فى أحضانها من عناء التعثّر المثير للخجل من مثل هذه الأخطاء التّى تثقل بألسنتهم حين يحاولون الالتزام بضع دقائق بالعربية الفصيحة . كذلك فإن استشراء الخطأ اللغوى فى الصحافة أخذ يتّزايد أيضاً ليأخذ حجم الظاهرة ، وأما عن المستوى الذى هبطت إليه لغة المسرح والسينما فصيبة تحتاج إلى وقفة حازمة ، وإلى ضوابط تحول بين ازدواج الخطر اللغوى بالخطر على الأخلاق والدين والسلوك العام ، فى استمرار هذه الأجهزة تحيا مستقلة بمفهوم التجارة بأحط الغرائز ، مجتاحة عقول ومشاعر الشباب بأحط اللهجات .

إن كل هذه الظواهر الخطرة فى دلالتها على تدهور الفصحى ، بل وعلى شبه احتضارها ، من الميسور إصلاحها ، وتبديل الدوافع التى تقضى عليها بقوة الإصلاح ، وحسن الأسوة من كبار رجال الدولة ، وأئمة العلماء ، وقادة الفكر والأدب ، بهذه العوامل السيئة التى لا تزال تدفع بالشعب إلى إحباط لغوى يصعب تصور الأهوال والانهيارات ، الاجتماعية التى قد تنجم عنه .

إنه من الميسور ، ومن المحتم فى نفس الوقت ، أن يبادر المسئولون باختيار وتدريب عناصر ذات كفاءة لغوية لحمل رسالة الإذاعة بصورتيها على الوجه الأكمل .

ولابد أن يصدر مجلس الشعب بوصفه السلطة التشريعية توصية عاجلة وحاسمة بضرورة التحدث باللغة العربية الصحيحة على منبر المجلس ، وفى كل المحافل السياسية ، وأن يمنع التحدث والجدل والنقاش بالعامية خلال أعماله منعاً باتاً .

ولابد فى كل ديوان حكومى ، وهيئة صناعية تحت إشراف الحكومة من وجود متخصص فى اللغة العربية يقوم بصياغة الرسائل الحكومية صياغة أدبية سليمة ، يمتد أثرها الحسن باتساع مجال الحركة أمام هذه الرسائل . وليس من عيب أبداً فى أن نعيد مرة أخرى ديوان الإنشاء والرسائل ، ليؤدى واجبه القيادى فى الإسهام فى حركة الارتقاء بلغة الحكومة من خلال رسائل دواوينها .

بهذه الوسائل — وهى كلها قريبة المنال — نستطيع أن نوفر المناخ اللغوى المناسب فى مجتمعنا ، وأن نرتقى بصورة فعالة وشاملة ، تنعكس أصداؤها بكل عوامل الحيوية ، وإشراق الوعى ، ووحدة الهدف ،

والاعتصام بالدين والتراث ، على الأجيال المقبلة ، وهى تحصنهم من عجمة قاتلة ومذلة تتربص بهم من جهات شتى ، مالم نوجهها جادين بكل هذه الوسائل .

المجامع اللغوية :

وربما كان خير ما أختم به القول فى مقترحات الإصلاح والترشيد لخطط ومناهج تعليم اللغة العربية هو أن أشير إلى هذا الطبيب النطاسى ، الرفيع التخصص فى لغة العرب ، والممنوح قدرة إضافة الكلمات الجديدة لهذه اللغة لمسايرة نموها العصرى بالدلالة اللغوية على كل ما تتعامل معه من أدوات ومستحدثات ، وأعنى به مجمع اللغة العربية ، الذى يتربع فى عاصمة أكبر الأقطار العربية واحد منه ، جليل وموقر ، لأداء هذه المهمة اللغوية الحيوية ، ليس بالنسبة فقط للقطر الذى ينشأ فى عاصمته ، بل بالنسبة للهدف الأسمى من الارتقاء بالمواجهة اللغوية الفصيحة والصحيحة لأمة العرب لهذا العصر الجديد ، ومتغيراته العلمية والثقافية والحضارية .

إن واجب أعضاء هذه المجامع اللغوية ، التى ينمو من طريقها القاموس العصرى للغة العربية ، أن ينفضوا غبار السنين ، وأن يخرجوا سراعاً من هذه السنة الطويلة للنوم ، وأن يتحرروا من قيود هذا الوقار القاتل لمهمتهم الجليلة ، التى أصبحت عند أقصى ما ارتفعوا إليه من العزلة ، نوعاً من العلوم السرية لصفوة من « المجمعيين » يعتبرون أنفسهم فى عالمهم الخاص فوق النقد ، وفوق المساءلة ، وفوق الحساب .

وبكل البساطة فى التعبير نأمل أن يدب النشاط فى عمل هذه المجامع باتجاه جماعى مباشر ، تعرض فيه أولا بأول ، ومن خلال اتصالهم بجميع المسئولين عن تحقيق تداول حصاد أعمالهم – هذه المصطلحات العلمية

وغيرها، مما يتم على أيديهم تعريبه، وبخاصة هذا الاتصال الحتمى بالجامعات، حتى يفيد طلبتها من كل ثروة تعريبية جديدة تضاف إلى اللغة القومية .

وأكثر من ذلك فإن على هذه المجامع أن لا تكتفى بعقد اجتماعاتها الدورية فى عواصم الوطن العربى ، كاجتماعهم الأخير سنة ١٩٧٦ فى الجزائر، ليتداول فى حديث كالهمس أو النجوى ، أخطر الأبحاث عن تعليم اللغة العربية ، وعن الآراء والدراسات العديدة حول هذا الأمر الحيوى فى حياة الأمة ، فضلا عن أنه الأمر الحيوى فى رسالة هذه المجامع .

إن على هذه المجامع أن تخرج بشجاعة ، وطلاقة ، من عزلتها ، وأن تعمل على تقديم الكثير للتداول من حصيلة أبحاثها ، بل إن عليها أن تقرر لنفسها أنه لا قيمة لهذه الأبحاث فى صيغتها السرية العلوية ، وأن القيمة الحقيقية لجهد العديد من كبار علمائها ومتخصصيها هو الإسهام الفعلى فى طرح هذه الأبحاث الهامة جداً على جميع الجهات والهيئات العلمية المختصة فى الأزهر ، وفى الجامعات ، وفى وزارة الثقافة والأعلام ، وفى مواجهة الأدباء والمفكرين أفرادا ، أوفى الجماعات والمجالس التى أنشئوها بأسمائهم ..

نعم .. إن على هؤلاء العلماء الأجلاء فى مجامع اللغة العربية أن يخرجوا إلى ضوء الشمس ، وإلى واقع الحياة، وأن يحملوا فى هذا العصر — مع جميع القادرين من أهل العلم بالدين واللغة — عبء مواجهة دعوات الهدم للدين واللغة ، والتى منها هذا المخطط المتعدد الوجوه والأقنعة والوسائل والمجالات ، والخاص بالدعوة إلى العامية ، والترويج لها ، مع الزراية باللغة الفصحى ، لغة القرآن الكريم بطرق ووسائل عكسية ، منها هذا الإصرار الشرس على إشاعة الحديث بهذه العامية الركيكة ، والقاصرة ، والمريضة لفظاً وصوتاً ومعنى ، فى الأوساط العلمية ، والمحافل العامة ..

و لقد وعد الله المجاهدين عن دينه ، ودعوته ، وقرآنه ، بالنصر ، وهو سبحانه فى هذا يقول :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»

محمد : آية ٧

فكيف ننصر الله أفضل من أن ننصر فى حياتنا لغة كتابه ، لينصرنا سبحانه بهذا الكتاب الذى لا تقوم بغيره أركان الإسلام ، والذى هو قاعدة النصر لنا وتثبيت الأقدام . . .

ويقول سبحانه فى نفس الدعوة :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » الحديد : آية ١٦

نعم . . هكذا يخاطبنا كتاب الله وتنزيله ، نحن الذين نحمل اليوم بالإيمان أمانة الخشوع لله بسماع آياته ، والطاعة له بوعى شريعته ، فكيف يتيسر لنا أن نخشع لمنزل الكتاب إذا ضاعت من ألسنتنا وأصواتنا وعقولنا لغة الكتاب .

نعم . . كيف نخشع لوحى الله بالقرآن الكريم إذا ما بقينا على هذه العامية المهجنة ، التى تتنازعها أنواع اللكنة ، وألوان الهجنة ، وأصوات الحشرجة ، بينما اللسان الذى نخشع به لله ، ونقترب به إليه ، لسان عربى مبين ؟

كيف نخشع لذكر الله ، ونحيا بتدبر كتاب الله ، بهذه العامية المريضة الشوهاء ، السوداء بما شاع فيها من الحقد ، والحمراء بما تسلل إليها من مصطلحات الإلحاد ، والصفراء بما تغلغل فى معانيها من الانحراف والفساد ،

والزرقاء الشقراء بما غزاها من تراكيب وغرائب لغة « الخواجا » الذى يعمل بكل دهائه على أن يحارب وجود لغة عربية قرآنية مبينة ، بابتكار لغة متوسطة الفصاحة ، دارجة المعانى ، متخمة بترجمات أساليبه فى الكلام ، بما تعجز به هذه اللغة المخترعة الممسوخة عن التوجه بعاهاتها ومترجماتها صوب كتاب الله لتكون أداة الفهم له ، أو الإبانة عنه . . وبذلك — كما يتمنى الخواجا شرقياً أو غربياً — تنقطع طريقنا عن مصدر القوة والحياة .

إذن . . فهل حان الوقت ، أو لم يحن ، بيننا نحن المؤمنين المسلمين ، المعاصرين ، لنخشع إلى ذكر الله ، وذلك بأن نتعلم عربية القرآن ، من طريق تحفيظ القرآن ، وأن نجعل ذلك فى التربية على الإيمان زاد أبنائنا ، منذ الطفولة المبكرة ، وفى كل مراحل التعليم ، حتى الجامعة ؟

أعتقد أن الوقت قد حان ، وأن قضية تعليم اللغة العربية الفصحى ، المبرأة من اللحن ، وإهمال الإعراب ، وهجنة التراكيب الأجنبية والأعجمية... إن قضية تعليم هذه اللغة التى كرمها الله بوحيه ، وكرم بها المؤمنين به ، هى قضية الهدى بعد الضلال ، والشفاء بعد العلة . . والله سبحانه يقطع بحكمه فى هذه القضية قائلا فى محكم قوله ، ونور فرقانه :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَاءٌ » فصلت : آية ٤٤

صدق الله العظيم . . فما كان لمن عرفوا الله أن يطلبوا الهدى إليه بعد الضلال ، والشفاء بشريعته بعد العلة ، إلا بهذا اللسان العربى ، الذى يفتح طريقنا وطريق أجيالنا إلى تعلمه بتحفيظ وتدبر القرآن الكريم .

إجابة أخرى

لبحوث

القسم الثالث

القرآن الكريم

واللغة العربية

يجيب عنه

الدكتور يوسف نوفل

مدرس الدراسات الأدبية

بكلية البنات - جامعة عين شمس

من أجل مزيد من العناية بتعليم لغتنا العربية الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، وتصويب طرق ومناهج تعليمها وتعميمها ، نضيف هذه الاجابة للدكتور يوسف نوفل عن أسئلة القسم الثالث الى الاجابة السابقة : حيث يضيف من خبرته التربوية والعملية رؤية جديدة ، ووصايا مفيدة ، للارتفاع بمستوى تعليم لغتنا العربية ، القومية ، القرآنية ، وتعلمها ٠



السؤال الأول :

« كيف لا تعتبر الشعوب العربية بما وقع فى الجزائر فى مرحلة استعمار فرنسا لها منذ سنة ١٨٣٠ من قطع لسان شعبها العربى فتبادر بالدفاع عن لغتها فتمتنع عن أن تقطع لسانها بيدها ، لكى يأتى جيل غريب بعد ذلك يقاسى من أجل حياته وذاته ما تقاسيه الجزائر اليوم من أعباء التعريب بعد هوان وشتات التغريب ؟

الإجابة :

حرص الاستعمار الفرنسى للجزائر منذ احتلالها سنة ١٨٣٠ م على محو السمات القومية والدينية للجزائريين ، وفرض الاستعمار لغته على كثير من المثقفين فى الجزائر وشمال أفريقيا ؛ ويأتى واحد مثل « لويس ماسينيون» فيصور الحلاج على أنه صورة من المسيح عليه السلام ، وما كان ذلك إلا لإحداث الفرقة بين المسلمين فى الجزائر ، وتغريبهم عن دينهم ، وشرعت فرنسا تقضى على المراكز الثقافية المزدهرة فى الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وأغلقت نحو ألف مدرسة ، وهاهو أحد الكتاب الفرنسيين وهو « بولار » يحمل فرنسا مسئولية تأخر الجزائر فى القرن الحالى حيث يقول :

« لقد أشاع دخول الفرنسيين فى الأوساط العلمية والأدبية اضطراباً شديداً فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين » .

وعملت فرنسا على ألا تفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة تسخر التعليم لخدمتها ، وقد وصف ذلك محمد فريد فى جريدة اللواء فى ١٢ من أكتوبر ١٩٠١ قائلا :

« ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى جميع المعاملات ، بل ربمالاتدرس العربية بالمرة مع مضى الزمن»

الغزو اللغوى والدينى :

وهذا ماحدث تماماً ، إذ قضت فرنسا على اللغة العربية ، وعملت على فرنسة الجزائر لغة وحضارة ، وفرضت حجاباً كثيفاً من الصمت عزل الجزائر قرناً كاملا ، وأضحت مأساة الغزو اللغوى وضياع اللسان القومى مشكلة ذات أبعاد واضحة وجوانب صعبة . وصار أدباء الجزائر يكتبون باللغة الفرنسية من أمثال :

محمد ديب ، وكاتب يس ، ومالك حداد ، ومولود فرعون ، ومولود معمرى ، وآسيا جبار ، وأمثالهم من أدباء الجزائر والمغرب كإدريس الشرايبى وأمثاله .

والحق أن قصة الغزو اللغوى ذات جذور قديمة ، فقد رأى الاستعمار النهضة الثقافية والفكرية فى الجزائر والمغرب العربى إبان القرن الحادى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ورأى أعلام الفكر يحيون التراث وينشرونه من أمثال المقرى صاحب نفح الطيب ، والقاضى عياض صاحب ترتيب المدارك وأمثالهما .

ورأى الاستعمار أن عليه أن يقضى على هذه النهضة ، ولاسبيل إلى ذلك إلا بالقضاء على اللسان العربى المرتبط بالقرآن الكريم ، وقد وطئت أقدامه أرض الجزائر وليس بها أحد يتكلم الفرنسية ، فعمل على الاتصال بالرأى العام باستئجار الأقلام المأجورة الرخيصة ، ثم شرع فى برنامج المسخ والغزو ، فبدأ فى فرنسة أجهزة الحكومة ، ودوائر العمل ، ثم فرنسة التعليم فرنسة كاملة لم تترك للغة العربية فى المنهج المدرسى سوى ساعتين أسبوعياً ،

خصصتا لتدريس « اللهجة العامية » كلغة ثانوية إضافية ، وكوسيلة لاتصال المستعمر بالشعب ، وكوسيلة أيضاً لمحاربة الفصحى لغة القرآن الكريم ، والثقافة العربية الإسلامية .

فهو يعمل على تحقيق هدفين كليهما شر : أحدهما فرنسة أرض الجزائر ، والآخر فرنسة سكانها ، مثلما فعلت بريطانيا باستراليا ونيوزيلندة ، ومثلما تشهد قطعة من وطننا المعذاب وهى فلسطين حين تمسخها الصهيونية لغة وأرضاً وحضارة .

وقد أصدر مجلس النواب الفرنسى سنة ١٨٤٨ قراراً بأن أرض الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا ، وجلب المستعمر أشتاتاً من الناس ومن االفرنسيين ليستوطنوا الجزائر ، وأدركت فرنسا منذ اللحظة الأولى خطورة الإسلام والعروبة ، وسرهما فى وحدة الشعب الجزائرى ، فعمدت إلى تحطيم الوحدة ، فجعلت اللغة الفرنسية لغة الدولة الرسمية ، وحدت من انتشار اللغة العربية ، فأصدرت فى ١٩٠٤/١٢/٢٤ قانوناً يحرم على أى معلم مسلم افتتاح أو إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص فرنسى ، وفرضت لذلك عقوبة مشددة . وكان ذلك إعاقة لانتشار مكاتب تعليم اللغة العربية ، ثم عمدت لمحاربة المدارس المفتوحة أصلا ففرضت على معلميها تعلم الفرنسية ، ولما كانوا لايعرفونها فقد أغلقت عدداً كبيراً من هذه المدارس .

وقد أدى ذلك إلى إهدار حقوق الإنسان الجزائرى مما جعل لجنة التحقيق الفرنسية الموفدة للجزائر سنة ١٨٣٣ تصدر تقريراً رسمياً للملك شارل العاشر تشير فيه إلى فقدان الحرية والكرامة ونهب الأوقاف ، وانتهاك حرمات المنازل والإعدام ، وتشجيع الخونة . . . الخ .



يضاف إلى ذلك هدم المساجد، وإضعاف القضاء الشرعى ، والاستيلاء على أموال الأوقاف ، وتشجيع التبشير المسيحى والتنصير ، هذا إلى جانب حملات الإبادة والتشريد ، والاستيلاء على مصادر الثروة ، وحرمان الجزائريين من التعليم ، فبينما تقبل المدارس من الأوروبيين واليهود نحو ١٥٠,٠٠٠ تلميذ لاتقبل من الجزائريين إلا نحو ١٠٪ من هذا العدد ، وهكذا فى سائر مراحل التعليم ما بين الابتدائى والثانوى .

ولم يستسلم العرب وقامت حركات مقاومة عديدة كثورة الأمير عبد القادر الجزائرى ، ومالك بن نبى ، والإبراهيمى ، ومحمد المقرانى ، وقامت جمعيات عديدة مثل جمعية نجم شمال أفريقية ، وتأسست بالجزائر سنة ١٩٢٦ حتى حلت سنة ١٩٣٧ فأسس مصالى الحاج بدلا منها حزب الشعب الجزائرى ، ثم حزب انتصار الحريات الديمقراطية ، حتى قامت الثورة الكبرى منذ ١٩٤٥ ، وقامت حرب التحرير ١٩٥٤ .

جمعية العلماء :

وأسس علماء الدين جمعيتهم ، وقد قام رائدها عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠) بنشاط كبير فى حركة الجهاد الوطنى واللغوى والدينى ، فقد حاولت فرنسا سنة ١٩٣٠ الاحتفال بمرور مائة عام على احتلال الجزائر وفرنستها وإدماجها ، فوقف ابن باديس منادياً بعروبة الجزائر ، وأنها ليست جزءاً من فرنسا ، ودافع عن العروبة والإسلام فى خطاباته ورسائله وخطبه وكتاباته واجتماعاته ودروسه ونثره وشعره .

ووضعت جمعية العلماء خطة لنشر التعليم العربى الإسلامى فى المدن والقرى ، وذلك فى مرحلتين : مرحلة شمل ا-. المدارس التى عدها الاستعمار

غريبة وهى فى وطنها ، والمرحلة الثانية منذ سنة ١٩٤٧ بإنشاء معهد علمى يجمع أبناء الجزائر الذين كانوا يشدون الرحال إلى جامعة القرويين فى فاس أو الزيتونة فى تونس .

وقد قاومت فرنسا نشاط ابن باديس بشدة ، كما قاومت جماعته جمعية العلماء ، ولكنه لم يلن وشرع يصيح فى الجزائريين ليثبتوا على مقاومتهم ، وإحياء مقوماتهم ، وذلك يمثل قوله « إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام فى هذه الديار » .

وقوله « وهكذا لاتفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة فى سبيل الإسلام والعربية لغة الإسلام فى دائرة القانون العام، وإن لحقها فى ذلك كل ظلم وعدوان » .

القرآن الكريم :

ويعرض لرسالة القرآن فى قوله : « والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر ، وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية » .

وكان ابن باديس يرى فى اللغة العربية « حبلا متيناً » لأنها لغة الدين والجنس والقومية والوطنية المغروسة ووحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، ومقياس ما بيننا وبين شعوبنا ، ولسان نعتز به وترجمان عن العقائد » .وكان يرى حق الجزائر فى احترام إسلامها وعروبتها ، وأن تكون لها وحدتها الدينية ، وأنها ليست فرنسا ، وإنها غير مندمجة فيها .

وكان يقول : « أنا أحارب الاستعمار لأنى أعلم خطره على دينى ولغتى » .

وغير ذلك من أقواله الراشدة الثائرة التى قطع بها الجزائريين خطوة واسعة نحو حرب التحرير الشاملة . وقد عملت الجمعية بجد على افتتاح المدارس العربية وفى سنة ١٩٥٢ أجرت الجمعية أول امتحان لنيل الشهادة الابتدائية العربية ، وكانت قد أنشأت أول معهد للتعليم الثانوى باسم معهد بن باديس سنة ١٩٤٧ زاد عدد طلابه سنة ١٩٥٣ حتى صاروا ١٥٠٠ طالب . فتمكنوا من نشر لغة القرآن والحفاظ عليها ، وكسر موجة الفرنسة والمحو والمسخ الفرنسية .

وهكذا قامت دعوة هذا المصلح الاجتماعى الإمام بن باديس على شعار مضىء ومتماسك هو : « العروبة ، والإسلام ، والجزائر » .

حصاد العدوان :

وقد عقد مؤتمر المغرب العربى الأول فى مصر سنة ١٩٤٧ وناقش المجتمعون الحالة الثقافية فى المغرب ، وعرضوها على جامعة الدول العربية لمطالبتها بالعمل على نشر الثقافة العربية فى بلاد المغرب كلها ، ثم نادى الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى مقال له بمجلة الثقافة — العدد — ٤٢٩ الصادر (سنة ١٩٤٧) بنداء يصور مايجيش به صدر كل مفكر عربى مسلم وذلك حيث قال :

« فلتقم من بيننا إذن جماعة ترفع راية الوحدة اللغوية ، ولتؤلف لهذه الجماعة فروع فى كل بقعة من أرض الوطن تنشر رسالتها وتنفذ خططها ».

لم تقع عين الجزائرى من حصاد العدوان بالفرنسة لوطنه إلا على كل ماهو غير عربى ، فالصحافة تصدر بالفرنسية أو بعربية ركيكة ، وفى مقدمتها الجريدة الرسمية للاستعمار (المبشر) التى صدرت فيما بين سنة ١٨٤٧

وسنة ١٩٢٤ . ومن العجب أن يشهد صدورها حادث القضاء على مقاومة الجيش الجزائرى للاحتلال بقيادة الأمير عبد القادر . أما الصحف غير الرسمية للجالية الفرنسية فلم تر بداً من استعمال اللغة العربية لمحادثة الشعب الجزائرى ، مثل جريدة « الأخبار » التى صدرت سنة ١٨٣٩ أى قبل صدور جريدة المبشر بثمان سنوات بالفرنسية ثم اضطرت سنة ١٩٠٩ أن تصدر بالعربية والفرنسية .

وقد ارتفعت نسبة من حرموا التعليم فى الجزائر إلى ٨٠٪ ، ولم يخفف عن هؤلاء المحرومين من القراءة والكتابة إلا تذرعهم بكتاب الله العزيز . ثم كان إلى جانب خطورة الحرمان من التعليم خطورة أخرى لاتقل عنها أثراً، إذ شب جيل من المثقفين تلقى كل تعليمه على الطريقة الاستعمارية ، فنشأ منفصلا عن لسانه ووعيه القومى وشعوره الدينى . ودلس الاستعمار كثيراً بما اتبعه فى بناء المدرسة الثعالبية (١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م) بجوار مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبى فى حى القصبة بالعاصمة ، وانتدب شيخين لنشر كتابين من كتب السلف الصالح ، وما كان ذلك إلا ذراً للرماد فى العيون !

ومن ناحية أخرى عمل الاستعمار على سرقة كنوز التراث العربى ، فوضع المستشرقون الفرنسيون أيديهم على كنوز التراث الجزائرى وأدخلوه فى حوزة المكتبة الفرنسية ، أو فى أيدى المستشرقين الفرنسيين فى مكتبة الجزائر ، تلك المكتبة التى دمرها الحريق قبيل الاستقلال ، ولم ينج منها إلا القليل . بينما كانت تلك الذخائر زاداً قوياً فى أيدى جمعية علماء المسلمين فى مواقفهم ضد الاحتلال ، إذ ظلت تصدر الجرائد ، وتفتح المدارس ، متحدية مايحيط بها من ظروف قاسية ، وتوفد طلابها لتلقى العلم

فى جامعات : القرويين بفاس ، والرباط بالمغرب ، والزيتونة بتونس ، والجامع الأزهر ، وجامعات القاهرة ، ودمشق وبغداد . ولما وجد الاستعمار أن هؤلاء المجاهدين يمولون نشاطهم من أملاك الأوقاف ضمها إلى خزائنه ظناً منه أن ذلك يوقف الثورة ، ويغلق المدارس الأهلية ، ويعطل الصحف ، ويقضى على اللسان العربى . !

وقد حرص الاستعمار على أن يمنح المتعلمين مؤهلا رسمياً يؤهلهم للوظيفة كصك رسمى للعمل والتوظف ، ومرت السنون لنجد تدفق عدد الموظفين الذى عينوا بمؤهلات دراسية فرنسية وهم لايستطيعون الحديث أو القراءة بالعربية ، ويعتمدون فى زادهم الوجدانى الفكرى على روافد أجنبية ، حتى من شغل منهم مواقع قيادية فى النضال والكفاح ظلت عقدته الأساسية هى اللغة . بل منهم من عرض قضية وطنه باللغة الفرنسية ، فلما قامت قضية التعريب فوجئوا بعزلتهم عن واقعهم ومجتمعهم واغترابهم عنه ، فأظهروا المقاومة لها دفاعاً عن وجودهم ، ومناصبهم ، واعتزازاً باحتياج الدولة إليهم ، وصاروا يشككون فى قضية التعريب . وبات لزاماً على الأمة أن ترتكز إلى خطة محكمة طويلة الأجل لتعريب الثقافة الجزائرية ، إزالة لأية عقد نفسية قد تكون ترسبت فى نفوس بعض الجزائريين ، حتى لا يصبح الحل مستعصياً ، وذلك مواجهة لوجود جيلين غير قادرين على التفاهم فى ألفاظهم ومعانيهم ووجدانهم وفكرهم ، وحيث لا تكون الثقافات بالمدافع والبنادق ، أو القرارات الإدارية ، بل بالتخطيط والعمل والزمن والمثابرة والإخلاص .

اللغـــة العربية والقومية :

وكان مما جد فى العصر الحديث أن طرأت بعض البلبلة اللغوية إثر نشأة

القوميات ، وظهور لغات أوروبية حديثة ، فمنذ القرن السابع عشر أخذ الباحثون يتحدثون فى جد عن اللغة العالمية ، وقد أشار إليها (ليبنتز)* (١٧١٦) بعد أن رأى تبلبل لغة العلم والفكر بتعدد اللغات الأوروبية الحديثة ، وفكر فى جمع (ألف باء) الفكر الإنسانى ، ووضع لكل فكرة رمزاً يعبر عنها لتصبح لغة العلماء مشتركة ، ووجه بذلك النظر للغة العالمية . وفى القرن التاسع عشر عنى بتلك النظرية بعض العلماء وعلى رأسهم طبيب روسى اقترح لغة (الاسبرنتو) التى قدر لها أن تصادف نجاحاً لدى كثير من الهيئات العالمية ، ودارت حولها مقترحات بلغت فى النصف الأول من القرن العشرين ما يزيد على ٥٠ مقترحاً ، وتقوم أبجدية تلك اللغة على أبجدية قليلة الحروف والمفردات ، وقد عارضها علماء الاجتماع وعلى رأسهم دوركايم .

وهناك أمم يتكلم أفرادها عدة لغات ومع ذلك لا ينكر أحد أنها أمة واحدة ، مثلما نجد فى الهند التى يتكلم أبناؤها ما يزيد على عشر لغات أساسية ثلاث منها رسمية ، وهناك أمتان تتكلمان لغة واحدة لكنهما منفصلتان مثل فرنسا وبلجيكا ، أما الأمة العربية فإن الدين يجمعها برباط قوى تعد اللغة فيه أكبر أسبابه ، وأرسخ دعائمه ، وأبقى آثاره ، وأشد روابطه ، فلا شك أن اللغة هى الأساس فى الرابطة القومية مهما اختلفت

(*) هو جوتفريد فلهلم ليبنتز فيلسوف المانى توفى سنة ١٧١٦ ، وكان الى جانب فلسفته رياضيا وكانت أشهر أبحاثه الفلسفية فيما وراء الطبيعة ، وكان مذهبه الوفاقى والتوفيقى فيها يدور حول ما سماه بعلم الجواهر الروحية أو المونادولوجى كما سجله فى كتاب له بهذا الاسم .

النظريات ؛ إذ بها تتم الروابط الثقافية والاجتماعية والعاطفية والدينية ، وليس المقصود بها وسيلة التعبير فحسب . بل بصفتها العقلية والنفسية .

والقومية العربية نعبر عنها أحياناً بالعروبة لاستنادها إلى اللغة ، استناداً لا يقل عن استنادها إلى العوامل الأخرى كالأرض والجنس والعقيدة ، والتاريخ ؛ إذ ترجع مكانة اللغة العربية عند العربى إلى عصر ما قبل الإسلام حيث مثلت اللغة مظهراً من مظاهر الوحدة ، وتمثل ذلك فى اللغة المشتركة بين القبائل بلهجاتها المتعددة ، وحين نزل القرآن الكريم بتلك اللغة الموحدة رسخت أقدامها وصارت لها منزلتها فى بناء صرح الروابط العربية القومية .

وتمتاز القومية العربية التى لها مظاهرها الحية الوضاءة منذ فجر التاريخ ، على جميع القوميات الحديثة التى ظهرت حديثاً فى عصر القوميات الأوربية منذ بداية القرن التاسع عشر ، والتى دارت حول نظريات : اللغة ، أو المصالح المشتركة ، أو التاريخ والعادات ، أو الوحدة الاقتصادية — إنها تمتاز بكل هذه الروابط مجتمعة ومنسقة فى لغتها المعبرة لقومها عن الدينى والدنيوى فى شريعة لا تتبدل ، ونظام أخلاقى لا يميل .

وهكذا فإن علاج الأزمة اللغوية فى الجزائر مرتبط ارتباطاً كبيراً بالرباط القومى الذى يربطها بوطنها الأم ، ولغتها الأم ، وكتاب الله العزيز ، فكما تفوقت العربية قديماً على اللغات التى واجهتها بعد الإسلام على أرض الوطن العربى من فارسية ويونانية ورومية فلن يتيسر للغة الجزائر أن تعود ويقوى عودها إلا بالرباط القومى والدينى ، وإلا بالوحدة اللغوية العربية .

أدب جزائرى عربى :

وإذا كنا قد عرفنا بإيجاز شديد أن طائفة من ألمع أدباء الجزائر كتبوا وأنتجوا بالفرنسية حتى قال أحدهم وهو محمد ديب عن جيله إنه الجيل الأخير ، فإنه لا يصح لنا أن نقف موقف المتحسر الغائب عن الصواب ، أو المشدوه الذى لايعقل شيئاً ، بل يجب أن نطالب الأدب الجزائرى بنهضة قوية فكرية لغوية ، دينية وإنسانية . وكما رافق الأدب بمستوياته المختلفة معارك القومية العربية منذ أقدم العصور ، وكما ظلت فكرة القومية محور أدب العرب على مر الدهور فإن على الأدب الجزائرى أن يقدر مسئوليته فلا يقتصر على تحقيق ملامحه العربية لنفسه فحسب ، بل يحققها فيما حوله وفيمن حوله . وإذا كان الأدب الجزائرى عبر عن آمال شعبه فى المرحلة الماضية — بلسان فرنسى — داخل الجزائر وخارجها ، بل داخل فرنسا ، فليس صعباً عليه أن يؤدى رسالته بلسان عربى فصيح داخل وطنه نشداناً للتطوير الحتمى نحو التعريب ، ونحو مشاركته الفعالة فى البناء الثقافى ، والحضارى ، وفى المعركة الحضارية التى يخوضها وطننا بين أن « يكون أو لا يكون » .

على أن يساند ذلك ما يقوم به المعلمون من الجزائر ، ومن الدول العربية ، وبخاصة ما يقوم به أبناء مصر من تعاون مؤثر فى هذا المجال .

وكما أدى تعريب المصطلحات مهمة جليلة فى إثراء النهضة العربية قديماً وحديثاً يمكن أن يؤدى استمرار التعريب عامة مهمته فى بناء الفكر الجزائرى وإحيائه عربياً وقومياً وحضارياً .

بين ماض وحاضر :

ولقد كان من آثار قصور الوعى الثقافى وتناقض الأجيال الجزائرية ثقافياً ، حدوث بعض الأخطاء .

فحين تهيأ مندوبو فرنسا لتوقيع وثيقة استقلال الجزائر مساء ٧ يونيو سنة ١٩٦٢ تسلل نفر من أعداء التحرر ، فأحرقوا مكتبة الجزائر وأشعلوا فيها النار وضاعت كتبها بين النار والماء .

وبهذه الظاهرة أصبحت قضية غربة اللسان الجزائرى واضحة للعيان ، وحين انعقد مؤتمر المعلمين العرب فى دورته الثالثة بالجزائر فى أغسطس سنة ١٩٦٣ ناقش قضية التعريب ، وشعر المجتمعون بخطورة القضية ، وبأن مرور قرن وبعض قرن قد جعل مشكلاتها مستفحلة تتطلب حلولا متواصلة وجهداً مخلصاً .

ولتعزيز التعريب أصدرت حكومة الجزائر فى أبريل سنة ١٩٦٨ قراراً بإبعاد أى موظف أو عامل لا يعرف العربية تمهيداً لتحقيق التعريب سنة ١٩٧٠ ، وأخذت تفتح المدارس الشعبية لتعليم العربية ، وقد قاومها البعض ، وصدوا عنها ، بينما أقبل الآخرون .

وبدأت ملامح من التغيير تظهر ، إذ أخذت الميادين والطرق والشوارع تسمى بأسماء عربية ، وترجمت معظم لافتات المتاجر إلى العربية ، وخصصت كثير من الصحف اليومية صفحات لنشر الدروس العربية ، وانتشرت المدارس العربية لتعليم القراءة والكتابة بها ، وشاركت معاهد المعلمين فى تخريج المعلمين إسهاماً فى معركة التعريب الكبرى .

الجزائر أمس . . . وفلسطين اليوم :

وإذا كان تاريخنا المعاصر قد شهد مأساة اللغة العربية واضحة ودامية فى الجزائر على يد الاستعمار الفرنسى على مدى قرن وبضع قرون ، وعلى يد من تخاذل من أبناء الجزائر عن نصرة لغته ودينه ، أو تواطأ مع المستعمر ، أو وقف موقفاً سلبياً منه . فإننا اليوم نشهد وجهاً جديداً من وجوه المأساة يكرر نفسه بصورة جديدة فى بشاعتها على أرض فلسطين ؛ إذ يشهد أبناء الأرض العربية المحتلة بالعدو الصهيونى وهو يمسخ الحياة العربية الإسلامية فوق أرضهم ، وفى صميم حياتهم . فهو يأتى على الآثار الإسلامية العربية ويشوهها ، ويشوه التاريخ ، ويهدم المساجد ، ويغلق المدارس العربية ، ويزيف الأنباء والحقائق ، ويحارب اللغة العربية على ألسنة الناس ، وفى قلوبهم ، وفى المواد الدراسية ، كما يحارب الدين الإسلامى كذلك فى مظاهره وشعائره وكتبه وبيوته وفق مخطط دائب النشاط ، لتهويد الأرض العربية وأهلها .

وإذن فما أجدر أن نأخذ من الأمس عبرة لليوم لعلها أن تنفعنا ، فى حاضرنا لنتزود بالحذر ونقاوم الخطر . . .

وبكل وضوح لعل ما وقع من مأساة فرنسة الجزائر بالأمس ، وأعباء ومشكلات تعريبها اليوم أن تكون للأمة العربية كلها ، عظة وذكرى تنفع المؤمنين منهم بحق بقاء العرب على أرضهم ، بقاء حراً عزيزاً ، يحملون به بكل أصالتهم ، ومقوماتهم ، أمانة المشاركة فى آمال العصر ، ونعمة العيش بالسلام العادل فيه .

السؤال الثانى :

« لماذا أصبح من المسلمات فى جميع الشعوب المتقــدمة تعليم الأطفال لغتهم القومية ، وترسيخ قواعدها وأصواتها فى ألسنتهم وملكاتهم قبل أية لغة أخرى أجنبية عنهم ؟

اشرح كيف أن هذه القاعدة السليمة كانت هى الأساس الذى ربط فيه المسلمون فى عصورهم الزاهرة بين تعليم اللغة العــربية لأطفالهم وبين تنشئتهم على حفظ القرآن الكريم منذ أول قدرتهم على الكلام ؟ » .

الإجــابة :

لا أظننا فى حاجة إلى الإشادة بدور الأم وفضيلة الأمومة فى مستهل مناقشتنا لقضية إسهام الأم فى حفظ التراث وازدهار لغة الأبناء(*) .

وقد لقيت الطفولة فى العصر الحديث اهتماماً فائقاً من الباحثين والمربين ، وإن حالت طبيعة العصر دون الظفر بثمرات هذه الجهود كاملة ، وطفل اليوم هو شاب المستقبل ، وقائد الغد ، ولهذا وجب على من يحيط به — وفى الصدارة أمه المسلمة — أن يدرك أنه يعيش عصراً حافلا بالتحدى ، عصراً تموج فيه منجزات علمية متقدمة بعضها صالح وبعضها ضار ، يرى ويسمع ويشاهد أكثر مما كان يرى ويسمع ويشاهد أقرانه فى العصور السالفة ، كما يجد نفسه فريسة قلق العصر ، العصر الذرى ، عصر الصراع الحضارى ، وهذا وغيره — مما لا يتسع له هذا التقديم السريع — بلفت النظر إلى أن

(*) لمزيد من التفصيل فى ذلك يمكن الرجوع الى العددين : الرابع والخامس من هذه السلسلة من مسابقات القرآن الكريم فى بحثى : القرآن الكريم والأسرة ، والقرآن الكريم والامومة للمفكر الاسلامى احمد موسى سالم .

قضية الطفولة — وبخاصة جانبها التراثى واللغوى — قضية معقدة كأقصى ما يكون التعقيد ، خطيرة كأقصى ما تكون الخطورة .

أدب الأطفال :

والطفل — فى مستهل حياته — يبدأ فهم مايمر به واستيعابه من خبرات تتصل بعالمه المعقد المحيط به ، وقد حرص العالم الحديث على أن يقدم للأطفال أدباً مكتوباً ومصوراً وناطقاً من شعر ونثر .

وأسهم الوطن العربى فى تقديم طائفة من الأدب إلى الطفل العربى ، وبرزت فى هذا المجال أسماءأدباء نذكر منهم — مثالا لاحصراً — الطهطاوى ، وعلى فكرى ، والهراوى ، وشوقى ، وكيلانى ، والعريان وأمثالهم .

وصاغ أميرا الشعراء أحمد شوقى مجموعة من الأمثال العربية القديمة شعراً فى قالب قصصى ، من ذلك المثل القائل : (مقتل المرء بين فكيه) فى مقطوعة (اليمامة والصياد) ، ومطلعها :

يمـــامة كانت بأعلى الشجره   آمنـــة فى عشهـــا مستتره

والمثل القائل : (من يفعل الخير لا يعدم جوازيه) فى مقطوعة : (الكلب والحمامة) ، وآخرها :

هذاهوالمعروف يا أهل الفطن   الناس بالناس ومن يعن يعن

كما قدم شوقى وغيره أناشيد دينية ووطنية عديدة للأطفال ، وقدم غيره طائفة من القصص الإسلامى حول القرآن الكريم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة ، والتابعين والأبطال .

وحفلت الدراسات التى ناقشت قضية ثقافة الطفل وأدبه بما ينبغى أن يكون عليه هذا الأدب فى محتواه ولغته وصوره وأخيلته . . . الخ ،

ورأوا أن تكون لغته سهلة ، بسيطة ذات أفكار يسيرة ، وأثبت الواقع أن كثيرين قد ظلموا اللغة العربية حين توهموا أنها قاصرة عن تلبية حاجات الطفل والتعبير عنه ، وأنها تفوق مستواه ، ونسوا أن السبب راجع إلى قصورهم لاقصورها ؛ لأنهم لم يدركوا أن لكل سن مستواها اللغوى ، وأنه يجب أن تكون ثقافة الطفل وأدبه بعيدة عن التسربل بالألفاظ الصعبة، والتوارى خلف الأساليب المجازية ، والجمل الطويلة ، والمصطلحات والألفاظ ذات الدلالات التاريخية أو الأسطورية أو الاقتصادية .

وأشد من الواهمين السابقين شططاً من أخطأوا القول بأن أدب الأطفال ينبغى أن يكون بالعامية ، وزعموا أن الطفل لايفهم الفصحى . ونسوا أن الأساس التربوى والمنطقى لتعليم اللغة للطفل وتقويم الثقافة له هو مراعاة (قاموسه اللغوى) ، ولايتجاوزه إلا بالقدر اليسير .

وللأم هنا دور كبير جليل ، هيأتها له طبيعتها التى خلقها الله عليها ، إذ يرتبط الطفل بأمه ارتباطاً شديداً ، ولاغرو أن تكون هى معلمه الأول ومصدره الفطرى للغة ، وصدق قول الشاعر :

الأم مَدْرسةٌ إذا أعددتَها   أعددتَ شعباً طيِّبَ الأعراق

الطفولة عند العرب :

ولقد حرص العرب قديماً على أداء الوظيفة اللغوية نحو الطفل منذ اللحظة الأولى لمولده ، ومنذ بدء تسميته بما يعلى من شأن البطولة ، والمروءة والقوة . وبلغ حرصهم على ذلك مبلغاً شديداً ، جعلهم يبالغون فى أسماء أولادهم فيسمونهم أسماء فيها قوة مثل : أسد ، وفهر ، وصخر .

ولاشك أن طليعة الدروس اللغوية التى كان يتلقاها الطفل العربى عن

أمه هي مرحلة ترقيصه ، حيث كانت أمه تلاعبه بكلمات قصيرة مرحة ، وأبيات خفيفة ، ترقصه على إيقاعها فتبدأ بذلك خطواته الأولى فى عالم الألفاظ والتراكيب فى أولى مراحل تلقى التعليم فى حياته حتى يصل إلى قراءته القرآن الكريم ، وما حوله من تفسير وفقه ، مع قراءة الأدب والعـــلم .

وفى مرحلة الترقيص يتم غرس كثير من القيم إلى جانب الهـــدف اللغوى ، يقول الدكتور أحمد عيسى :

« وكان للعرب نصيب موفور من هذه المقطوعات الشعرية اشتهرت فى أخبارهم ، وأثرت عنهم فى مجالسهم ومنتدياتهم ومنازلهم ، وكانوا يتخذون هذا الترقيص بالغناء وسيلة ترفيه وتسلية الطفل ، وبجانب ذلك كانوا يبتغون به غرس جميل الخصال ، وحميد الفعال فى ذهنه قبل أن يشتد عوده ويكبر ، وقد تمكنت منه الأخلاق ونقشت فى مخيلته الصفات ، وانطبعت فى قلبه القدوة »[1].

وكثرت أغانى ترقيص الأطفال بين أذرع أمهاتهم الواعيات من ذلك أغنيات ترقيص الشيماء بنت حليمة السعدية أخاها الرسول الكريم من الرضاع ، وكانت حاضنته مع أمها وذلك فى قولها له فى طفولته المشرقة برعاية الله :

هـــذا أخ لى لم تلـــــده أمى وليس من نســـــل أبى وعمى

فأنمـــه اللهـــم فيما تنمى[2]

---

(١) الغناء للأطفال عند العرب — المطبعة الأميرية — بولاق ١٩٣٦ ص ٣ .

(٢) السيرة لابن هشام ط ص ١٣٦ .

وقولها له هي وأمها :

يا ربنا أبْق لنا محمداً ... حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيداً مسّوداً ... واكْبتْ أعاديه معاً والحسّدا
وأعطه عزاً يدوم أبدا

وكانت أم الفضل بنت الحارث ترقص عبد الله بن العباس ابن عم النبي بقولها :

ثكلتُ نفسي وثكلتُ بكرى ... إن لم يَسدْ فهرا وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفر ... حتى يوارى فى ضريح القبر

ودخل على الزبير بن عبد المطلب أخوه العباس وهو غلام فأقعده فى حجره وقال :

إن أخى عباس عف ذو كرم ... فيه عن العوراء إن قيلت صمم
يرتاح للمجد ويوفى بالذمم ... وينحر الكوماء فى اليوم الشَّبِم
أكرم بأعراقك من خال وعم

ورقصت أعرابية ولدها قائلة :

يا حَبَّذا ريحُ الولد ... ريحُ الخزامى فى البلد
أهكذا كلُّ وَلَد ... أمْ لمْ يلدْ قبلى أحد

ورقصت فاطمة رضى الله عنها الحسين قائلة :

إن بنىّ شبهُ النبىّ ... ليْس شبيهاً بعلىّ

وغنى الزبير بن العوام لولده عبد الله قائلا :

أبيض من آل أبي عتيقِ مبارك منْ وَلَدِ الصديق

ألــذّه كما ألــذّ ريقى

ورقص إعرابى إبنته :

بنيّتى ريحانســة أشمها فديت بنتى وفدّتْنى أمها

وإذا كان الأسبرطيون قديماً يرسلون أبناءهم بعد ولادتهم عراة ليلة كاملة على قمم الجبال ، حتى لا يبقى على قيد الحياة منهم إلا الأقوياء الجديرون بالحياة العسكرية فى جيش إسبرطة—فإن العرب—قبيل الإسلام — كانوا يبعثون بأبناءهم إلى الصحراء منذ اليوم الثامن لمولدهم مع مرضعات من البدو ، ثم لا يعودون بهم إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، ليعيشوا فى الصحراء فيعرفوا الحرية وخشونة العيش ويعايشوا آيات الله ، ثم ليأخذوا العربية الفصحى من البدو فى سليقتهم الفطرية ، وليحفظوا الأراجيز واللغة ، وقد قال المنتجع بن نبهان لرجل من أشراف العرب :

ما علمت ولدك ؟ قال : الفرائض . قال : علمهم الرجز فإنه يهرت أشداقهم — أى يوسعها — فتفيدهم فى الخطابة .

وقال محمد عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى فترة حضانته بالصحراء ، ومخاطباً أبا بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله .

(وما يمنعنى وأنا من قريش ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر)

ولما جاء الإسلام وأشرق نوره واصلت الأم العربية رسالتها اللغوية المقدسة فأخذت تحفظ طفلها آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وتلقنه مبادىء الشريعة والدين إلى جانب اللغة والشعر وسيرة الرسول ،

وأخبار الغزوات والانتصارات ، وشرع الطفل يدرك أن تلاوة القرآن مرتبطة بالصلوات الخمس وما بعدها وما قبلها .

وقد عرف الطفل المسلم ألواناً من التعبير اللغوى السليم عن طريق أمه بالدرجة الأولى ثم عن طريق الأب والأسرة ، والمجتمع حين أخذ يسمع قصة جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ومواجهاتهم للمشركين ، ويتابع نزول آيات القرآن الكريم .

وكانت جمهرة الأطفال تتلقى الأخبار والحكايات عن الدين الجديد من أمهاتهم وآبائهم ، وها هم أطفال يثرب يشتركون مع آبائهم وأمهاتهم فى استقبال الرسول الكريم المهاجر بدينه من مكة إلى المدينة وينشدون مسرورين :

طلع البـدر علينـا	من ثنيّـات الـوداع
وجب الشكـر علينـا	مـا دعـا لله داع
أيهـا المبعوث فينـا	جئت بالأمـر المطـاع
جئت شرفت المـدينه	مرحبـا يا خير داع

وكانت الأم تصوغ لأبنائها كثيراً من القصص حول هذا الجهاد الصادق الشريف قبل أن يعقد القصاص مجالسهم فى المسجد أيام عمر بن الخطاب يقصون سيرة الرسول وسير الأمم السابقة ، ثم من بعده من الخلفاء .

القرآن الكريم واللغة :

ولقد كان قراء القرآن الكريم من أبرز معلمى هذا المجال ، ومنهم : أبى بن كعب ، والمنذر بن عمرو الأنصارى ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله ابن مسعود وأمثالهم ممن قرأوا القرآن وأقرأوه ، وتنحنى أصلابهم وظهورهم وهم يبثون النور فى قلوب تلاميذهم .

وكان هشام بن عبد الملك يقول لمؤدب ولده :

« إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينى ، وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأد الأمانة ، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم ، وبصره بطرف من الحلال والحرام والخطب والمغازى » .

وقال هارون الرشيد لخلف الأحمر مؤدب ولده وولى عهده الأمين .

« يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار » .

ولا تنقضى الشواهد على أن القرآن الكريم كان ولا يزال خير حافظ للغة العربية الفصحى ، كما كان المعين الأول للمسلمين منذ طفولتهم للحفاظ على دينهم ، فهو يقرأ فى الصلاة ، وفى غير الصلاة ، ويتلى ، ويسمع فتستقيم الألسنة ، وترقى الأذواق . وهذا هو المنهج الذى ينبغى أن تتبعه الأم مع طفلها وهى تربى وترقى ذوقه وسمعه وحسه اللغوى والدينى بالقرآن الكريم .

وفى مواجهة حركات التغريب الدينى واللغوى قامت الأم المغربية بدور كبير فى مواجهة فساد اللغة ، ونادت بأن يكون التعليم عربياً ، وأن نحافظ على اللغة العربية ومنهن على سبيل المثال :

باحثة الحاضرة ، وفتاة تطوان ، وآمنة اللوة ، وأمينة السراج ، وشقيقة السعيدى ، وإحسان الوراكلى ، وفتاة بنى سليم ، وهن من المغرب ، وفتحية المختار وزالى ، وناجية ثامر ، وعائشة بنت عمر ، ومديحة مشرقة كرو . . وهن من تونس .

أما باحثة الحاضرة فهى توجه حديثها نحو الأمهات وتوصيهن باللغة العربية ، ثم تذكر متحسرة أن صديقة لها تحسن الفرنسية وتجهل العربية زار عائلتها عربى مشرقى ألقى قصيدة بالفصحى لم تفهمها وبكت ، ثم بينت أن المرأة « واجبها كأم يجعلها مسئولة عن تلقين أبنائها لغتهم العربية الفصيحة المنتقاة . والطفل مرآة أمه ، فما حفظه وتعلمه منها يلازمه طوال حياته » .

وهكذا عادت الأم العربية تحرص على اتباع منهج القرآن الكريم فى تعليم اللغة العربية لأبنائها ، وانطلقت مناهج المربين وأولى الأمر من المنطلق نفسه ، وما اتصل بالشعر من ذلك رجع — بالدرجة الأولى — إلى القرآن الكريم ، فارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم ألقى ظلاله على الشعر العربى القديم ، الذى هو ديوان العرب ؛ ذلك أن الشعر العربى القديم يسهم فى بعض الأحيان فى تقديم العون فى تفسير بعض معانى القرآن الكريم وألفاظه ، يقول الصحابى الجليل عبد الله بن عباس :

« الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه » .

وحين تقدم بالمسلمين الزمن ، وامتزجت الأجناس غير العربية بالعربية كان اللسان العربى هو لسان التربية العلمية والمنزلية أيضاً ، فمن اعتنق الإسلام تعرب به ، وتعرب بالعربية له ، ومن أحسن أن يتكلم بالعربية لا يتكلم بالفارسية لأن ذلك يورث النفاق ، كما أوصى عمر بن الخطاب ، الذى رأى رجلا يتكلم الفارسية فى الطواف حول الكعبة فدعاه لأن يتكلم بالعربية .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله قراءة القرآن فى الصلوات الخمس وفى كثير من شعائر الدين ، وجدنا أن الأم تقوم بواجب كبير فى هذا المجال ، إذ تذكر صبيها بالصلوات وتوجهه إليها ، كما تساعده فى التعرف على أصوات اللغة وحركاتها وتصريفها وتنوينها ومدها وقصرها ، ووصلها ووقوفها ، وغير ذلك من قواعد النطق السليم والقراءة .

ومرة أخرى نقول مع الأمل : ما أشد حاجة الأم الفلسطينية فى الأرض المحتلة إلى الاضطلاع بهذه الرسالة الجليلة . رسالة تنشئة الأبناء على حب لغتهم وتراثهم وأرضهم .

وما أشد حاجتنا إلى تذكر قول المجاهد الجزائرى « عبد الحميد ابن باديس » عن أهمية الدرس القرآنى فى تنشئة الطفل على حب لغته العربية وحب تراثه بها :

« وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والآيات فى إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتى بتلك الآيات فى كل زمان ومكان ، إذا وجد ذلك الطراز العالى من العقول التى فهمته ، وذلك النمط السامى من الهمم التى نشرته وعممته ، فإن القرآن لا يأتى بآياته ولا يؤتى آثاره فى إصلاح النفوس . إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف ، وتولته بالتطبيق العملى نفوس سامية وهمم بعيدة ، كنفوسهم وهممهم . أما انتشاره بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد ، وبهذا النمط من الفهم السطحى ، وبهذا الأسلوب التقليدى من التفسير اللفظى — فإنه لا يفيد العرب شيئاً ، ولا يفيد بهم شيئاً ، بل يزيدهم بعداً عن هدايته ، ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم ، وإمعاناً فى التكالب عليهم ، والتحكم فى رقابهم وأوطانهم » .

نعم . . وما أشد حاجتنا إلى اتباع مثل هذا القول فى مناهجنا التعليمية الراهنة ، وفى بيوتنا ، ومجالسنا ، حتى يشب الطفل اليوم على ما كان يشب عليه أقرانه فى الماضى ، إقتداء بالتّربية الإسلامية الصحيحة حيث كانت الفصحى ، لغة القرآن الكريم هى العادة الراسخة على الألسنة ، وفى القلوب ، بحفظ كتاب الله الحكيم وجيد الأشعار والأخبار .

السؤال الثالث :

« ما الذى تعرفه عن عيوب طرق ومناهج تعليم اللغة العربية السائدة حاليا فى جميع مراحل التعليم ، وحتى الكليات والأقسام المتخصصة فى الجامعات ؟

وما هى الطرق الراشدة فى نظرك للتعجيل بترشيد ودعم هذه الطرق والمناهج لاحياء اللغة العربية فى حياة شعبنا المجاهد عن ذاته ومعتقداته وآماله ، انطلاقا من قدرته الكاملة على التعبير بلغته الفصحى : لغة الايمان ، والقرآن الكريم ، والتقدم ، والنصر ؟

الإجابة :

نورد فى مطلع حديثنا عن عيوب تدريس اللغة العربية وعلاجها أن ننبه إلى خطورة العامية على الفصحى ، وأن نبعد من الأذهان أن ثنائية اللغة هذه تعوق تطوير تدريس اللغة العربية الفصحى ، أو أنها ظاهرة تنفرد بها العربية فقط ، فكل اللغات المعاصرة تضم هذه الثنائية ، أى فيها الفصحى أو الرسمية أو لغة الدرس الأدبى ، وفيها العامية أو لغة التخاطب

وقد استخدمت العامية كوسيلة من وسائل الهجوم على اللغة العربية ، ولن نخوض فى تفصيل ذلك هنا ، كما أننا لن نقول مع القائلين بلغة (ثالثة) أو لغة (وسطى) كما ذهب توفيق الحكيم، إذ أن ذلك تمييع

الخصائص الفصحى ، وقد ظهر هنا فيما سمى فى لبنان (اللغة الأساسية) .

كذلك يصح لنا أن نرفض دعوة الداعين إلى العامية فى الأدب بشتى صوره وألوانه : النثرية والشعرية ، لأن ذلك ممايدخل فى تسجيل (الفن الشعبى) . ولنتفق على أنه لا بد من المحافظة على مستوى اللغة الأدبية ، وها هو رأس المدرسة الواقعية فى أوروبا (زولا) يقول عن الفصحى فى كل اللغات : « يأثم المرء كل الإثم حين يكتب فى أسلوب سيئ . وليس سوى ذلك من جريمة فى الأدب تقع عليها الحواس ، ولا أدرى أين يضع المرء الأخلاق حين ينزلهـا منزلا آخر . الجملة المحكمة الصياغة فى ذاتها عمل طيب) .

ولنتساءل الآن لماذا لم تتسع الهوة فى لغات الآداب الأخرى كما اتسعت فى أدبنا ولغتنا ؟

نذكر من أخبار السلف أنه قيل حين أخطأ عربى ولحن « أرشدوا أخاكم فقد ضـــل » أى أنهم جعلوا اللحن قريباً من الكفر . وكتب البيهقى فى « المحاسن والمساوىء » عن مساوئ اللحن ، كما كتب غيره « لحن العامة » وقامت بحوث عديدة تواجه استشراء العامية وأخطاء العامة حفاظاً على العربية فى ديباجتها النقية ، كما يحفظها إلى الأبد القرآن الكريم .

ولن تتمثل صعوبة أو عيوب تعلم اللغة العربية فى وجود العامية، لأن لهجة التخاطب لا تؤثر كثيراً على لغة الدرس والثقافة ، ويخطىء من يفسح للعامية صدره ، إذ أنها توسع الهوة بين شعوب الوطن العربى ، إذ أن لكل منها لهجة تحمل سماتها الإقليمية ، وإذ الأجدى أن يكون للوطن العربى لغة واحدة تجمع بين أجزائه ، ومشرقه ومغربه ، وإذ

الأجدى أن نخلص لغة الثقافة لتكون لغة واحدة لا تعرف الخلط والاضطراب . .

وكذلك فقد أثيرت مناقشات حول ما سمى بطريقة الكتابة العربية مما يتصل بقواعد الإملاء ، ورسم الحروف والهمز والألف المقصورة، والرد على هؤلاء أنه لا تخلو لغة من قواعد الإملاء ورسم الحروف والإعراب . وقد وقف مجمع اللغة العربية دورة كاملة سنة ١٩٤٤ لإصلاح الكتابة ، وناقش كثيراً من قضاياها واقتراحاتها وسبل تيسيرها . .

العيوب السائدة فى تعليم العربية :

ولقد يمكن لنا أن نلم الآن بالخطوط العامة لبعض عيوب تدريس اللغة العربية تمهيداً لمناقشة سبل علاجها .

والملاحظة الأولى أن علينا الاحتكام إلى الكم لا الكيف فى الظروف الحاضرة لتعليم اللغة العربية ، وذلك سواء فى عدد الدارسين أو فى مناهج دراستهم ، فلقد فرضت علينا ظروف مجتمعنا من حيث تعداد السكان، وضعف الإمكانات أن تضم حجرة الدراسة عدداً هائلا من الطلاب يعجز معه المدرس عن القيام بمهمته التى تناسب تعليم اللغة من تدريب ومن وقوف دقيق على المستويات للطلبة ، وملاحظة الفروق الفردية ، ومعرفة عيوب النطق ، وغير ذلك مما يضيع فى زحمة الفصول بالعدد الهائل . .

وهناك جانب آخر من مشكلة « الكم » ، وهو الخاص بحجم المادة العلمية المدروسة من قراءة ونصوص وتاريخ الأدب وغير ذلك

من مواد تضيع معها حقيقة مهمة وهى طبيعة اللغة وطرق ضبطها ، وحسن نطقها وتقويمها . ولقد أدى هذا العيب الشديد إلى فقدان النطق السليم ، والتعبير الدقيق ، لدى الدارسين والمدرسين على حد سواء ! . .

قواعد بغير تطبيق :

كذلك فقد ارتبط بالكم الهائل للمقررات فى مادة اللغة العربية انصراف الدراسة عن التطبيق إلى القواعد النظرية فى موجة (حشو) هائلة تنتهى إلى التراكم الكمى للمعلومات غير المترابطة دون هضمها واستيعابها وتطبيقها وتذوقها ، ولهذا ضعف النطق السليم عند عامة الخريجين والخريجات ، إذ نسينا تحقيق أهداف المنهج السليم فى الإجابة عن : ماذا نعلم ؟ وكيف نعلم ؟ ومتى ، ولمن ، ومع ماذا ؟ وكيف ننظم ما نعلمه ؟ وكيف نقدمه ؟ .

ولقد زاد من الاضطراب والتناقض فى مسيرة هذه الموجة من الحشو الكمى ، ومن سوء النتائج لتعليم العربية ، ما حفلت به المادة المقدمة فى شتى فروع اللغة العربية الكثيرة بلا مبرر — من مواد قديمة وحديثة ، محلية وأجنبية ، شرقية وعربية ، دينية وغيرها ، وهذا كله دون تنسيق يحمى الدارس من ضياع هوية ثقافته نتيجة التعدد ، أو التشابه أو التنافر ، أو التناقض !

المعلم والكتاب :

وقد ارتبط بذلك كله سوء إعداد المعلم — فى شتى مستوياته — للأسباب السابقة ولغيرها من أسباب ترجع إلى (تنسيق) مكتب التنسيق، وغير ذلك من أسباب ، فأدى الضعف إلى ضعف أشد خطراً بمن يحتشدون فى الكليات من دارسين ، وما يتخرج منها من خريجين لم يعدوا

إعداداً كافياً فى أهم مصادر ثقافتهم وهو لغتهم القومية العربية .

ولقد بذلت جهود مشكورة فى المجالات السابقة ، وفى مجال الكتاب المدرسى ومع ذلك بقى الكتاب المدرسى مشكلة ، إذ تقتله — إذا جاز التعبير — حركة التجارة المادية فى الكتب الخارجية ، ولو أنصفنا لقرنا الكتاب الخارجى حتى لا يصاحبه كتاب خارجى آخر ! كما قيدت الكتاب المدرسى شروط تمليها الوزارة وتعممها وتساوى بين بيئات الجمهورية على تراميها واختلافها مهتمة بالموضوع لا بأهدافه اللغوية .

ولقد خطا العلم خطوات ، وحتى الآن لم يحسن المسئولون عن تعليم اللغة العربية الإفادة من تقدم الوسائل المساعدة أو المعينة : سمعية وبصرية ، بالرغم من التقدم العالمى الواضح فى هذا المجال ، وما يمكن أن يقدمه للتدريب اللغوى من معونة ومساعدة .

الشعر المظلوم :

ولقد احتل الشعر العربى منزلة ثابتة فى لغتنا ، وظل هو ديوان العرب الذى أسهم فى تفسير جانب لغوى من القرآن الكريم ، كما ظل مجال السبق الأدبى الأول ، وارتبط ذلك بما للشاعر من مكانة أدبية وقومية بين قومه . لكننا فى مدارسنا نظلم الشعر العربى الذى هو معين لغوى مهم ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ — سوء اختيار الشعر المدروس وبخاصة فى المراحل الأولى للدراسة .

٢ — تحديد ما يحفظ دون الرجوع إلى ذوق الطالب واختياره ، حتى لقد سميت المادة قديماً (المحفوظات) وهى تسمية جامدة توحى بالقسر لا الاختيار .

٣ – سوء إلقاء الشعر بشكل يجعله قريباً من النثر ، ويفقده ما فى الشعر من حلاوة الإنشاد .

٤ – تجاوز الحدود فى تناول النصوص بتحميلها مالا تحتمله بما يبعدها عن أهدافها ووظيفتها ، وبما يبعد المادة عن خصيصة الإيجاز التى هى من سمات العربية المميزة .

٥ – سوء نطق الشعر وضبطه من قارئه ومعلمه ، مما يضيع كثيراً من خصائص لغتنا الجميلة .

٦ – عدم الإفادة من الأجهزة العلمية الحديثة السمعية والبصرية فى هذا المجال .

وهناك بعد ذلك عيوب أخرى ترجع إلى عدم إدراكنا أن الأعراب فرع المعنى وليس العكس ، والاعتماد على حفظ القواعد لا فهمها وهضمها ، مما يفسد السليقة اللغوية ، ويشجع التلقين والتلقى الجامدين. يضاف إلى ذلك الاعتماد على اللجان الأساسية والفرعية ، والتخطيط النظرى المركزى ، والاعتماد على عناصر من خارج الميدان اللغوى فهى لا تحسن التخطيط له .

طرق العلاج :

أما علاج ذلك وغيره من عيوب فيتمثل فى تدارك أمور منها :

الاهتمام بالجانب التدريبى والتطبيقى فى جميع مراحل التعليم : قراءة ، ونطقاً ، وسمعاً ، وإحساساً ، وتذوقاً ، وتمثلا ، واختياراً ، وخلقاً . وزيادة الاهتمام فى الجامعة بدروس التدريب اللغوى بحيث تفوق فى كمها ما عداها من دروس حتى يتم إعداد المعلم إعداداً جيداً يستقيم معه لسانه .

الاهتمام بإعداد معلم ومعلمة المرحلة الابتدائية ، لأنه يمثل المعلم اللغوى الثانى بعد الأم والأب للطفل العربى .

عدم الانشغال بحجم المواد الدراسية عن كيفية وطرق تقديمها وتوصيلها ، فاللغة أساساً عملية اتصال ، وبخاصة اللغة القومية . ويرتبط بذلك تصفية المواد المدروسة والتركيز على ما يخدم اللغة أساساً .

الإفادة من الوسائل العلمية فى تقديم المادة الشعرية والاهتمام بالإلقاء الجيد ، والإفادة من أعلام الإلقاء فى بلادنا ممن حفلت بهم الأمسيات الشعرية فى الشهور الماضية ، وممن نسمعهم فى البرامج الإذاعية واشتهروا بالإجادة .

مضاعفة الجهد فى مجال المعالم اللغوية والمصطلحات ، وحسن التنسيق بين معاهد اللغة العربية — على كثرتها — ما بين وزارة التربية ، والأزهر الشريف ، وعلاج النحو الإعرابى بتبسيطه وتنقيته من الفلسفة والتنظير والمبالغة والتفريع .

فضل القرآن حفظاً وترتيلا :

وأخيراً فإن علينا أن نحسن استخدام نصوص القرآن الكريم فى مادتى : التربية الإسلامية واللغة العربية ، بما يحقق الجانب الدينى فى رسالة القرآن ، والجانب اللغوى فى كلماته وآياته ، وأثره البيانى ، فهماً وتلاوة واستماعاً وقراءة ، وهنا يمكن الإفادة من تسجيلات المصحف المرتل لتسهم فى رقى الأداء للغتنا وتصريف لساننا ، ويتصل بذلك تعميم نشر المصاحف بين الطلاب بثمن رمزى أو بلا ثمن .

ولقد يسهم فى هذا المجال إسهاماً كبيراً حسن تلاوة القرآن الكريم ،

فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يخلى ليله ونهاره من تلاوة القرآن ، كما قال القرطبي : كان يختمه فى سبع ، وهكذا قال لعبد الله بن عمر رضى الله عنه : « واقرأ فى كل سبع ليال مرة » . وكان قد قال له أولا : « واقرأ القرآن فى كل شهر » فلما قال له : إنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين وإلى الخمسة عشرة وإلى العشرة ، وانتهى به إلى السبع . وكان هذا فعل كثير من السلف .

ولعل فى زيادة العناية بالقرآن الكريم ما يخفف من عيوب المناهج الدراسية التى قد تعتمد على تقديم المادة اللغوية والمصطلحات ومتن اللغة حتى نصل إلى تحقيق اللغة التى تفيد الفرد فى تحصيل ثقافته ، وتحصين دينه . وهذا أجدى من الإنشغال الشكلى بصور الكلمات لاسيما وقد حظيت الأمة العربية بالتحرر من المحنة الاستعمارية المباشرة التى كانت ألمت بها ، كما بات لزاماً على من يريد تحصيل العلوم الأخرى فى مراحل الدراسة أن يتقن لسانها وهو العربية .

ويبقى بعد ذلك أن يجد التلميذ فى مدرسه قدوة إجادة اللغة ، والحرص عليها فى مراحل التعليم المختلفة ، وبخاصة فى قاعات الدرس ، وأن نهتم بالقراءة الجهرية على مستوى الفرد لا المجموع ، وبخاصة آيات الذكر الحكيم ، مع العناية بالحفظ القائم على الفهم ، وأن نهتم بإحياء الخط العربى ، وإعادة الحروف إلى أوضاعها المألوفة الصحيحة ، وأن ندرس اللغة العربية كوحدة متكاملة ، وألا نعتبرها فروعاً قائمة بذاتها ، اعتماداً على أركان نظرية الدراسة التكاملية فى اللغة ، وهى :

الاستماع والحديث ، والقراءة والكتابة ، وهى ما تسمى (مهارات اللغة) .

والله الموفق إلى سواء السبيل . .

بحوث القسم الرابع

القرآن الكريم

والتدبير

يجيب عنه

الدكتور ابراهيم هلال
مدرس الدراسات الاسلامية
بكلية البنات - جامعة عين شمس

السؤال الأول :

يقول الله تعالى لقوم النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم الى تدبر القرآن الكريم :

« كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ »

ص : آية ٢٩

.. ما هى الوسائل والظروف التى كانت ميسرة لقوم النبى من قريش ومن قبائل العرب الوافدين على مكة للحج ، لتدبر القرآن الكريم ، وليتذكروا به ما غفلوا عنه من الحق ؟ .

الإجابة :

خلال آلاف طويلة من السنين ، ومنذ أول فجر التاريخ الإنسانى ، عاش العرب فى جزيرتهم قبيل الرسالة الخاتمة بالإسلام والقرآن أحراراً فى جزيرتهم ، ما بين الشام واليمن ، لا يملك أكاسرة الشرق ، أو قياصرة الغرب ، أو ملوك اليونان ، أن يقتحموا عليهم حصنهم المنيع ، أو أن ينتقصوا من حريتهم التى تشرق عليهم فجر كل صباح ، وتتلألأ بأمنهم مع نجوم كل مساء .

وهكذا عاش العرب بهذه الحرية مالكى إرادتهم ، وأصحاب القرار فى كل ما يمس أسباب وجودهم بالعزة والأمن فوق أرضهم ، رغم اختلافهم إلى شعوب وقبائل ، وإلى قحطانية وعدنانية .

المعبود هو الله :

فى ظل هذه الحرية الساطعة المبرأة من جور الملوك ، وتمويه الكهان ، وهوان العجز ، وعجمة اللسان ، كان الطريق مفتوحا — فى اختيار

هذه الأمة التى اجتباها الله للإسلام ، واصطفى من بينها الرسل — ليكون المعبود والمولى والملك هو الله وحده بغير شريك أو شبيه . لقد كان الله باسمه الذى لا تحمله لغة أخرى ، وبصفاته التى يغاير بها الخلق ، ويتنزه بها عن التجسيد هو المعبود بينهم بحق ، فى حالات الأفاقة والصحوة والشكر على النعمة . لقد كان هو المولى المحبوب ، والنصير القريب ، حتى وإن أشركوا بطغيان الغنى ، وغلبة اللهو ، فإنهم لا يلبثون كلما مسهم الضر ، أن يعودوا إليه وحده ، ويضرعوا له دون سواه ، وينسوا ما يشركون ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

« ولَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ . وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِّنكمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » النحل : آيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

ويقول الله سبحانه وهو لا ينفى حبهم له ، وأنه المولى والنصير والمعبود لهم فوق كل ما قد يتقربون بهم إليه فى أعصر الهوى والاسترخاء للمتاع . ويجعل من هذا الحب الذى لا ينفيه حجة عليهم ليخلصوا العبادة والطاعة له بغير شركاء ، كما جاء فى قوله لهم على لسان نبيه المصطفى :

« قُلْ إِنْ كنْتُمْ تُحبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » آل عمران آية : ٣١

بهذه الحرية الفريدة ، تفكراً ، وتعبيراً ، وعملا ، وعرفا حاكما ، ملكوا إرادتهم فلم يستعبدهم ملك ، ولم يدلس عليهم كاهن ، بقى

عهدهم مع الله وثيقاً ، والتزامهم بولايته أصيلا ، حتى إذا ما شاء الله فى حكمته فأقام إبراهيم وإسماعيل القواعد من بيت الله فى مكة ، وأصبح هذا البيت حرماً آمنا لمن يقيم بجواره ، ولمن يحج فى موسم الحج إليه ، كان هذا الجوار لبيت الله الذى نالته قريش على عهد قصى سنة ٤٠٠ م قبيل بعثة الرسول الكريم شرفا لحائزيه ، وبذلا وعطاء فى سبيل الله ، ورياسة وحفاظا على الدين . بينما أصبح الحج — منذ إبراهيم وإسماعيل — فريضة على كل القادرين من العرب كل العام . يفدون إلى حرم الله فى الأشهر المعدودات ليعطوا الله ميثاقهم وعهدهم على الوفاء بعهده وميثاقه ، ثم يتاجرون وينتدون بمجالس الأدب والشعر ، فيفصح اللسان ، وتتعرب اللغة ببيانها المكنون ، عالية بخصائصها ، عذبة وغالبة بإيقاعاتها وأصواتها ، تنتظر ما ادخره الله من قدرها بالقرآن الكريم الذى تخلد به ، ولتكون بتمام نعمة الله بها عند نزول القرآن الكريم بلسانها وأصواتها علما لا ينقطع ، ونوراً لا يخبو ، لتتعرب الألسنة والعقول ، والقلوب والأعمال ، على الطريق المفتوح بها إلى الدين الحق ، والإسلام الخاتم .

نعمة اللسان العربى :

لقد تمت نعمة الله على العرب وبخاصة من أبناء إسماعيل وعلى رأسهم قريش بهذا اللسان العربى المبين ، الذى صاروا به عربا يبينون عن الحق ، بعد أن أشهدهم الله البرهان على هذا الحق عندما عرفوا الله — فوق غيرهم من الشعوب — فى سعيهم بين آياته ، وتفكرهم بين سمائه وأرضه ، وهم يتحركون فى واقع البداء المتحرك بأضوائه وأصدائه ومشاهده من حولهم ، ليشكروا الله على نعمته بالحرية ، وعلى نعمته بالبيان ، وعلى

نعمته بهدايتهم إليه ، أمراً بينهم بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، بعد أن اجتباهم وسماهم المسلمين ، على ملة أبيهم إبراهيم .

من أجل ذلك ما كان ينبغى أن لا تستمر هذه الفرية التى ألصقتها الشعوبية والصهيونية العالمية بالعرب قبيل الإسلام ، وهى نعتهم بالهمجية ، والعدوانية والوثنية التى لا يوصف بها إلا من لا يعرفون الله الحق ، ولايدينون بدين حق ، منكبين على آلهتهم التى يفسرون بها الحياة ، ويجعلونها هى مصدر الحياة ، ويقسمون بينها فى أساطيرهم أنصبتها واختصاصاتها فى تدبير الخلق وتسيير الحياة !

فالعرب من أبناء إبراهيم وإسماعيل كانوا على الإسلام الذى هو ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، فلم يطرأ عليهم قبيل حلول قريش إلى جوار الكعبة هذا الذى طرأ عليهم من الشرك ببعض أسماء الأصنام الوافدة عليهم من الشام إلا على عهد عمرو بن لحى الخزاعى .

فنى السيرة النبوية لابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هجرية أن أول من أدخل فى دين إبراهيم وإسماعيل ما ليس منه ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى ، هو عمرو ابن لحى الخزاعى الذى نفى « جرهم » عن بيت الله ، وغلبها عليه »

ومع ذلك فإن هذه الأصنام الرومانية واليونانية التى استوردها عمرو ابن لحى من الشام بعد أن ذهب يستشفى فى بعض مياهها المعدنية بالبلقاء مثل « هبل » الذى هو « أبولو » إله الشمس والشعر عند اليونان لم يكن لها بين العرب أى وزن يقترب مما كان لها عند شعوبها التى اخترعت أساطيرها ، ولا تزال إلى اليوم تتمجد بأسمائها فى هذه الأساطير .

إن أحداً لا يستطيع أن يأتى ببيت من الشعر الجزل لواحد من فحول شعراء العرب الذين صاغوا أشعارهم فى الحكمة ، ومكارم الأخلاق ، وتقديم حق الله على كل ما عداه من الحقوق .

وإن أحدا لا يستطيع أن يدعى أو أن يزعم أن العرب فسروا الخلق للسماوات والأرض ، وللإنسان ، على أنه « عمل تعاونى » بين آلهتهم المستوردة فى أسطورة توارثها العرب ، لتلقى على مثل اللات والعزى ومناة ، سلطان الخالق الذى عرفوه ، وأحبوه ، وسموه بأسمائه الحسنى ، وهم ينزهونه عن التجسيد والتحديد بقولهم « الله» ..

فالأصنام المستوردة إليهم ، كالكثير الذى ما يزال أعداؤنا والطامعون فينا يستوردونه لنا ، ويدسونه علينا ، لم تكن عندهم شيئا مذكورا ، إنها لم تنسهم فيما عدا القليل الذى انحرف البعض إليه فى سورة الغنى ، وفتنة المتاع ، ودسائس اليهود بالربا ، وأغانى القيان والخمر ، أن الله هو « الذى يجير ولا يجار عليه » وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم فى قوله تعالى :

« قُلْ لِّمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُل مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَىءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْه إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »

المؤمنون الآيات من ٨٤ إلى ٨٩

إذن فهؤلاء الذين كانوا ينتظرون النبى المصطفى من بينهم ، بعلامات لا يمكن خفاؤها عليهم ، لم يكونوا يمارون عن جهل ، أو عن وثنية ، أوعن همجية ، وهم أول من كتب الكتابة ، واخترع الحروف ، وصنع مع أداة العلم منهج العلم ، وذلك قبل دعوة النبى بآلاف السنين .. إنما كانت المماراة عن تباطؤ المترف ، وتكذيب الطامع ، وفتنة اليهود المتربصين لظهور هذا النبى ليمنعوا التصديق به ، فهم يتاجرون فى كل محرم من أول الخمر إلى القيان ، وربا الأموال ، وحتى تجارة الأسلحة ، وشعر التحريض على الثارات بين القبائل . .

وهكذا .. مع نزول القرآن الكريم فى موعده مع تمام نعمته العظمى على قوم النبى ، وهى اللسان العربى المبين ، لم يلبث الغافلون أن انتبهوا ، والهازلون أن جدوا ، والمكذبون أن صدقوا ، ومن أكلهم الحقد والمس ، وأدارت رؤوسهم حمية الجاهلية باتجاه معكوس ، ونظر مقلوب ، فهؤلاء على قلتهم أكلتهم السيوف فى أصغر المعارك التى عرفتها البشرية عدداً وأقلها عدة .. وتحقق لهذه الغالبية العظمى من قريش ومن الأوس والخزرج ومن بقية قبائل العرب حول بيت الله ، أن يخشعوا لذكر الله ، الذى لو كان من عند غير الله لأنكروه ، ولوجدوا فيه اختلافا كثيرا ، وهم الحجة على تنزيله من عند الله ، كما أن الوحى بهذا الكتاب هو الحجة عليهم بالمسارعة إلى الإيمان بالرسول وطاعة الله .. ولقد آمنوا حقاً .. وهم يعرفون رسولهم بعد أن مضى وقت المماراة وأشرقت شمس الحق ، ولم يعد مجال لأن تنكر أمة تنتظر رسولها — هذا الرسول ، وذلك كما جاء معناه فى قوله تعالى من حجة البيان العربى فى ألسنتهم عليهم :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمْ الأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسولَهُمْ فَهُمْ لَه مُنْكِرُونَ » المؤمنون آية ٦٨ و ٦٩

نزول القرآن الكريم :

لقد كان تمام هذه النعمة على قوم النبى باللسان العربى المبين هو المنطلق لهذه النعمة الكبرى ، الحافظة للعرب بدينهم ، والحافظة لهذا الدين بكتاب الله إليهم بلسانهم ، وهى نزول القرآن الكريم ، كما دعا به إبراهيم وإسماعيل وهما يقيمان القواعد من بيت الله فى مكة ، هذا القرآن الذى هو للعرب حياة متجددة ، وهو للبشرية رحمة غير منقطعة ، وهو للدين الحق بقاء لا يبلى ، ونور لا يأفل ، وحجة لا تنقطع .

إنه إذا كان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، كما قال ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . فإن اللغة العربية كانت قد استدارت وكملت وحق لها أن ينزل بها ، وبأفصح لهجة فيها – لهجة قريش – آخر كتاب من الله جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه ، ومعداً لصلاح البشرية وإصلاحها إلى أن تقوم الساعة ، حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للأنبياء والمرسلين ، ومتمماً لمكارم الأخلاق .

وكان أهل اللغة العربية أيضاً قد استتموا نعمة الله الظاهرة عليهم بتمام تعبيرهم بها مع إستدارة الزمان ، حتى أصبحوا مهيئين بما اشتملت عليه من عناصر الإبانة ، والإفهام ، وخواص الفطرة فى جميع جوانبها

– لأن يكونوا أول من يتلقى كتاب الله فى أسلوبه الحكيم ، ولغته العربية المبينة ، كما قال الله سبحانه عنه :

« وَإِنَّه لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِه الرُّوحُ الأَمِين عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مبِينٍ »

الشعراء : الآيات ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

هذه الأصالة فى اللغة ، والنضج فيها ، هى إحدى الوسائل التى يسرت لقوم النبى من قريش ، ومن قبائل العرب الوافدين على مكة تدبر القرآن الكريم ، والتأثر به ، والوصول بهذا التدبر والتأثر إلى تذكر ما غفلوا عنه من الحق ، طيلة الفترة التى ضعفت فيهم حنيفية أبيهم إبراهيم بعد أن أدخل عمرو بن لحى الخزاعى على دين إبراهيم هذا الكثير الذى ليس منه كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ولذلك حين كانت تخلو نفوسهم من العنت والحسد وحب الرئاسة ، والكبر ، أى حين كانت تخلو النفوس من غلبة هذه الأهواء بالغنى والاسترخاء ، وفتنة الشرك ، وفتنة اليهود بالربا والقيان ، كنا نجد هؤلاء الفصحاء أهل اللسان المبين من قريش قوم النبى عليه الصلاة والسلام لا يملكون أنفسهم عند سماعه من الاستجابة لهذا الدين الحق الذى نزل به وحى القرآن الكريم بهذا اللسان العربى المبين على هذا النبى المنتظر بين قومه ، وبين أهل الكتاب ، ليكون خاتم النبيين ، وصفوة المرسلين[1].

فنحن نعرف أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد اشتهر عنه

---

(١) راجع كتاب « لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب » ص ١٢١ للكاتب الاسلامى احمد موسى سالم .

بصره بالنقد والبيان ، لم يملك نفسه حين سمع القرآن من السعى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم بن الأرقم ، أو دار التخفى فى فترة الإسلام الأولى ، ويعلن إسلامه وإيمانه به ، وهو لا يزال على باب الدار يستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خاف الجميع أن يفتحوا له ، نظراً للبطش الذى تقدم منه لمن كانوا يسلمون . والقصة مشهورة ، وهى أنه كان قد علم أن أخته وزوجها قد أسلما فذهب إليهما ليبطش بهما ، أو ليردهما عن دينهما ، ولكنه حين سمع قراءتهما للقرآن أنصت ، ثم دق الباب وأخذ يقرأ ما كان مكتوباً معهما ويقرآن فيه من سورة طه ، فكان أن عنا وجهه للحى القيوم ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه .

هذه الأصالة ، وهذا التمام لنعمة اللسان العربى ، وهذا السمو البيانى إلى وعى لغة الفطرة والقرآن والحق . نجدها فى خصائص قوم النبى صلى الله عليه وسلم كأظهر ما تكون حين نتأمل هذا الخبر الطريف والعجيب فى الوقت نفسه ، فقد روى ابن إسحق فى السيرة النبوية : أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لايعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة التالية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه السابق من بيت النبى ليستمع إلى القرآن ، فباتوا فى هذا الشأن وهم فى عجب لا يملون السماع سراً إلى ما استحوذ عليهم من وحى الله وقرآنه . حتى إذا

طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقالوا لأنفسهم مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون للقرآن ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض وقد خافوا فتنة المشركين بهم : « لا نبرح حتى نتعاهد أن لانعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا »[1] .

نلاحظ هنا ، أن جلال البيان القرآنى فى صدوره الحق عن الله ملك قلوبهم وأسماعهم ، فلم يحل بينهم وبين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت إلا استيلاء الكبر ، والغيرة أن تكون الرسالة والمحمدة بها فى غير من يحبون من كبارهم ، أو الأقربين إليهم .

ولقد أشار إلى ذلك أبوجهل فى حديثه إلى الأخنس بن شريق ، وقد ذهب إليه صباح الليلة التى استمعوا فيها للرسول للمرة الثالثة ، فقال له الأخنس: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال: ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب (أى أقعينا) وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؛ فمتى ندرك مثل هذه ! ؟ . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه[2] .

زعامـــة الشرك :

كذلك تتجلى لنا هذه الأصالة اللغوية والمستوى العالى فى البيان ،

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩ .
(٢) سيرة ابن هشام نفس الجزء .

والقدرة على النقد من قصة عتبة بن ربيعة والد هند زوجة أبى سفيان مع الرســـول صلى الله عليه وسلم حين ذهب إليه ليفاوضه على ترك الدعوة إلى الإسلام مبعوثاً من قريش . فجلس إليه وقال له : « يابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال عتبة : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه »

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع له قال : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاسمع منى ؛ قال عتبة : أفعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم . .

«حٓمٓ . تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ

(١) أى التابع من الجن .

فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا ، وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوه وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَايُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

سورة فصلت : الآيات من ١ – ١٢

حتى إذا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلاوة سورة فصلت إلى قوله تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَايَسْأَمُونَ »

فصلت : الآيات ٣٧ ، ٣٨

لم يملك عتبة نفسه من السجود لله سبحانه وتعالى مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعد السجدة قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ؟ قال عتبة : فأنت وذاك .

وقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : « ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأعظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال هذا رأيى فيه ، فاصنعو ما بدا لكم[1] .

هذه قصة من قصص التدافع الأولى بين الإيمان والشرك ، وهى فى الوقت نفسه من قصص مغالبة النفس المدركة للبيان العربى ، والواعية للآيات التى نزلت من الله : (بلسان عربى مبين) وذلك بدافع التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، والتعصب للنفس ، وللرئاسة ، ولكننا مع ذلك رأينا الإيمان فى بيان القرآن الكريم وإعرابه قد غلب الشرك والتعصب ، حتى رأينا كبير القوم هذا وسفيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لقومه : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » ! ! .

ولقد أوردنا القصة بكمالها وكل مقدماتها ونتائجها ، لنتبين مدى المفاجأة البيانية فى وحى القرآن الكريم ، وحكمته ، ومحكمه ، وترتيله ،

---

(1) سيرة بن هشام ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

لهذه القيادة الدينية المهزومة بأطماعها وخيلائها ، وبمتاعها ولهوها وأموالها وأولادها ، فى قريش وما أصابها — مع انتشار الإيمان بالقرآن من هزيمتها بنفس سلاح البيان الذى كانت تفاخر به ، وترفع من قدرها ببلوغها فوق العرب المبينين هذه الدرجة الرفيعة التى كانت لقريش فى فصاحة لسانها ، ونقاء عبارتها ، وما منع هذه القلة القيادية المهزومة من أن تخشع لذكر الله ، وأن تتدبر الآيات ، وأن تؤمن وتطيع إلا ما سبق من شقوتها بالهوى والغرور والحسد .

لقد كان الدافع على سفارة عتبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أمل مرسليه فى تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته ، ولكنهم أمام بيان القرآن وحجته ونوره لم يملكوا أو لم يملك سفيرهم إلا أن يسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتركه وشأنه ، ويكف عنه حربه وأذاه ولم يمنع من إعلان إسلامه ، إلا ما تأصل فيه ورسخ من حكم العادة والتقليد ، وإن كان سياق القصة ونهايتها يعطينا أنه كاد أن يسلم .

وهناك من هذا القبيل قصة أخرى ، دارت على ظهور ملكة النقد وسمو القدرة على البيان ، وتمييز الكلام الجيد من الردىء ووضع البليغ فى موضعه اللائق به ، وهى تقدم لنا هذا المستوى العالى من الثقافة اللغوية عند قريش قوم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإدراكهم أن القرآن من عند الله ، وأنه لا منال فى محاكاة بلاغته وهديه لأحد ، فقد اجتمع إلى الوليد ابن المغيرة نفر من قريش ، وكان الوليد ذا سن وشرف فيهم ، وقد حضر موسم الحج فقال لهم : إن وفود العرب ستقدم عليكم فى هذا الموسم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم (يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ،

فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ؛ قالوا فأنت يا أبا عبد شمس ؛ فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن قال : لا ، والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة[1] الكاهن ولا سجعه . قالوا فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا فنقول : شاعر . قال ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : « لا والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[2] وإن فرعه لجناة . قال ابن هشام : ويقال لغدق[3] وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ، ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته » فتفرقوا عنه بذلك . وتمام القصة أن ما زعموه قد جاء بغير ما يشتهون ، وما كان من الممكن صرف من اجتباهم الله من هذه الأمة من العرب من أبناء إسماعيل عن الإيمان بكتابه ورسوله ، عندما استدار الزمان لتمام وعده لإبراهيم وإسماعيل ، وقد نزل فى الوليد بن المغيرة قرآن كريم فى سورة المدثر ينذره الله فيه على عناده وكفره رغم إقراره بصدق القرآن :

---

(١) الزمزمة : الكلام الخفى الذى لا يسمع .
(٢) العذق : النخلة . يشبه القرآن الكريم بالنخلة التى ثبت أصلها ، وقوى وطاب جذعها وامتد فى السماء وكثر جناها وحلا .
(٣) الغدق : الماء الكثير .

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً » . المدثر : الآيات ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦

إنتصار التدبر :

وبهذا التقدير الفاشل ، والتخطيط الخاسر أعلن قادة المشركين بأسرع وسائل البيان عن ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبروا كل العرب فى مواسم الحج ، ومع سرعة تناقل الأقوال البليغة بأخبارها وبيانها، عن ظهور نبى من قريش بجوار الحرم ، يتلو من الله آيات مطهرة ، وهو النبى المنتظر فى وعد الله لإبراهيم وإسماعيل .

وهكذا كان من يحاربون الله ورسوله من هذه القيادة المنهزمة إنما يساعدون على الدعوة إلى سبيل الله، حيث يتوافد العرب فى مواسم الحج التالية لذيوع الأخبار والأقوال والآيات المبينة قادمين من أرجاء الجزيرة وكلهم يسأل ويسعى إلى هذا النبى الجديد، ويتطلع إلى ما جاء به ، مشوقاً إلى سماع ما نزل من الله إليه ، وقد جاءوا ومعهم بقية من دين إبراهيم كالتى عند قريش ، ومعهم كذلك بيانهم ولسانهم وعقولهم وأذواقهم وإدراكهم المتوارث لجيد القول ، وفصيح الكلام ، فكانوا إذا سمعوا إلى الرسول يتلو عليهم بعض ما نزل عليه من وحى الله بالقرآن الكريم أخذوا به ، وملك عليهم أفئدتهم ، وعرفوا أن موقف بعض مشيخة قريش من معاداة هذه الرسالة والتصامم عن تدبر ما نزل من الكتاب ، ليس بالموقف الذى يتبعونها عليه ، بل كانوا يؤمنون ، ويعودون إلى قومهم بما فتح الله عليهم من الهدى والإيمان ، وما نقلوه عن النبى وسمعوه

وحفظوه من آيات القرآن الحكيم ، ليدعوا قومهم ، ويبشروهم بالرسول المنتظر ، والرسالة الخاتمة ، ونصر الله وفتحه القريب للمؤمنين .

وكان إدراك أهل المدينة من الأوس والخزرج لهذا البيان وتدبره سبباً فى التحول العظيم للدعوة الإسلامية ، ولحياة العرب أجمعين ، بل لحياة العالم كله فآمنوا ، وآووا ، ونصروا .

فاللغة العربية كانت بخصائصها الدينية والدنيوية ، وأصواتها وتراتيلها الغنية ، معينة لهؤلاء العرب على تدبر القرآن ، وما جاء به من هدى ، وبيان وبينات ، وكان هذا الرقى البيانى ، والإعراب اللغوى سبباً فى بلوغهم بفضل الإيمان والجهاد إلى مستوى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

لقد كانوا بهذا البيان الذى أسعدهم فى الدنيا والآخرة إذا سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهمْ بِأَنَّ لَهمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْه حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ ، وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذى بَايَعْتمْ بِه وَذَلكَ هُوَ الْفَوْز الْعَظِيمُ »

التوبة : آية ١١١

سارعوا إلى شراء أنفسهم أو بيعها إلى الله ، وأقبلوا على الموت والاستشهاد فكان لهم النصر ، وسحق الأعداء ، وإجلاؤهم ، ووراثة أرضهم وديارهم وأموالهم ، كما قال تعالى فى شأن نصر المسلمين على يهود المدينة وكانوا يزعمون إعدادها واحدة من المستوطنات التى تيسر

لهم مع غيرها فى خيبر وتيماء ووادى القرى إقامة دولة توسعية عدوانية لهم فى شمالى الحجاز :

« وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيراً » الأحزاب : آية ٢٧

ولقد رأينا عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) وقد أمد به عمر بن الخطاب عمرو بن العاص رضى الله عنهما — يدخل على المقوقس عظيم القبط فى مصر فيرتج قلب المقوقس من مهابته ، ثم يقول له عبادة رداً على ما هددهم به من جموع الروم وكثرتهم « إنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً وما منا أحد خرج من بيته وأهله وماله إلا وسأل ربه أن يرزقه الشهادة ولا يرده إلى أهله وماله وولده سالماً » .

وتدبرت المرأة القرآن :

وبهذا البيان العربى أيضاً استطاعت المرأة العربية أماً وأختاً وزوجاً ، أن تخرج بتدبر القرآن الكريم إلى ذلك المستوى العالى من الجهاد وحب الاستشهاد ، ومن تقديم حب الله ودينه ورسوله على فلذات أكبادها ، فرأينا امرأة كالخنساء يبلغها استشهاد أولادها الأربعة فى معركة القادسية ، فتحمد الله وتشكره على أن أنالها شرف استشهادهم فى سبيله ، وتقول : « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته ». وهى التى قضت حياتها تنشد الشعر جزعاً على أخيها صخر وذلك لأنه لم يقتل فى ميدان الجهاد والاستشهاد ، بل قتل غدراً وفى غير معركة تنصر دين الله ، وتعلى راية الإيمان .

وغيرها من النساء كثيرات ، فكانت المرأة المؤمنة إذا بلغها

استشهاد زوجها في غزوة من غزوات المسلمين تقول مثل ما قالت الخنساء ، ثم تسأل على الفور لتطمئن : « وكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم هل نجاه الله » فلما أن تجد الإجابة نعم ، تقول « الآن قرت عيني » .

الحرية واللغــة المبينة :

ويصور لنا المفكر الإسلامي الشيخ أحمد موسى سالم هذا البيان الذى ارتقى به عرب الجزيرة إلى هذا الفضل مبيناً سر هذا التفوق البياني وهو أن الحرية كانت أول العوامل التي أنتجت هذه اللغة الدينية ، الحية ، المضيئة ، والمبينة عما تنطوى عليه النفس الفطرية تجاه الكون الذى تعيش فيه ، وربها ورب هذا الكون الذى خلقه وسخره لحواس الإنسان ، وجعله موضع تفكره ، وتدبره ، وابتلائه ، فيقول :« بهذه الحرية في كمالها ، والعرب يحرسون بها الأرض والدين والكرامة والمعروف ، والجار الضعيف ، بلغوا بلسانهم كمال التعبير ، وارتقوا ببيانهم إلى اللغة المرشدة . وهم يعبرون أنواع المتاهات ويطلبون الهدى . . وينظرون فيما بين الأرض والسماء وينشدون العلم .. ويجدون آلاء الله في كل شيء ، فيشكرون الله .. ويلهمهم الله . نعم ! . . لقد كان مقتضى النعمة بكمال الحرية أن ينعم الله عليهم بكمال التعبير . . لقد توفرت للعربي هذه الحرية الفردية والاجتماعية والإنسانية بمعنى المروءة ، وحق الرجل والمرأة أن يحمى كل منهما الجار واللاجيء فوق سلطان قبيلته ، أو أية قبيلة أخرى إذعاناً لحق الإنسان الآخر في الحياة ، وواجب الإنسان أن يحفظ على أخيه الحياة » .

« لقد توفرت لهم هذه الحريات المعدومة والمجهولة في الأرض المجاورة لهم ، والتي لاتزال في حكم الخرافة والأساطير في العصر الحديث ، فتوفرت بها لهم حرية (الشعور) الذى انتظموا به مع الحياة الطبيعية وقوانينها

بغير قهر أو قصور . وبالشعور الحر غرسوا قلوبهم وعقولهم فى قوانين هذه الطبيعة التى ارتاضوا لها فبثتهم يقينها ، ومنحتهم كنوزها ، ووهبتهم أصواتها ، وهم فى سعيهم بين مشاهدها ورياحها، وأضوائها ، وغيوثها، يرون الله فى كل شىء ، ويدأبون على التقصى والإدراك لكل شىء ، فى حدود ما يملكون بالحس رؤيته ، وما يبلغون بالبصيرة مداه » ثم يقول :
« من أجل ذلك صار العرب (عربا) بقدر ما حملته الأسماء فى لسانهم من حقائق الطبع ، وحكمة الخلق ، وودائع الفطرة ، وبياناً عن بيانهم بهذا الاسم الذى صار علماً عليهم ، وإعراباً عن هذه الطبيعة الغنية القوية الشاهدة فى لغتهم على الله ، والخلق ، والغيب ، بما لم تلخصه لغة قبلها ، ولم يعرب عنه لسان سواها ، ولا بعدها . . . »[1] .

ثم ينتهى إلى تلك النتيجة التى أشرنا إليها من قبل، وذلك حيث يقول:
« لقد كانت الحرية الكاملة إذن هى طريقهم الممهد إلى حرية التعبير الكامل ، وكمال التعبير الحر ، الذى قادهم فى نعمة الله إلى الله ، وهم يعلمون أنه هو الذى أحسن على تلك الجزيرة خلقهم ، وأطلق بين آياته ألسنتهم ، وألزمهم بهذا البرهان فى بيانهم حجته عليهم ، وأعدهم بذلك لينزل كتابه وقرآنه فيهم » . . إلى أن يقول : « ومن أجل ذلك أيضاً سمى العرب من لا يعلمون علم لغتهم، ولا يستبينون حقائق بيانهم عجماً ، ومن العجمة فقدان الطريق إلى الحرية ، وفقدان التقويم والتكريم للإنسانية ، وفقدان الدليل إلى الله . ولهذا فلم ينزل إلى العجم كتاب ، ولم يظهر بين العجم رسول ، ولم ينشأ بالعجم دين حق يكونون أهلا لتلقيه تلقياً مباشراً

---

(1) لمـاذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب . للشيخ احمد موسى سالم ص ١١٤ ، ١١٥ .

عن الله فى كتاب ، وعن رسول ، فالتعريب الذى حاربوه بعد أن مالوا بكل ما فيه من اللغة والدين والحق إلى التأويل — هو طريقهم الوحيد إلى الدين الحق ، وإلى الإيمان الصادق ، وإلى التطهر المنيب ، من استطاع منهم إلى ذلك سبيلا . . . »[1] .

غاية الكمال اللغــوى :

بنظرنا فيما تقدم نجد أن الكمال اللغوى فى العرب قد بلغ أقصاه ، وبلغ غايته قبيل الإسلام ، ولذلك استحق لسانهم أن ينزل به القرآن الحكيم ، الباقى على الدهر ، والمهيمن على الكتب ، والهادى إلى الصراط المستقيم .

الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى جاء بلسان عربى مبين لقوم يعقلون ، وقوم يؤمنون ، ويعلمون ، كما جاء فى قوله تعالى :

« حٰمٓ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » فصلت : آيات ١ ، ٢ ، ٣ .

ومن مظاهر بلوغ اللغة غاية كمالها فى العرب أنهم فى تلك المرحلة وصلوا إلى حد ارتجال ألفاظ غير مسبوقة لمعان تعرض لهم ومن ذلك ما يرويه لنا الشيخ أحمد موسى سالم فى هذا الصدد عن ابن جنى حيث يقول : « وفى هذه السعة التى أدركها بعض علماء اللغة المستعربين يقول ابن جنى فى (الخصائص) : « إن العربى إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته ، تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد إليه ، فقد حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ، ولا سبقهما أحد إليها» .

---

(١) نفس المرجع ص ١١٦ .

وفى رأيى أن اللغة العربية هى من وضع العرب أنفسهم ، وليست توقيفية إلا فى أدوار طفولتها الأولى فى العصور السحيقة من بعد نزول آدم أبى البشر ، وإذا عبرنا بكلمة (طفولة) فإننا نريد طفولة نسبية ، لا طفولة كطفولة بقية اللغات الأخرى ، التى تبدأ بمقاطع بسيطة لاتكتمل بها حروف ، ثم حروف لا تخرج من مخارج الإبانة التى خرجت منها الحروف التى اختصت بها العربية ، ولم توجد فى غيرها ، كالحاء والعين ، والضاد والظاء،والقاف ، ثم استعارة معظم الحروف من اللغة العربية بعد أن أخضعتها لنطقها الطفولى غير الناضج[1] .

وفى الواقع فإن هذه اللغات غير العربية لا تزال فى دور الطفولة بالنسبة إلى اللغة العربية ، ولننظر إلى الحروف فى اللغة العربية ، والاشتقاق ، والتصريف ، وحتى التصوير ، ثم لننظر إلى كل ذلك فى اللغات الأخرى وسيتبين لنا أن كل هذه اللغات ، لا زالت فى المؤخرة بالنسبة لعربيتنا التى اتسعت لكلام الله ، ولذخر البشرية من كلام الحكمة والمعروف ، ومن فقه الدين ومناهج العلم .

فأهل العربية ، هم الذين وصفوا لغتهم بعد مرحلة نزول آدم عليه السلام بأصولها ، فى الكلمات ، والأسماء ، والصفات ، وهم قد عاشوا بهذا الفقه الدينى واللغوى ، فى بلادهم التى هيأها الله لنمو هذه اللغة إلى غاية كمالها ، يضعون ألفاظاً لكل ما تقع عليه أعينهم فى بلادهم ، أو خارج بلادهم ، أو مما يدور فى نفوسهم من معان وأفكار أو يدور بينهم من مختلف المعاملات سواء أكانت خاصة أم عامة ، أو

---

(١) راجع المصدر السابق « لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب » ص ١٠٧ .

ما يلاحظونه على أشخاصهم من مظاهر وصفات وتطور هذه المظاهر ، وهذه الصفات[1] .

وما كان لشعب أو أمة أن تطلب رقياً بلغتها ولسانها بعد هذا المستوى الذى بلغته اللغة العربية بنزول القرآن الكريم بلسانها ، ومع آياته البينات والشاهدات عند من نزل إليهم من المؤمنين والمشركين على السواء على أنه من عند الله ، أى بشهادة لسانهم الذى نزل به القرآن عليهم ، ولذلك فعندما واجه القرآن المشركين الذين تظاهروا بإنكاره ، وتخفوا عن الناس فى الإذعان لفطرتهم — كما أشرنا قبل — أقول إنه عندما واجه القرآن الكريم هؤلاء المشركين المنكرين لأن هذا الكلام من عند الله مواجهة المنكر فطلب إليهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا أقول تحداهم ، لأن التحدى يكون لمن يجهل قدر ما يقدم إليه ، لنقص قدرته على التمييز والتحقق ، ولا يكون لمن يعلم يقيناً بآية لسانه العربى البالغ تمام النعمة ببيانه أن هذا الكلام كلام الله ، وإلا ما جعل الله نزوله بلغته حجة عليه ، وشهادة تدينه إذا لم يؤمن ، وفى هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى وهو يضع هؤلاء المنكرين بالمراء والغيرة والهوى موضع الحكم الخبير بالقول ، والواثق ببصيرة لغته التى تمت نعمته أن ما نزل به الوحى إلى رسول الله من القرآن هو من كلام الله وذلك فى قوله تعالى :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً »

النساء : آية ٨٢

---

(١) راجع المزهر فى علوم اللغة للسيوطى ج ١ ص ١٠٧ صفحة ١٠٥ حتى ١٠٧ .

وحول هذا الكمال اللغوى الذى هو تلخيص كمال حياة وأمة كما يقول الشيخ أحمد موسى سالم عن المستشرق الفرنسى « أرنست رينان » الذى عرف بشدة خصومته للإسلام والعرب : أنه كان مع غيره من المستشرقين منصفين وغير منصفين يرون فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم على لسان العرب من قوم النبى أنها آية جديرة بالنظر والدرس والاهتمام وذلك حيث ينقل عنه ما يأتى : « يقول المستشرق واللاهوتى الفرنسى جوزيف أرنست رينان : ربما كانت اللغة العربية هى الظاهرة الأشد غرابة والأكثر استعصاء على الشرح والتعليل ، فهذه اللغة المجهولة ما قبل التاريخ تبدو لنا فجأة – بظهور الإسلام – بكل كمالها ومرونتها وثروتها التى لا تنتهى »[1] .

لقد سلمت فطرتهم من التشويه والتبديل الذى حاق بغيرهم من أهل الحضارات القديمة والفلسفات الأسطورية ، كأهل فارس ، والروم ، واليونان . وكذلك سلمت فطرهم ، مما أفسد فطر اليهود والنصارى من ذلك التبديل والتحريف لكتبهم واغتيالها بتلك العلوم السرية الغنوصية لليونان ، والفرس ، والصابئة ، فكان العرب بالنسبة لأولئك الشعوب ، وأهل تلك الحضارات[2] ، هم الأميين الذين ينتظرون على بقية دين إبراهيم هذه الرسالة الخاتمة بالإسلام الحنيف ، والدين الحق ، والكتاب المبين والتى لا يعوق إيمانهم بها ، وحملهم بين البشر لأمانتها أية أساطير تذهب بقلوبهم وعقولهم وفطرتهم مذاهب شتى ، وتسلبهم جميع الحريات التى أنعم الله عليهم بها .

« لقد توفرت لهم هذه الحريات المعدومة والمجهولة فى الأرض المجاورة لهم ، والتى لاتزال فى حكم الخرافة والأساطير فى العصر الحديث –

(١) لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب ص ١١٧ ، ١١٨ .
(٢) قارن الشيخ أحمد موسى سالم فى المرجع المتقدم ص ١٠٣ – ص ١٠٩ .

فتوفرت بها لهم حرية الشعور ، الذى انتظموا به مع الحياة الطبيعية وقوانينها ، بغير قهر أو قصور ، فتنزهوا برشد العلم الممكن ، وبصيرة الشاهد المتمكن ، عن حماقة من حولهم » من المتعالمين القاعدين الذين يسألون عن المستحيل ، ويتفلسفون فى الغيب ، ويجهلون المتاح ، ساقطين بذلك عن صهوة الحياة ، لكى تطأهم الأفهام والأقدام دون علم الحياة ، وحكمة الحياة »[1]

رأى ابن تيمية :

ولدل هذا الذى تقدم بهذا الاختصار هو الذى قصده الإمام أحمد عبد الحليم بن تيمية بتأليفه كتابه (نقض المنطق) ، فقد ذهب فيه أولا إلى أن المسلمين ، أقرب الناس إلى الهداية ، ومعرفة الحق ، وهم أقدر على ذلك لما يمتازون به من سلامة الفطرة ، وسداد العقل ، وفى هذا يقول : « فكل من استقرأ أحوال العالم ، وجد المسلمين أحد وأسد عقلا وأنهم ينالون فى المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال ، أضعاف ، ما يناله غيرهم فى قرون وأجيال » .

وهو يعلل ذلك « بأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه»[2]

وأضيف إلى ذلك أن اعتقاد الحق الثابت يريح العقل ، ويمنعه من تقبل الضلال المزعزع الذى يفسد الذهن ، ويقلب أصول التفكير .
ويستدل ابن تيمية على هذا بقول الله سبحانه :

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » محمد : آية ١٧

---

(١) احمد موسى سالم « لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب » ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) ص ٨ « نقد المنطق » لابن تيمية .

وقوله :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَايُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ، وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » النساء : آيات ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

والمسلمون الأولون الذين أسلموا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم أو على يد أصحابه ممن يطلق عليهم جميعاً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو « السلف الصالح » ممن قال الله فيهم :

« وَالسَّابِقونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » التوبة : آية ١٠٠

والذين قال فيهم :

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » الفتح : آية ١٨

قد اعتبر الله طريقهم هو الطريق الحق ، وهو طريق المؤمنين ، فهدانا إلى سلوكهم وإلى طريقهم فى الفهم والتدبر ، أى العلم والعمل ، وجعل المتبع لهم متبعاً لرسوله وسمى طريق الرسول طريقهم سبيل المؤمنين وذلك فى قوله تعالى :

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، وَيَتَّبِعْ

غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ . جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً»
النساء : آية ١١٥

فسبيلهم ، هو سبيل القرآن ، على الفطرة ، ودون حشو سابق أو لاحق بالخرافة ، ولذلك أشارت الآية إلى مقابليهم الذين اتبعوا غير سبيل المؤمنين ، مهددة لهم بأن الله سيكلهم إلى ما تولوه من العقائد الفاسدة ، والأساطير الباطلة والزيغ المفتعل. ولذلك سيصليهم جهنم وساءت مصيراً[1]

وفى صدد الموازنة بين توافق فطرة الإنسان السليمة غير المبدلة ، والتى قال الله فيها :

« فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ »
الروم : آية ٣٠

مع الفطرة المنزلة ، وهى الدين ، أو القرآن ، الذى أمرنا الله بالتوجه إليه والأخذ به والإيمان به فى صدر هذه الآية المتقدمة :

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ». الروم : آية ٣٠

ثم وصفه بعد ذلك بأنه فطرة الله وأن الفطرة السليمة هى التى تقبل الإيمان والقرآن ، يقول ابن تيمية : « . . . فالفطرة أى فطرة الإنسان مكتملة بالفطرة المنزلة (أى القرآن) فإن الفطرة تعلم الأمر مجملا ، والشريعة تفصله وتبينه وتشهد بألا تستقل الفطرة به فهذا هذا »[2]

---

(١) ابن تيمية : نقض المنطق ص ١ ، ٢ .
(٢) نقض المنطق ص ٣٩ .

ثمرات التدبر :

وهكذا يحق لنا فى فهم هذه الآية الكريمة كما عرضها السؤال الأول أن نطمئن إلى ما وصلنا إليه – فى كل ماسبق – من أن الله سبحانه حين أتم على العرب فى جزيرتهم قبيل الإسلام ظهور نعمة البيان فى لسانهم ، ووهبهم بعد مرور تلك القرون والعصور على حياة إبراهيم وإسماعيل غاية العلم بالعربية ، وأصواتها ومعانيها ، ومجملها ، ومفصلها ، تجلى على رسول منهم بالوحى فأنزل عليه إليهم هذا الكتاب المبارك ، والقرآن الحكيم ، ليتدبروا فى نور تنزيله معانى آياته ، ووصايا شريعته ، وهم فى مستوى نعمة تدبرها ، وعقلها ، والإيمان بها ، والعمل والجهاد تحت رايتها . .

ولقد كان حقاً فى شهادة هذا الكتاب الكريم ، والقرآن المبارك ، وفى شهادة التاريخ أنهم – كما اجتباهم الله له ، وأعدهم بالعديد من نعمه لحمل أمانته – قد تدبروه ، وعقلوه ، وآمنوا به ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، ليكونوا – كما شاء الله – بعد الكثير من الرسالات والأمم هم هؤلاء الذين أتم النعمة الكبرى عليهم بالإسلام والدعوة إليه ، فى قوله تعـالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » آل عمران : آية ١١٠

ثم ليكون الرسول المحمد الصفات ، والمحمود الخلق ، وخاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، هو كما قال الله عنه وأصحابه فى أسوتهم الباقية لجميع المؤمنين والمؤمنات فى كل زمان ومكان :

« مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا »

الفتح : آية ٢٩ .

السؤال الثانى :

يقول الله تعالى :

«أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ؟. أَمْ جَاءَهُمْ مَّالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ »

المؤمنون : آية ٦٨ .

اشرح هذه الآية : واذكر من هم المقصودون فيها بآبائهم الأولين ؟»

الإجابة :

لعله تبين لنا مما تقدم فى إجابة السؤال الأول أن قوم النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، كانوا يفهمون القرآن جيداً ، وكانوا فى موقف القدرة اللغوية على تدبره ، والتمكن من إدراك مراميه ؛ ومع ذلك فلم يسارع أكثرهم للإيمان ، بل تأخروا فيه للأسباب التى أوردناها .

هنا يستنكر القرآن الكريم عليهم ذلك بهذا الاستفهام الذى يحمل مع الإنكار التعجب أيضاً ، فالله يتحدث عنهم لنبيه قائلا : مال هؤلاء لايؤمنون ، وقد نزل عليهم القرآن الكريم ، وقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم فتدبروه ، وفهموه حق الفهم ، فمالهم فى موقفهم هذا كأنهم استعجموا ففقدوا الإبانة والعربية ، وعجزوا عن الوصول إلى مستوى فهم قول الله وتدبره ، فحال ذلك بينهم وبين إيمانهم .

لا عذر لهم :

أى عذر لهؤلاء المبينين بألسنتهم فى أن لايتدبروا قول الله الذى يقبلون

على سماعه ويفهمونه لأول وهلة ، ويستعذبون أسلوبه ومعانيه ؟ إنه لاعذر لهم فى الصدود عن الإيمان به إلا الكبر والحسد والمراء ، ولكن مهما يكن وراء كفرهم من أمر ، فهم قد وضعوا أنفسهم بذلك موضع الأصم الذى لايسمع ، والحيوان الذى لايعقل ، والأعجمى الذى لايدرك للسان العربى بياناً ولا تذوقاً . ولذلك فقد جاء فيهم من قول الله سبحانه هذا الاستنكار

« فَمالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لايَكَادونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » النساء: آية ٧٨

وقوله تعالى :

«فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أن يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً . كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » . آخر المدثر .

ويتعجب منهم فى موضع آخر حيث يقول تعالى :

« فَمَالَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ » .

الانشقاق : الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

فالتعبير بكلمة « بل » هنا التى هى للاضراب عما يفهم من الكلام إلى معنى آخر يشهد بأنهم تدبروا ، وفهموا حقاً ، ولكن غلبت عليهم النية المسبقة ، وهى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلزمتهم هذه النية ، وحاقت بهم ولم ينتفعوا بهذا التدبر .

ويحتج الله عليهم أيضاً بنزول القرآن عربياً وفق لسانهم، ولسان الهدى والإيمان فكيف لايتدبرونه ويؤمنون ولوكان أعجمياً لأنكروه وذلك حيث يقول تعالى :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؟ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟؟ . قلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هدًى وَشِفَاءٌ . والَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » . فصلت : آية ٤٤

ولا شك أن معنى هذا الوصف بالصمم للآذان ، والعمى للأعين ، فى مواجهة نور القرآن وهداه هو أن أمر هؤلاء المكذبين أمر إصرار مسبق على الكفر ، فهم لم يريدوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولم تخضع قلوبهم للإيمان به ونبوته ، ولذلك لم يهتدوا ، وكانوا كمن ينادون من مكان بعيد ، فلا يصل إليهم صوت من يناديهم ، وكأن آذانهم قد حل بها الوقر (الثقل) الذى يمنع الإنسان من السمع . فالقرآن هدى وشفاء لمن أراد الإيمان ، وأقبل عليه ، وهو عمى لمن أعرض عنه ولم يسلك السبيل إلى تدبره .

فالهدى لايأتى للإنسان إلا باتجاه الإنسان إليه وإرادته ، وإلا فلن ينتفع الإنسان بالقرآن إذا هجره وأدبر عنه ، ووقف دون الهدى والإيمان لايطلبهما . وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، وكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا . وكانت منها طائفة إنما هى قيعان ، لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه مابعثنى الله به من

الهدى والعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأســاً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

ويعرض القرآن بمن أدبروا عن الإيمان ، وأنهم ليسوا أولى عقول أو أفئدة تتذكر حيث يتدبرون ، ولاينتفعون بهذا التدبر فيقول مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية محل السؤال الأول :

«كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ، لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . ص : آية ٢٩

فمن شأن أصحاب القلوب ، أن يتذكروا ويخرجوا من غفلتهم إلى ماجاءهم من الحق بسبب تدبرهم وعن طريقه ، أما الذين لايتذكرون فقد أثبتوا بالصمم عن التدبر والتذكر فساد قلوبهم ، وخبث نياتهم ، أو أنهم أصحاب قلوب أحكمت الأهواء والغفلات إغلاقها ، فلاسبيل لهم إلى تحريرها كما يقول تعالى :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »
محمد : آية ٢٤

وهكذا يتحمل هذا الاستنكار الذى جاء فى الآية الثانية موضع هــذا السؤال الثانى : « أفلم يدبروا القول ... » كل استنكار جاء عنهم فى القرآن الكريم بهذا الصدد ، وهو كثير ليس هنا موضع إحصائه .

دين إبراهيم وإسماعيل :

على أن الآية التى نحن بصدد شرحها تحمل استنكاراً وتعجباً آخر من موقف المكذبين وذلك حيث يقول تعالى لهم :

« أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » . المؤمنون : آية ٦٨

أى مالهم قد كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤمنوا به مع أنه هو الذى أنزل عليه القرآن الكريم الذى أعجبوا به ، وسحرهم ببلاغته ، وأحبوا الاستماع إليه ، وأضرب البعض منهم عن قول الشعر تفرغاً لقراءته وتوفراًعلى بلاغته وتذوقها. وقدكانوا منقبل نزولالقرآن يؤمنون بمحمد كأطهر رجل فيهم ، وأنقى إنسان وأصفاه حتى إنهم لقبوه بالأمين ، فلما جاءهم بهذا القرآن الذى صدقهم القول فى نزول الوحى به عليه ، وقد رأوا فيه ما رأوا من بليغ القول ودعوة الهدى والحكمة وفصل الخطاب إذا بهم يعادونه ويسفهونه ، ويتقولون عليه الأقاويل ويكذبونه ؟ ؟ .

هل هذا الكتاب المبين يتناقض مع ماجاء به آباؤهم الأولون إبراهيم وإسماعيل ، وما أوصوا به أعقابهم عند البيتالمحرم بعد أن أقاموا قواعده، ودعوا الله عنده أن يجعل من ذريتهم أمة مسلمة له ؟

هل يختلف عما جاء به هؤلاء الآباء هدى تركوه فىهؤلاء الأعقاب ، ولايزال أعقابهم هؤلاء يسيرون على كثير منه ويتناقلون أخبار مالايسيرون عليه وأوصافه ؟ . ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحدثهم بأنه إنما جاءهم بدين أبيهم إبراهيم، وبأنه فىهذه الرسالة الخاتمة ليسإلااستجابة الله لدعاء ابراهيم وإسماعيل كما جاء به القرآن الكريم :

« رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » .
البقرة : آية ١٢٨

ثم يقولان فى دعاء الله :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .
البقرة : آية ١٢٨ ، ١٢٩



وفى الواقع ، فإن هؤلاء العرب وخاصة قوم النبى من قريش كانوا على شىء كثير مما جاء به إبراهيم وإسماعيل ، فبقيت فيهم فضائل دعوتهما بينما تلاشت فى بنى اسرائيل مع الزمن حقائق وشرائع أنبيائهم إلى أن ضربهم الله بالشتات .

أما قوم النبى فى جزيرتهم الحرة بهم ، وحول بيت الله الذى حرمه الله لإصلاح أمرهم فقد كانوا بمنأى من مصير بنى اسرائيل النبى . لقد كان قوم صلى الله عليه وسلم بمنأى عن هذا كله ، ولذلك اهتم الشيخ موسى سالم (بالحنفاء) لسيرهم فى خط أبيهم إبراهيم[1] الذى وصفه القرآن الكريم بأنه كان حنيفا مسلماً فلم يكن هناك قوم أخلاقهم أشبه بخلائق الأنبياء، وفيهم فضائلهم التى يقرها القرآن إلا قوم النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة وما حولها ، ولذلك كانوا جديرين دون بقية الشعوب بحمل رسالة القرآن الكريم التى تتشابه مع ماجاء به أبوهم إبراهيم ويعيشون فى الكثير منه ، ومن ذلك يقول لهم الله سبحانه :

« وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ . هُوَ اجْتَبَاكُمْ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِى هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . . . » . الحج : آية ٧٨

والمعنى واضح فى سبب الاجتباء ، والاختيار لأن الله إنما دعاهم بالقرآن الكريم والرسول الأمين إلى ملة أبيهم إبراهيم التى ظلوا

---

(١) أنظر : لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

يعيشـــون بمعظم أركانها ومناسكها ، وبذلك كان ميسراً عليهم أن يؤمنوا ، بل كان المفروض أن يكون أمرهم هو الاستجابة المطلقة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن لايقفوا منه مواقف الانكار الأولى والتردد ، فهم أقرب الناس إلى خلائق القرآن ، وكما قيل فإن الوليد ابن المغيرة ، كان قد حرم الخمر على نفسه قبل الإسلام ، كما قطع يد السارق قبل الإسلام أيضاً ، وكما إنهم ذرية إبراهيم وإسماعيل وقد حرصوا على التكافؤ فى أنسابهم للحفاظ على موروث أخلاقهم من قديم ، وهم يعتزون فى اصطفاء أخلاقهم بتزاوج الطيبين والطيبات ليبقى فيهم هذا الانتساب بالأخلاق والشيم والمناسك إلى آبائهم إبراهيم وإسماعيل وأولادهم ، بينما ظلوا بعد الفترة ، أو طول الفترة التى انقطع فيها إرسال الرسل ، وتوقيف نزول الوحى من السماء ، ينتظرون بشارة إبراهيم وإسماعيل ، ودعاءهما :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

البقرة : آية ١٢٩

ولكنهم حين وجدوا النبوة جاءت فى بنى هاشم أكرم العرب على العرب فى مجال اصطفاء الأخلاق وأصفاها وأبرها ، وأخيرها وأتقاها ثم جاءت فى أتقى بنى هاشم وأتقاهم محمد صلى الله عليه وسلم ، كبر ذلك على نفوسهم ، فحقدوا وحسدوا ، وقالوا :

« لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

الزخرف : آية ٣١

أى رجل من مكة أوالطائف ، وأحد هذين الرجلين هو الوليد بن المغيرة فى مكة ، والآخر هو أمية بن الصلت فى الطائف ، وقالوا :

« أأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » .

ص : آية ٨ .

ويحدثنا الشيخ أحمد موسى سالم عن تلك الصلة التى كانت بين قوم النبى صلى الله عليه وسلم وبين أبيهم إبراهيم وإسماعيل ، وأن القرآن لم يكن غريباً عنهم لتلك الدرجة التى تجعلهم يقفون منه ما وقفوا ، والتى جعلت القرآن الكريم يحتج بذلك فى قوله :

« أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » .

المؤمنون : آية ١٨

فيقول بعد أن مهد لذلك :

« من هذه الحقائق أن العرب كانوا حول الكعبة وبيت الله يتذاكرون فى مواسم الحج كل عام تذاكراً جماعياً بكل قبائلهم أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل . . . . وأنهم على بقية من دين إبراهيم الحنيف ، ينتظرون ما توارثوه من وعد الله لهم بالكتاب والنبوة » ثم يقول :

« لقد كانت كلمة الحنيف حية فى تراثهم . . . كانت الدلالة والإشارة المشرقة دائماً إلى المستقبل . كانت عنصر الحفاظ الأكبر على مابقى لهم من وصايا الآباء ، ومن صحف إبراهيم . . . وهم يميلون عن أى دين أو كتاب يخرجون به عن دائرة (الأميين) أى حدود الأمة أو الجيل الذى ينتظر الرسول والكتاب والدين الحق . . لذلك فقد كانوا بصفة عامة يتحنفون أى يميلون عن أى دين غير الذى بقى لهم من إبراهيم ، حتى ينزل عليهم فيه كتاب »[1] .

---

(١) انظر : لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب ص ١٠٤ — ص ١٠٦ .

وفى بيان معرفتهم بدين أبيهم إبراهيم ، وبقيته فيهم ، وانتظارهم لتحقيق الله لدعائه :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .
البقرة : آية ١٢٩

يقول أحمد موسى سالم :

« وكان حكماؤهم وشيوخهم يتحنفون أيضاً بمعنى أنهم كانوا يتعبدون أو يعكفون فى البيت أو حول البيت للتفكر والقرب إلى الله ، والدعاء له أن ينجز الوعد . . . فيكون لهم الرسول والكتاب » » ثم يقول :

« إذن فقد كانوا أمة لها دين عن إبراهيم وإسماعيل . . . وتنتظر كتاباً ورسولا فى وعد الله الحق لإبراهيم وإسماعيل . . . الوعد الذى تناقلوه بالرواية كما تناقله أهل الكتاب فى الكتب . . . الوعد الذى حافظوا به واستعصموا ، فرفضوا اليهودية والنصرانية . . . وطلبوا ما هو أهدى لهم منها » . . .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى يذكرهم بكل ذلك ، وبقسمهم بالله أن يكونوا إذا جاءهم الرسول أهدى به وبكتابه من اليهود والنصارى :

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » .
فاطر : آية ٤٢

كما قال لهم :

« أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ » .

الأنعام : آية ١٥٧

وفى هذا بيان لمدى صلتهم بأبيهم إبراهيم ، وعيشهم ما وسعهم فى ملته وفى جو بشارته لهم بالنبى الخاتم الذى يبعث فيهم وليس فى غيرهم . ولذلك فلقد كان حقاً — مع سابق علم الله بإيمانهم الوشيك — أن يتعجب القرآن الكريم من تكذيبهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومبادرة عدد منهم للصبر عن دعوته ، وأن يستنكر عليهم ذلك فى هذا القول الكريم :

« .... أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » .

المؤمنون : آية ٦٨

السؤال الثالث :

هذا العصر الذى تراجع فيه المسلمون عن كثير من وسائل التدبر الصحيح والمباشر لآيات القرآن الكريم ، هل ترى أنه من الممكن تدبره على الوجه الأكمل من طريق كتب التفاسير مع اختلافها ، وتضاربها ، وكثرة مافيها من اسرائيليات ؟

ما هى وجهة نظرك لتلافى هذا القصور فى حياتنا المعاصرة ، بينما نحن أهل هذه اللغة الدينية المبينة : لغة القرآن الكريم ولغة الرسول ولسان الدعوة المبين ؟ .

الإجابة :

نستهل هذه الإجابة ، بتلك الفقرة من كتاب عالم متخصص خبر كتب التفسير ، وأدرك جنايتها على فهم المسلمين للقرآن الكريم فى القرون

الخوالف بما حوت من أخلاط ، وأساطير ، تتعارض مع معانى الكتاب الكريم ، وبما حالت به بين المسلمين وبين القرآن الكريم من التدبر المباشر له كما كان شأن السلف الصالح فى القرون الأولى للاسلام وعصر بعث النبى صلى الله عليه وسلم .

طريق الغواية :

يقول الدكتور محمد حسين الذهبى رحمه الله فى مقدمة كتابه القيم : (التفسير والمفسرون) :

« لم يكد هذا القرآن الكريم يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم ، وتملك عليهم حسهم ومشاعرهم ، ولم يعرض عنه إلا نفر قليل؛ إذ كانت على القلوب منهم أقفالها ، ثم لم يلبث الناس أن دخلوا فى دين الله أفواجا ، ورفع الإسلام رايته خفاقة فى أرجاء الدنيا » .

ثم يقول :

« وكان القوم عرباً خلصاً ، يفهمون القرآن ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية ، فهماً لا تعكره عجمة ولا يشوبه تكدير ، ولا يشوبه شىء من قبح الابتداع ، وتحكم العقيدة الزائفة » ثم يقول :

« ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفائه ، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه . . . ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا فى الدين شيعا ، وأحدثوا فيه بدعاً ، وبدعا ، وكانت فتن كقطع الليل المظلم » .

ثم يبين كيف دخلت هذه التفاسير المنحرفة إلى عقيدة المسلمين فيقول :

« وكان من بين المسلمين من أهمل هداية القرآن ، وركب رأسه فى طريق الغواية ؛ فلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذى سلكه سلفه الصالح فى فهم القرآن الكريم والأخذ به ، وحاول أن يأخذ من القرآن شاهداً على صدق بدعته ، وتحايل على نصوصه الصريحة لتكون دعامة يقيم عليها أصول عقيدته ونزعته ؛ فحرف القرآن عن مواضعه ، وفسر ألفاظه على تحمل مالا تدل عليه » ثم يقول :

« وكان بجوار هذا الفريق من المسلمين فريق آخر منهم ، برع فى علوم حدثت فى الملة[1] ، ولم يكن للعرب بها عهد من قبل ، فحاولوا أن يصلوا بينها لدحض هذه التأويلات الحادثة ، وأعمل لسانه وقلمه لإبطال هذه الشبهات ، فوقى الله بهم المسلمين من شر ، وحفظ بهم الإسلام من ضر ».

فى هذه الفقرة الطويلة ومن هذا الكتاب إشارة إلى واقع هذه التفاسير التى كتبت حول القرآن الكريم ، تريد أن تسلك بالناس سبلها فى فهم كتاب الله ، ومعظمها كما قدم الدكتور الذهبى إنما فسر القرآن حسب فهمه الخاص الذى أوجدته فيه عقيدتها المذهبية ، كلامية أو باطنية ، أو فلسفية. فصاحب المذهب الكلامى يريد أن ينصر مذهبه بتفسير آيات الله حسب أصوله العقلية المستوردة من منطق أرسطو وأفلاطون وغيرهم ، وحسب هواه الخاص الذى يريد به أن يثبت لمبدئه أمام خصمه ، وألا ينهزم أمامه . هكذا يفعل المعتزلى للأشعرى ، والأشعرى للمعتزلى ، ويفعل كلاهما لأصحاب الآراء الأخرى من علماء الكلام الآخرين .

---

(١) هى علوم الفلسفة الشرقية واليونانية ، وما خالطها من علم التنجيم والتصوف .
(٢) مقدمة التفسير والمفسرون ، جـ ١ ص ٥ — ٨ .

لقد حاول هؤلاء وأولئك ، أن يربطوا بين ماعندهم من قواعد ونظريات ، وبين مافى القرآن من أصول وأحكام وعقائد . وتم لهم وبين القرآن ، الدوافع والحوافز على هذا العمل ، منهم من قصد خدمة هذه العلوم وترويجها على حساب القرآن ، ومنهم من أراد خدمة الدين وتفهم القرآن على ضوء هذه العلوم ، . . . وأخيراً خرج هذا الفريق على الناس بتفاسير كثيرة ؛ فيها خير وشر ، وبينها تفاوت فى المنهج ، واختلاف فى طريقة الشرح والبيان » . ثم يقول :

« وكان من وراء هؤلاء فريق التحف الإسلام وتبطن الكفر ، يحمل بين كفيه لساناً مسلماً ، وبين جنبيه قلباً كافراً مظلماً يحرص كل الحرص على أن يطفىء نور الإسلام ، ويهدم عز المسلمين فلم يجد أعون له على هذا الفرض السيىء من أن يتناول القرآن بالتحريف والتبديل ، والتأويل ، الذى لايقوم على أساس من الدين ، ولايستند إلى أصل من اللغة ، ولايرتكز على دليل من العقل . . . وأخيراً خرج هؤلاء أيضاً على الناس بتأويلات فيها سخف ظاهر ، وكفر صريح خفى على عقول بعض الأغمار الجهلة ؛ ولكن لم يجد إلى قلوب عقلاء المسلمين سبيلا ، ولم يلق من نفوسهم رواجاولاقبولا بل وكان منهم من أفرغ همه » .

وهكذا صاحب المذهب الفلسفى إنما يخرج القرآن من عربيته إلى معان أسطورية وثنية ذات شعوذات وغيبيات ، لاصلة لها بالمعانى الإسلامية التى حملتها هذه الألفاظ العربية التى هى

« تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » فصلت : آية ٤٢

ونفس هذه السورة قد بدئت بقوله تعالى :

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» . فصلت : آية ٣

فالكتاب آيات مفصلات ، أى بينات ، كما قال تعالى

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاه آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ »

الحج : آية ١٦

وهو عربى لقوم يعلمون ، أى يدركون العربية إدراكاً كاملا ويدركون عربيته الخالصة التى جاء بها أيضاً كعربيتهم التى يتكلمون بها ، فهم أعلم به ، وليسوا بجاهلين لما جاءتهم به آياته ، ولذلك وردت الآية التالية لهذه فى مورد الاحتجاج عليهم فقالت :

« بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ، فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ »

فصلت : آية ٤

واختار الله سبحانه وتعالى فى نهاية هذه الآية « فهم لايسمعون » على أى تعبير آخر : (يفقهون) ، (لا يعقلون) لا لأنهم لم يكونوا يفقهون ولا يفهمون ولايعقلون وإنما لأنهم كانوا يفهمون ويفقهون لأول وهلة ، ولكنهم كانوا يعرضون، فكأنهم لم يسمعوا ، ولذلك جاءت الآية التالية تؤكد هذا ، وتضعهم أو تنطق على لسانهم بأنهم يضعون أنفسهم موضع من لايسمع ، فقالت :

« وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إِنَّنَا عَاملونَ » فصلت : آية ٥

فكانوا بهذا مستحقين لوصف الله لهم :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، كَمَثَلِ الَّذى يَنْعِقُ بمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلونَ » البقرة : آية ١٧١

أى مثل الرسول صلى الله عليه وسلم معهم كمثل الراعى الذى ينادى

على أنعام أو أناس صم وبكم وعمى ، فهم لايسمعون صوتاً ، ولايرون إشارة ، وإنما كل الذى يسمعونه مجرد أصوات لايستبينون لها لساناً ، ولا وجهاً .

ولذلك صورهم القرآن الكريم هذه الصورة الزرية من التخلى عن مسئولية الاستجابة للقرآن الذى جاء بلسانهم العربى المبين وفيهم الكفاءة لفهمه وتدبره والإيمان به ، فكيف بمذاهب المتكلمين والمبتدعين من الباطنية وأهل التفلسف الذين يصرفون اللفظ القرآنى العربى عن معناه إلى معانيهم الوثنية الإلحادية التى جاء القرآن للتطهر منها والقضاء عليها ؟ .

وعلى هذا فإنه لم يكد الإسلام ينتشر بين شعوب لم تكن تعرف قبله غير ألسنتها الأعجمية ، وقصصها الأسطورية فى تصور الوجود والحياة والإنسان حتى وجدت أكثريتها أنها تعانى من هذا الازدواج بين تدبر القرآن بالعربية التى لا تحسنها ، وبين الانصراف عن القرآن الذى أصبحت تدين بدعوته وتنتسب إلى أهله ، فكان لابد من ظهور التفاسير التى لم تلبث أن أصبحت مع ضعف الحكم العربى ، ونشاط المذاهب الشعوبية بأنواعها الكلامية والفلسفية والسياسية مجالا ليظهر فى الكثير منها كثير من الشطحات الصارخة فى تفسير كتاب الله ، نجد ذلك على السواء فى نشاط الشعوبية القديمة ، كما نجده فى ضعف اللغة العربية الحديثة بين أهل العجمة اللسانية والعقائدية ، التى تعددت بالفلسفة الإلحادية المعاصرة مصادر عدوانها على تفسير كتاب الله ، وقولها فيه بما يشاء المعاصرون .

تسلل الإسرائيليات :

وهناك إلى جانب ذلك كثير من الإسرائيليات التى دخلت فى التفسير قدماً بحسن نية ، ثم يأبى أصحاب العواطف المهتاجة ، والعقول غير النقادة إلا أن

يتمسكوا فيها بحبل ، ويجعلوها عونهم على فهم كتاب الله ، أو تفسير كتاب الله حسب أهوائهم ، وحسب هذه الاعتقادات الخاطئة التى جاءتهم عن اليهود والنصارى ، وهم لا يدرون .

إن أخطار ذلك ، هى فهم كتاب الله على غير ما أراد الله ، وكفى بذلك طامة على المسلمين . وهذا هو الذى سعى إليه أعداء الإسلام من قبل حينما وجدوا المسلمين بفضل هذا الدين الحنيف يحررون الوطن العربى ، وشعوبه من نير الأكاسرة والقياصرة فى زمن كأنه لمح البصر ، ومفاجأة القدر ، فأخذ الغزاة القدماء يعملون على تخليق الأسباب التى تمكنهم من استعادة السيطرة على أرض العرب ، كما فعلت أوروبا أخيراً بزرع إسرائيل فى بلادهم وذلك للقضاء نهائياً على تكرار هذه الآية الكبرى التى صنعها الإسلام بقيام هذه الأمة العربية التى يحكمها الإيمان بقوة العدل والسواسية ، والعلم والسلام ، ومن هذه الأسباب هذا الغزو الفكرى لحقائق الدين ، وحقائق التاريخ ومن ذلك تقبل الإسرائيليات التى دسها أعداء الإسلام من متمسلمة اليهود تحت أستار من مهارة التمويه والتضليل .

المفسرون المعتدلون :

هذه هى الأصول التى كان المفسرون فى غالبيتهم العظمى كما تقدم يرجعون إليها فى التصدى لبيان كتاب الله ، وإلى جانبهم المعتدلون الذين لا يحركهم مذهب أو ضغينة أو هوى ، وإنما وقعوا فى التفسير بالرأى فحولوا الآية والآيات أيضاً عن وجهها الصحيح ، وقد ذم الإمام الشوكانى ، وجمهور المفسرين المعتدلين هذا الاتجاه وبينوا عيوبه ، وأنه أيضاً يقدم القرآن للناس على غير ما أنزل الله ! ! ![1]

(١) انظر : مقدمة فتح القدير .. فى علم التفسير للامام الشوكانى ، وكذلك مقدمة فى أصول التفسير للامام ابن تيمية (أحمد عبد الحليم) ص ٧٤ — ٧٨ ، ص ١٠٥ — ١١٦ ، التفسير والمفسرون . للذهبى ص ٢٥٥ — ٢٩١ .

الطريق السليم للتـــدبر :

ما الطريق إذن لتدبر كتاب الله وفهمه كما أراد الله ؟ ! ولتجنب هذا القصور ؟

وهذا هو الجزء الثانى من السؤال الثالث :

« ما هى وجهة نظرك لتلافى هذا القصور فى حياتنا المعــاصرة بينما نحن أهل هذه اللغة الدينية المبينة : لغة القرآن الكريم ، ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولسان الدعوة المبين ؟ » .

وفى الإجابة نقول أنه إذا كان التفسير كما رأينا ، وهو من قول البشر ، ومن آرائهم ، والناس معرضون للخطأ والصواب ، كما قال أسلافنا من العلماء العاملين : (كل امرىء يؤخذ من قوله ويترك إلا قول الله وقول الرسول) . فمن الخطأ إذن أن نجعل طريقنا إلى تدبر القرآن ، ووعيه تلك التفاسير التى لا تحقق سلامة التدبر للكتاب الكريم ، والطريق إذن هو طريق السلف الصالح من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقومه فى تدبر القرآن وتدارسه ، أى أن نعمل على الوصول بمستوانا الثقافى واللغوى إلى ذلك المستوى الذى كان عليه قوم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذلك تنقية العقيدة مما أصابها من رواسب تلك العقائد ، والمذاهب الباطلة ، التى عاشت فى وسطنا ودخلت فى مصنفات علمنا وثقافتنا . والتى كانت عقائد قوم النبى صلى الله عليه وسلم تخلو منها كل الخلو ، فنعمل على وقاية مجتمعنا منها . فلقد كان من نعمة الله على العرب قبل الإسلام . . « نعمة المناعة من فتنة الفلسفات والوثنيات وأنماط العيش الخليع وغير المسئول فى الحضارات المجاورة لهم ، والمعتقدات المتصارعة حولهم ، لقد عاش العرب فى جزيرتهم التى ترتفع حولها أسوار الجدب ،

وقسوة الطبيعة ، ومخافات التيه — فى شبه مصح أخلاقى ، ومعزل دينى — حال بين من حولهم — إلا القليل — وبين التسلل بأنواع الغوايات الحسية ، والموبقات الفكرية ، والمجادلات البيزنطية ، والخرافات الإسرائيلية إلى منازل حياتهم . . . لقد كانوا بذلك فى عصمة من اقتحام التفلسف ، والتكهن ، والتسفط لعقولهم ، ومن تعرض النقاء والصحو فى حياتهم الفطرية لإعصار يدمرها ، وعجمة تأتى عليها »[1] .

وبذلك أقبلوا على دين الله بفطرتهم خالصةً فلما خلعوا قناع الشرك السطحى الذى كان لفترة فتر فيها مجىء الرسل إليهم مع انتظار رسول منهم لهدايتهم — بدت الفطرة الأصيلة التى فطر الله الناس عليها ، وهى الإسلام المستقر فى النفس ، على نقائها وصفائها ، فاستقبلت الفطرة المنزلة وأوسعت لها ، واستيقنتها إيماناً واحتساباً وفرحة بالإلف المنتظر ، والوعد المرتقب . فأقبلوا على الإسلام بإخلاص الإيمان ، خالياً من كل شائبة لتفلسف وكهانة أو دين مبدل .

ولقد أعانهم على ذاك كما أشرنا من قبل مانعموا به من ملك اللغة العربية الدينية المبينة التى حذقوها وتمرسوا بيانها وتعبيرها وفقهها والتى صـــارت جديرة بوحى أكرم كتاب نزل إلى البشرية وفى ذلك يقول شيخنا أحمد موسى سالم :

« بذلك استحقت اللغة العربية أن تكون عند من يعقل الحق ، ويعى التاريخ ، ويتبصر الواقع — هى اللغة الدينية — بين لغات البشر — التى كانت محور قومية العرب ، وعنوانهم فى التاريخ ، والتى أصبحت بعد

---

(١) لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب صفحة ١٢٣ ، ١٢٤ .

نزول القرآن منبعهم الذى لا يغيض لوعى الإسلام ، والتزامهم أن يقوموا به ، وأن يدافعوا عنه . . . »[1]

تعليم العربية القرآنية :

هذه اللغة التى أعطت البشرية بالقرآن الكريم ما أعطت من دين ، وعلم وحضارة وعمران يجب أن نصعد إلى مستوى بيانها وثقافتها ، كما ارتقوا إليها ، وكما أبدعوا هذا المستوى وهذه الثقافة ، فنعلم جيلنا بيانها ، واشتقاقها ، وفقهها بحذق نصوصها : شعرها ونثرها ، وما احتويا عليه من حكم وأمثال ، ونظرات عامة فى الدين والخلق والحياة . فعندى أن اللغة العربية فى جذورها قبل نزول القرآن الكريم ، بما احتوت عليه من شعر ونثر ، دليل عقلية ثرية ، وثقافة إنسانية واسعة ، وسمو فى الفكر والبيان ، فنزول هذا القرآن الكريم ، الذى سما على كل قول ، واعتلى كل بيان ، وجمع أسمى مراقى التفكير ، والتوجيه والتعليم فى كل مجالات الحياة — بهذه اللغة العربية ، لدليل ناصع على أن العرب ، كانوا قبيل الإسلام أسمى الأمم ثقافة ، وعقلا وفكراً ، وبياناً ، وكيف لا يكونوا كذلك ، وقد امتلأ الكتاب الكريم بكل هذا وما هو فى قمة السمو ، وقد صوره فيه بأبلغ بيان وتحدث عنه بأدق وأشمل تصوير ؛ مما نراه فى وصف الأرض والسماء ، وجبال السحب والغيث ، بعد البروق والرعود ثم تتحول الأرض الجدباء الصفراء بخلق جديد إلى خصبة خضراء ، فتقبل « الأنعام » من الإبل والغنم ، التى حملت اسمها من نعمة الله على عباده هؤلاء ، فيتحول المرعى الخصب ليخرج من بين فرث ودم لبناً سائغاً للشاربين .

---

(1) لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب ، صفحة ١١٨ .

ثم ننظر فى وصفه لجنات الأرض ، وجنات السماء ، ثم فى إنذاره بعد بشير النعمة بأن جنات الأرض تزول إذا لم يقم الناعمون بها بشكر الله عليها وذلك فى مثل قوله تعالى عن نعيم الدنيا بهذا المثل الحى فى حياة العرب الطويلة :

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ... ».

يونس : آية ٢٤ .

وهكذا نجد فى القرآن الكريم من صور الحضارة والنعيم الذى يعد بها المتقين أو التى كان الناس فيها من قبل ، وزالوا عنها ، ما يبين أنه جاء لأناس كانوا فى قمة الثقافة وازدهار العمران — إلى جانب الرقى الفكرى والعقلى واللغوى والأخلاقى كما تشهد بذلك أيضاً قصائدهم ، وحكمهم ، وأمثالهم .

فإذا أردنا أن نصل إلى مستوى التدبر الحق ، فلنعرف كل هذا ، ونحققه بدراسة حياة العرب ، وطبيعة الأرض التى نزل بها الوحى بأرض العرب ، وخصائص لغتهم العربية القرآنية .

علوم الطبيعة والإنسان :

ومن مكملات ذلك أن نحيط أبناءنا بالثقافة العلمية العامة والفكرية ، مما يتعلق بالكون وأثره على الإنسان ، وما يحتويه من أسرار علمية ، تدخل فى مجالات العلوم المختلفة من طبيعية وكيميائية ، وجغرافية وفلكية

لأن القرآن الكريم كتاب الله المقروء جاء فى مقابل كونه المرئى والمشهود الملىء بالآيات الحسية فى مقابل آيات القرآن العقلية ، وعلى هذا فالقرآن الكريم دعوة متجددة للمؤمن ليسير فى الأرض لينظر ويتفكر فى آيات الله بين الأرض والسماء ، ويدرك باتساقها دلالتها على الله ، ويعرف بها الصلة التى تجمع بينه وبين خالقه المحسن إليه :

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » ؟ !

الغاشية : الآيات من ١٧ إلى ٢٠

لقد كان قوم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا السير فى الأرض « قد غرسوا بالشعور الحر قلوبهم وعقولهم فى قوانين هذه الطبيعة التى ارتاضوا لها فبثتهم يقينها ومنحتهم كنوزها ، ووهبتهم أصواتها ، وهم فى سعيهم بين مشاهدها ورياحها وأضوائها وغيوثها ، يرون الله فى كل شىء ، ويدأبون على التقصى والإدراك لكل شىء ؛ فى حدود ما يملكون بالحس رؤيته ، وما يبلغون بالبصيرة مداه ، متنزهين برشد العلم الممكن وبصيرة الشاهد المتمكن عن حماقة من حولهم »[1]

ويمكن أن نتبين ما بقى من معالم الطريق إلى تدبر كتاب الله فيما هو آت :

حياة العرب وسيرة الرسول :

أولا : أن ندرس بيئة العرب وأحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم التى كانوا عليها فى جزيرتهم قبيل الإسلام دراسة واسعة ، كى تتضح أمامنا

(١) احمد موسى سالم : لماذا ظهر الاسلام فى جزيرة العرب صفحة ١١٥ .

الرؤية للجوانب والجو الذى نزلت فيه آيات الله بعد ذلك لدرجة ندرك فيها الصحيح وحده من هذه الجوانب ، ونكشف عن جميع فضائلهم ، وعن جذورها وظروف حياتهم التى أعدتهم لحمل أعظم الأمانات فى حياة البشر بالدخول فى دين الله أفواجاً ، وتغيير مسار البشرية من الظلمة إلى النور مثلهم ، وكأننا رجعنا ألفاً وأربعمائة عام من الزمن لنستشف هذا النور ، ونخرج من الباطل إلى الحق ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الجهل إلى العلم ، وكأننا استحضرنا بدقة النظر المهتدى عبر ١٤٠٠ سنة حياتهم وما كانوا عليه ، فندرس تاريخهم ، وبيئتهم الطبيعية التى تتجلى وتتمثل فى جغرافية الجزيرة العربية فى صحاريها ومدنها وبحارها . ونعلم أبناءنا كل ذلك .

ثانياً : دراسة النظم السياسية التى كانت سائدة فى حياتهم ، وكذلك النظم الحربية ، وما يتصل بهما من نظام الإدارة وحياة القبيلة التى لم يهدمها القرآن ولا مجتمع المؤمنين بعد وحدته . ثم حياة الفرد الحرة فى ظل القبيلة . كذلك معرفة تاريخهم عموما ، وصلاتهم التجارية والسياسية والحربية بالشعوب الأخرى .

ثالثاً : العلم بما ورد من أسباب نزول آيات الذكر الحكيم ، فإن العلم بالسبب يهىء العلم بالمسبب ، وفى ذلك جانب من الجلاء والوضوح لسياق الآية أو السورة التى وردت فيه .

رابعاً : معرفة وافية بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحرى الأخبار الصحيحة التى جاءت بها ، ومقابلتها على القرآن الكريم معنى ونصاً . فإن ذلك يعين على تمثلنا لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام حينما نستجليها من كتاب الله الذى نزل عليه فكان هو الجامع لسيرته وَخُلُقِه .

خامساً : معرفة الصحيح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم

ومقابلتها أيضاً بآيات القرآن الكريم معنى ونصاً ، وترك ما كذب به على الرسول صلى الله عليه وسلم أعداء الإسلام والمسلمين ممن دسوا إلى المحدثين فى عصر الوضع أهدافهم الإسرائيلية والفلسفية والباطنية .

التدبر المباشر للقرآن :

فى ظل الاهتمام بهذه الجوانب البيئية والتاريخية الصحيحة مع تعليم اللغة العربية الفصحى بتحفيظ القرآن الكريم ، وتدريب المدرسين الأكفاء، يستطيع أبناؤنا أن يتقدموا لقراءة القرآن قراءة تدبر ووعى وفهم ، فإن هذه هى القراءة المطلوبة ، كما قال تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ » ص : آية ٢٩

أى ليقرءوه قراءة تدبر ووعى، فإذا ما أهلنا أنفسنا إلى مستوى التدبر ذلك المستوى الذى أشرنا إلى جوانب منه فيما تقدم ، ووضعنا أنفسنا ، بلغتنا ، ودراستنا لتاريخ آبائنا وسلفنا الصالح الذين نزل فيهم الكتاب ، فى مستوى القدرة على تدبر كتاب الله – استطعنا أن نجنى من إحياء لغة القرآن ، ومن بناء حياتنا به ، ومن جمع أواصرنا عليه ، ومن تزكية مجتمعنا على أساس شريعته – جميع هذه الثمرات التى أودعها الله فى تدبر كتابه بلغة كتابه من الإيمان والعلم ، ومن الحرية والعدل ، ومن السواسية والسلام .

ومما تجدر الإشارة إليه بصدد موقفنا موقف المتدبرين الذين امتلكوا باللغة العربية القرآنية وثقافتها وسائل التدبر ، أن لا ننتقل من نص إلى نص آخر إلا بعد تدبر النص الأول ، ووعيه وعياً كاملا ، كما روى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا إذا تعلموا من النبى الكريم عشر آيات ، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا

وهم أمثال (عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهم) : «فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل أو (جد) فى أعيننا ، أى عظم . فلم يكونوا ينظرون إلى القراءة لذات القراءة، وإنما لما وراء القراءة من التدبر والفهم[1]. وبهذا بعدوا عن تلاوة الترديد الذى نعيش فيه اليوم بقصد التبرك دون وعى لما حوت تلك الآيات البينات ، ودون سعى إلى تأهيل أنفسنا لوعى مافى تلك الآيات البينات من حوافز لزيادة الإيمان والعمل ، وتغيير ما يعوقهما .

فالواقع أن ثقافة المسلمين اليوم أخذت تفقد طابعها العربى ، كما أن دراستهم للعربية لا تزيدهم إلا بعداً عن الفصحى العربية ، وعجمة بالنسبة لفهمها ، وتدبرها ، وتدبر نصوصها بما فيها نصوص القرآن الكريم ، فستوى المتعلمين فينا هابط كثيراً عن مستوى فهم كتاب الله ، وما نقدمه للناشئة فى هذا المجال يحتاج إلى زيادة تدعيم ، ومضاعفة جهد . فالأصالة العربية هى المطلوبة أولا فى وسائل تعليمنا ، وفى بيوت الدراسة . ولا ثقافة لعربى لا يتقن لغته ، ولا يستطيع أن يجتهد ليتدبر القرآن ، باللغة ، والعقيدة ، والثقافة التى يقترب بها مما كان عليه قوم النبى صلى الله عليه وسلم .

ويمكن هنا أن يعترضنا سؤال ، وهو : وهل معنى ذلك الاستغناء عن تفسير القرآن ، وتقديمه بنصه لمن يريد أن يتدارسه ، مع ملاحظة تدعيم قارىء القرآن نفسه بالأسس المتقدمة ؟ !

(1) مقدمة من أصول التفسير لابن تيمية .

والإجابة على ذلك هى : نعم . مع اعتبار أن تدبر القرآن الكريم تفسير وفهم ، فمن أوتى صحة اللغة وإخلاص الفهم والتدبر فقد أوتى عدة التفسير ، وما أخطأ المفسرون السابقون ، إلا لافتقادهم مقومات المفسر أو المتدبر ، أو لنقصها .

على أنه مما يعين على موقف التدبر هو مقابلة آيات القرآن بعضها ببعض ، أو كما يقول ابن تيمية[1] : « أن يفسر القرآن بالقرآن ؛ فما أجمله القرآن فى مكان فإنه قد فسره فى موضع آخر . ثم بعد ذلك فإن ما يقال ، أو يكتب فى هذا المجال ، فهو فهم شخصى لا يحق لغير صاحبه أن يأخذ به فى فهم القرآن وتدبره .

إن ما نرجوه لشبابنا ، ولكل المسلمين فى بلادنا ، وفى كل الأرض ، أن تتوفر لهم باللغة القرآنية وثقافتها أن يأتوا إلى القرآن مواجهة ، ويباشروا تدبره ، وفهمه بأنفسهم ، فإنهم بعد هذا الاستعداد اللغوى والتاريخى والعلمى لتدبره ، يدركون من القرآن وتعبيره المنزل ، مالا يدركونه أبداً عن طريق تفسير المفسرين .

إن خاصية القرآن هى الإشعاع المباشر كما قال تعالى :

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ، مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ »
الزمر : آية ٢٣

---

(١) مقدمة فى اصول التفسير ص ٩٣ .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ » الحشر : آية ٢١

وهكذا فالقرآن ليس ألغازاً حتى تحتاج إلى التفسير للتوصل إليه ، وإنما هو كما قال منزله فيه :

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ » .
الحج : آية ١٦

وكما قال :

« كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » فصلت : آية ٣

فهو بين وواضح ، وقريب من النفس الفطرية التي تعلمت له ، وتعلمت به .

إننا بهذه المواجهة بتدبر القرآن الكريم نريد الانتفاع بإشعاعه المباشر ، والاهتزاز ببلاغته التي لا يعبر عنها إلا هو ، من طريق تلاوته وتدبره بألفاظه وتراكيبه وتفصيله . وهذا هو عين ما جاء له القرآن الكريم من طريقته الفريدة التي ترد الأنفس المعوجة بطول الإنصات إليه إلى سلامة فطرتها ، فتصحو بعد غفلة ، وتقبل على الله بعد إدبار ، وتؤمن وتزكو ، كما فعل تماماً بقوم النبي بعد كفرهم وشركهم حتى أسلموا ، وكفوا عن العناد ، ثم قرأوه بعد إسلامهم ، فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس .

إن الأمة العربية أو الأمة الإسلامية ، بانصرافها عن تدبر كتاب

الله قد ضعفت على مر الزمن ، واستبيح الكثير من أوطانها ، وهوجمت من أعدائها فى القديم والحديث ، حيث تألب عليها مع الشعوبية هذا الثلاثى الواسع الأطماع من الصهيونية والشيوعية والاستعمار الحديث ، وهى بهذا كما نرى فى زوايا وأركان الوطن العربى ، تحاول المقاومة ، وتحاول الانتصار على هذا التحدى الطاغى ، وعلى التخطيط العدوانى الذى يتربص بها الدوائر ، ولن يكون لها ذلك مع ما أنعم الله عليها به من موارد وبشر إلا باستعادة حياتها بالإسلام ؛ « وذلك بأن تستعيد برهانها الصحيح عليه باللغة والتاريخ والدين ؛ فتستعيد موقع الإسلام وحضارته فى هذا العالم المعاصر ... حيث يمكن ببرهان الواقع ، أن يجد أولئك الذين يفتقدون الإيمان ، أو من ينكرون الإيمان ، صورة هذا الإيمان الحق متجسداً فى مجتمع ، وأن يلمسوا علامة الحياة فى أمة ، وأن يبصروا حياة الإيمان المضيئة فى قطاع صادق نشط من البشر ؛ فوق نفس الأرض التى ظهر فيها من قبل : إبراهيم وإسماعيل ، ويعقوب وموسى ، ودعا المسيح ومحمد .... وحيث لا يزال القرآن حافظاً هذا التاريخ العظيم ، ومشرقاً به ، ومهيمناً عليه ، فلا يضل به البشر أبداً إن شاء الله ... وهو يشرق عليهم كما بدأ من جزيرة العرب ... وكل وطن العرب .. والعالم » .

(والحمد لله رب العالمين)

بحوث القسم الخامس

القرآن الكريم
والمجتمع

يجيب عنه

الأستاذ عبد الغني سعيد
وكيل وزارة القوى
العاملة سابقاً



السؤال الأول :

على عهد الرسول الكريم قام مجتمع المؤمنين فى صورة « نظام ودولة » • هل عرف هذا المجتمع الاسلامى الأول مايمكن أن نسميه « نظرية اجتماعية اسلامية » أقاموا بها نظام مجتمع على أحكام القرآن الكريم ، وأخلاق الاسلام وغايات الدين ؟

الإجابة :

بعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام خاتماً للأنبياء والمرسلين ، وختم بالإسلام والقرآن الكريم جميع الرسالات السابقة التى تتابع إرسالها على رسل متتابعين ، داخل الوطن العربى الذى سمى لذلك مهد الدين . وكان كل رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام يرسله الله سبحانه وتعالى إلى قومه دون سواهم ، وليخاطبهم بلسانهم ، أى بلهجتهم من اللسان العربى كالعبرية والآرامية :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» إبراهيم : آية ٤

وكانت غالبية هؤلاء الأقوام لايستجيبون لدعوات رسلهم ، بل وكانوا يؤذونهم ويحاربونهم ، وغالباً ما كان الله سبحانه وتعالى يصب عليهم غضبه بالكوارث الطبيعية مثل الطوفان والزلازل والأعاصير المدمرة وغيرها .

أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد اصطفاه ربه ليكون رحمة للعالمين :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » الأنبياء : آية ١٠٧

أى بعث به للناس كافة :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » سبأ : آية ٢٨

وهذا أمر طبيعى ، مادام الإسلام فى دعوة الرسول والقرآن هو الرسالة الباقية الظاهرة التى ختم الله سبحانه وتعالى بها نزول الوحى ، كما أظهر وأتم بها الدين الحق ، كما جاء فى قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »

التوبة : آية ٣٣

وكما جاء فى قوله تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » . المائدة آية : ٣

وكما جاء فى قوله تعالى :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ » . آل عمران : آية ١٩

وهذا لايعنى أن الإسلام دين الفطرة فحسب ، ولكنه يعنى أيضاً أن الإسـلام هو الدين الكامل والخالد ، الذى أقام الله به مجتمعاً إسلامياً بقيادة الرسول الكريم ، بعد أن ألف الله بالإسلام قلوب الناطقين بالجزيرة العربية بلسان القرآن الكريم ، وبذلك قامت هذه الدولة الإسلامية التى تحددت علاقاتها بالشعوب الاستعمارية من الروم والفرس على أساس تحرير الوطن العربى من نيرهم بالشام والعراق ومصر ، وعلى أساس السلام العادل مع من أراد موادعة المسلمين بغير عدوان على أرضهم ، ومع تنظيم قواعد الحرب والسلام فى حدود الطابع السلمى وغير القسرى للإسلام .

لقد جاء الإسلام فاتخذ خطوات وحدوداً ظاهرة فى دعوة القرآن

الكريم به، ليس فى اتجاه تدعيم وتقوية الأسس والمبادىء الخلقية فحسب، ولكن باستكمال أصولها وفروعها أيضاً ، وإظهار معالمها وثمارها حتى فى أبسط صور المعاملات اليومية ، وذلك فى مثل قوله تعالى :

«قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى »

البقرة : آية ٢٦٣

وفى مثل قوله تعالى :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

النساء : آية ٨٦

وهكذا خرجت الأمة التى دعاها الله بالقرآن الكريم ، وبلسانه العربى المبين وبعد أن تعارفتا على التقوى بشعوبها وقبائلها داخل الجزيرة العربية، وحيث ألف الله بين قلوبها بعد التنافر ، وبعد مثالب الشرك ، ونقائص الكفر ، بهذه النعمة التى أتمها عليها الإسلام لتكون منهم كما جاء فى قوله تعالى إليهم :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »

آل عمران : آية ١١٠

ولقد كانت هذه الاستجابة من الله لهذه الذرية الصالحة من أبناء إبراهيم وإسماعيل حول بيت الله وعلى أرض الجزيرة العربية جلية فى آيات القرآن العربى المبين فى مثل قوله تعالى للمسلمين من هذه الأمة المجتباة :

« هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ».

الحج : آية ٧٨

مجتمع التكافل :

ولاتقاس قوة ومزايا مثل هذا المجتمع المثالى بالمظاهر أو الشعائر ، وإنما تقاس بسلوك الأفراد المكونين له فى شتى نواحى حياتهم اليومية :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وفِى الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِين فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » البقرة : آية ١٧٧

فعلى الأفراد المكونين للمجتمع الإسلامى ، مجتمع التكافل الاجتماعى ، أن يحسنوا التصرف والسلوك والتعامل كأفراد وكجماعات فى نفس الوقت وأن يعاونوا بعضهم البعض الآخر فى السراء والضراء ، وفى الصمود أمام مختلف أنواع المغريات التى تسبب انحرافهم عن الصراط المستقيم أو ابتعادهم عنه :

« وَتَعَاوَنُوا علَى الْبِرِّ والتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ »
المائدة : آية ٢

ولهذه الآية القرآنية البليغة مغزاها العميق من زاوية السلوك الجماعى ومبادىء علم النفس فقد أجمع علماء النفس على أن الأفراد غالباً مايرتكبون من الآثام والجرائم وهم فى مجموعة مالا يجرأون على ارتكابه كأفراد . لأنهم يكونون فى المجموعة عادة أكثر نزوعاً للعدوان . وهذا هو مايحدث

فى غمار الحرب ، أو فى أعمال السطو والتخريب التى كثيراً ماتتخلل أعمال الشغب السياسى والمظاهرات .

من هنا ، ، وإدراكاً لهذه الحقيقة النفسية التى أكدها القرآن الكريم قبل أن يظهر علم النفس بمئات السنين ، يدعو الإسلام إلى التعاون بين أفراد المجموع على مافيه خيرهم وخير المجموع . أى أن يقيم بنيان المجتمع الإنسانى على تعاون إيجابى يستند إلى قيمة التكافل الاجتماعى .

فالمؤمن للمؤمن فى مثل هذا المجتمع المتعاون المترابط « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » ، كما جاء فى الحديث الشريف . وما أكثر الأحاديث الأخرى للرسول صلى الله عليه وسلم التى تؤكد قيمة التعاون والتكافل ونذكر منها على سبيل المثال :

- الناس بخير ماتعاونوا .
- خير الناس أنفعهم للناس .
- يد الله مع الجماعة .
- لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه .
- ليس منا من بات وهو شبعان وجاره جائع .

نظرية هذا المجتمع :

يمكن القول على ضوء ما سبق أن « التكافل الاجتماعى » هو النظرية الاجتماعية التى أرسى على أساسها الإسلام بنيان المجتمع الإنسانى . وقد أصبحت هـــذه النظرية العلمية قيمة أساسية فى دساتير العصر

الحديث . والإسلام عندما اتخذ منها قيمة أساسية لمجتمع المؤمنين ، لم يفعل ذلك على سبيل الوعظ والإرشاد ، أو على أساس نظرى بحت وإنما وضع لها منهجاً عملياً يعتمد على الزكاة من جهة ، وعلى حسن الجوار والتكافل من جهة أخرى .

فريضة الزكاة :

وفريضة الزكاة هى أحد الأركان الأساسية للإسلام . . وقد قرن الله سبحانه وتعالى بينها وبين الصلاة فى أكثر من آية قرآنية توكيداً لأهميتها ، وحارب من أجلها أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين عندما حاول بعض المسلمين التنصل من دفعها ، فاعتبرهم أبو بكر مرتدين وحاربهم حتى أقروا بأدائها .

وجدير بالذكر أن الزكاة ليست نوعاً من الصدقة أو البر الفردى الاختيارى ، وإنما هى فريضة جماعية تستهدف التنمية الإجتماعية ، وإعادة توزيع الدخل لصالح المحتاجين والمعوزين من ذوى القربى والمساكين وابن السبيل

« إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِين عَلَيْهَا والْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » التوبة : آية ٦٠

أى إن الزكاة تؤخذ أساساً من القادرين لتعطى لغير القادرين ، وهى بذلك أداة عملية للتكافل الاجتماعى تسد حاجة المعوز وتطهر من الشح الاجتماعى مال القادر :

«خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» التوبة : آية ١٠٣

فهى تقوم بعملية سلمية لمقاسمة الفقراء الأغنياء فى أموالهم بحقهم المشروع ، والمقبول من الطرفين المتآخين بغير حقد ولا كراهية ، وبذلك تحقق التراحم والتكافل والسلام الإجتماعى للمجتمع المؤمن .

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العملية السلمية لإعادة التوزيع بقوله البليغ فى حديثه الشريف : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا إلا بما يصنع أغنياؤهم . » وقد أكد هذا المعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله المأثور عنه : « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك » وكما أكده من قبله عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله البليغ : « كل ترف بإزائه حق مضيع » وفى هذا كله ما يبرز رسالة الزكاة كفريضة جماعية تتجه بالمؤمنين نحو التكافل الاجتماعى .

أما مبادىء حسن الجوار وإعطاء الصدقات بالإضافة إلى الزكاة ، والإنفاق فى وجوه الخير بصفة عامة فهى أيضاً وسائل عملية لتطبيق هذا التكافل الاجتماعى .. فالإسلام دين الرحمة ، والمسلمون رحماء بينهم يمد كل منهم يد المعونة إلى أخيه المسلم ، بل هو مسئول وملتزم بتبادل المعونة مع جيرانه . وتبادل المعونة بين الجيران فى إطار الشريعة الإسلامية بالتكافل الاجتماعى .

ومن نماذج المعونة المتبادلة تقديم الأهل والجيران مساعداتهم المالية أو فى صورة هدايا فى حالات الزواج والولادة . وكذلك تقديم المساعدات

أو الهبات فى حالات المرض والوفاة . وما ينفقه المواطن المسلم فى أى من هذه المناسبات ، يعود إليه إذا مر بأى منها فى المستقبل . فهو نظام للتأمين الاختيارى لا يحتاج إلى دفع أقساط محددة أو يتطلب نظماً معقدة للحسابات ، بل يقوم على الحافز الدينى الاجتماعى الذى يتسابق به المؤمنون .

ولقد طبقت نظرية التكافل الاجتماعى بأجلى صورها فى مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان أول تطبيق لها هو التآخى والمشاركة بين المهاجرين والأنصار . فالمهاجرون من المسلمين الذين هاجروا من مكة تاركين أموالهم فيها ، لم يلبثوا أن وجدوا ما عوضهم عنها فى المدينة . إذ أشركهم الأنصار فى أموالهم ، بل يسروا لهم المسكن والزواج بالتنازل أو التطوع . وبعد الغزوات ومع بدء تجمع الغنائم والأموال لدى بعض المسلمين وتنميتهم لها بالتجارة ظهرت مشكلة تجمع المال فى أيدى أفراد قلائل ، وظهرت أخطار التميز والاستغلال ، فنزلت الآية القرآنية التى تمنع اختزان الأموال لغرض السيطرة وفرض السلطان . وتقضى بتحريكها واستثمارها للنفع العام :

« مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » الحشر : آية ٧

كما نزلت الآية الكريمة المؤكدة لنفس المعنى والهدف :

« وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ » الشورى: آية ٢٧

وتوالى نزول الآيات القرآنية فى المدينة المنورة . وكان أغلب هذه الآيات يركز على تنظيم شئون المجتمع الاسلامى فى المدينة ، بالأحكام المناسبة وقتما تقتضى الضرورة ، أى أن التشريع الإسلامى المنظم لمجتمع المدينة المنورة نزل تدريجياً على مدى عشر سنوات ، بينما استغرق نزول آيات القرآن بأكمله ٢٣ عاماً منها ١٣ عاماً فى مرحلة الدعوة فى مكة .

وبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم أسهمت السنة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله فى بيان وجوه التطبيقات العملية للتشريع الإسلامى . .

ومن أمثلة النظم الاجتماعية التى استحدثتها السنة تعميم انتفاع المسلمين لمياه الآبار وأرض الرعى . فقد حدث أن منع أحد أثرياء اليهود المقيمين فى المدينة المنورة ماء بئره عن المسلمين ، وأصر على أن يبيع الماء لهم بثمن باهظ . فأقدم عثمان بن عفان رضى الله عنه على شراء البئر من ذلك اليهودى وجعل ماءها ملكاً للمسلمين على المشاع ، ولم يلبث أن أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » كما حمى الرسول بعض الأراضى العامة لتكون مرعى لجميع المسلمين . وبذلك يكون الإسلام قد أقام بتطبيق شريعة الله أول مجتمع إنسانى يحقق العدالة الاجتماعية بأكمل صورها ، وذلك قبل أن تظهر النظم الاشتراكية بمئات السنين وتزعم أنها تحقق العدالة الإجتماعية والمساواة وتكافؤ الفرص . وبينما أقام الإسـلام نظامه الإقتصادى الإجتماعى على التعاون والتكافل الإجتماعى ، أقامت الإشتراكية نظامها على الصراع الطبقى والحقد : ولم تستطع أن تكفل للمواطنين الحرية التى وعدت بها ، إذ حولتهم فى نظامها القهرى إلى مجرد أدوات تصبها فى قوالب ، وتحركها كما تشاء ، بقيادة مطلقة غير منظورة .

العمل والجزاء :

وفى شريعة الإسلام أنه يعمم الملكية الخاصة ولا يحرمها ، ويجعلها بالكثير من الضوابط والحوافز طريقاً لمجتمع الأخاء والتكافل ، فهو يقرنها بالعمل ، ويقيمها على الكسب الحلال ، كما يحقق بقيامه على العدل والمسئولية عنه أمام الله والناس – تكافؤ الفرص فى العمل وفى الكسب . فالكل يعمل ، والكل يجازى بقدر عمله :

« وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »

التوبة : آية ١٠٥

« هَلْ تَجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » النمل آية : ٩

هو الجزاء إذن بقدر العمل . ومن يعمل ينل عن عمله أوفى الجزاء

« وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الْأَوْفَى » النجم : آيات ٣٩، ٤٠، ٤١

ولما كان كل مواطن فى المجتمع الإسلامى يعمل ويجزى بقدر عمله ، ولما كانت قدرات المواطنين واستعداداتهم الطبيعية غير متساوية ، فلا مفر من وجود مستويات متفاوتة من الدخل ، أو درجات اقتصادية . ومثل هذه الدرجات الاقتصادية المفتوحة للجميع تختلف كل الإختلاف عن الطبقات الإجتماعية المغلقة . ذلك أنها لا تورث ، ولا تعطى مركزاً اجتماعياً أعلى ومركزاً اجتماعياً أدنى .. وإنما هى تعنى مجرد التعاون فى قدرات العمل ، والتدرج فى مراتب المسئولية التى لا يحسن بدونها سير المجتمع الإنسانى :

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » الزخرف : آية ٣٢ » .

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ . الأحقاف : آية ١٩

درجات لا طبقات :

وجدير بالذكر أن هذه الدرجات الاقتصادية ليست بالمفتوحة إلى أعلى بلا حدود . وقد كان الإسلام حريصاً على أن يضع مبدأ الحد الأعلى النسبى لكى يعمل كصمام أمن ضد تجمع الأموال لدى قلة من الأفراد . ولهذا الحد ضوابط أربعة حددها القرآن الكريم وهى :

أولا : الحيلولة دون تجمع الأموال فى أيدى قلة متميزة إلى الحد الذى يتيح لها الاستغلال والبغى والتسلط على الآخرين

« وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ » الشورى : آية ٢٧

« كَىْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنْكُمْ » الحشر : آية ٧

ثانياً : مقاومة الترف والتبذير ، الأمر الذى يعرض المجتمع للتحلل والتباغض :

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » الإسراء : آية ١٦

ثالثاً : حظر الاكتناز ، أى تجميع الأموال بواسطة البعض لمجرد التجميع والتكديس وبدون إنفاقها ، مما يعوق سريان دورة الإنفاق الخيرة . وذلك لأن اكتناز الأموال وحبسها عن التداول المثمر ، ليس

بالأقل إضراراً من حبس ماء الأنهار عن الجريان ، لهذا استنكر القرآن الكريم الاكتناز وأنذر المكتنزين »

« وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » التوبة : آية ٣٤

رابعاً : لا يجيز الإسلام تجميع الأموال عن طريق بخس حقوق الأفراد ومنعها عنهم :

« وَلَاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »

هود : آية ٨٥

وهذا مبدأ أساسي عام ، يمنع بخس العامل أجره ، واستغلال المستهلك بالمغالاة فى رفع الأسعار ، أو ببخس الكيل والميزان . وغير ذلك كثير من صور بخس الحقوق .

هذه هى الضمانات التى يقدر على أساسها الحد الأعلى للدخل فى المجتمع الإسلامى ، وهو حد نسبى يختلف من مجتمع إلى آخر ، ومن عصر إلى عصر ، ولكنه لا يتجاوز ما فرضه الإسلام من وسائله وضوابطه السلمية لتحقيق العدل فى توزيع المال وخيرات الأرض والعلم والعمل بين الإخوة المؤمنين ، المتراحمين ، المتكافلين . .

الحرية والشورى :

ونحن إذا رجعنا إلى حياة المسلمين الأوائل فى عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد خلفائه الراشدين ، نجد أنهم مارسوا

الشورى فى الحـكم بشريعة الله بأصدق حقوقها ، وتمتعوا بالحرية بأوسع معانيها . وكان المجتمع الإسلامى خلوا من الجاسوسية والتسلط ، بطبيعة ما أضاء به القرآن الكريم من خلق ، وما قدمه الرسول من أسوة القرآن الكريم الذى نهى عن التجسس والغيبة :

« وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » الحجرات : آية ١٢

وقد أثبتت التجربة الواقعية فى كل الدول وعلى مر العصور أن الوسائل البوليسية تضر أكثر مما تنفع ، وأن الحكام الذين يخلقون الأجهزة البوليسية بدعوى المحافظة على أمنهم لا يلبثون أن يقعوا هم أنفسهم تحت سيطرة هذه الأجهزة .

ولقد عاش المسلمون الأوائل فى صدق إيمانهم بالله ورسوله ، وبالقرآن وأحكامه ، حياة الأخاء ، والحب ، والمقاسمة ، والتراحم ، والشورى ، والحرية للارادة والتعبير ، والأمن فى الظاهر والباطن ، بما هو الأسوة الحسنة ، والقدوة الحية ، لجميع المجتمعات الإسلامية التى تريد أن تقيم نظامها على أحكام القرآن ، وأخلاق الإسلام ، وغايات الدين . . .

السؤال الثانى :

« فى أى عصر — قبل هذا العصر الحديث — انقسم المسلمون فى فهم أحكام القرآن الكريم ، ومقاصد الاسلام الى نظريات متعددة تنتهى الى قيام المجتمع الاسـلامى على نظم واتجاهـات وغايات مختلفة .. بينما شاعت الحرب الكلامية والاتهام بالزيغ بين بعض هذه الفرق والبعض الآخر . فما هى الأسباب التى أدت — من وجهة نظرك — الى هذا الانقسام المؤسف بعد الوحدة ، والى التيه بعد الهـدى ؟ » .

الإجابة :

القرآن الكريم هو الآية الباقية لدعوة الإسلام الحق . وهذا أمر طبيعى لأن هذه الدعوة التى ختم الله بها ما سبقها من الدعوات ختاماً أرساه خاتم النبيين ، وقام به مجتمع المؤمنين لابد وأن يتحقق لها الاستمرار بعد الرسول بآية هى القرآن لا يأفل نورها ، ولا تنقطع دعوتها فى كل مجتمع وفى كل عصر .

لقد جاء الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومعهم آيات حسية لإقناع قومهم بأنهم مرسلون إليهم من الله الذى كفروا نعمته وأشركوا به ، وقد وقف التأثير الحسى لجميع هذه الآيات عند العصر الذى نزلت فيه ، وما كان هذا التأثير لينتقل حسياً إلى العصور التالية ، على الرغم من تسليمنا بوقوعها تسليما نابعاً من إيماننا بالله ورسله وكتبه ، فنحن الآن فى غير الصحيح من كتب أهل الكتاب لا يمكننا العثور على قطعة من سفينة نوح أو من عصا موسى ، أو على أثر لطب عيسى فى متحف ، أو نكتشف وجوده فى أى مكان آخر .

أما القرآن الكريم آية الله البيانية الخالدة عن الدعوة المستمرة به للإسلام فهو باق بين الناس بقاء الدهر ، وكما أنزله الله تعالى على رسوله حافظاً لحقائق الدعوة إلى الله منذ كانت من أول آدم ، وحافظاً فى نوره أيضاً بعيداً عن النسيان لتاريخ الرسل السابقين ، وآيات الله الحسية إليهم ، وكلمات الله لهم ، وهكذا كانت آيات القرآن الكريم الذى جعله الله الآية العظمى والباقية لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام آيات لا تنفد معانيها ، ولا تجدب حقائقها ، ولا ينتهى زمانها ، ولا تتوقف دعوتها .

وفى هذا المعنى يقول سبحانه :

« قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدَا » الكهف : آية ١٠٩

ويقول أيضاً :

« وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

سورة لقمان : آية ٢٧

وليس المقصود بهاتين الآيتين القرآنيتين أن كلمات الله أى آياته التى يضىء بها ، وينبىء عنها كتابه المنير هى من ضخامة العدد بحيث لا يمكن حصرها ، وإنما المقصود بهما هو توضيح كونها خالدة لا تفنى ولا تنفد أو يعفو عليها الدهر !

عصر التفسير :

هذه الآية البيانية الخالدة فى القرآن الكريم نزلت على العرب ، وعلى نبى منهم من قريش ، فى ذروة اكتمال اللسان العربى ، الذى نزل به القرآن العربى وحياً من الله لقوم يعقلون ويتدبرون به هذا القرآن فى مثل قوله تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . يوسف: آية ٢

وهكذا بقيادة الرسول الكريم لقومه المبينين المعربين ، وهو أعربهم كما ورد فى حديثه : « أنا أعربكم أنا من قريش واسترضعت فى بنى بكر ابن سعد » قام مجتمع المؤمنين بهذه الوحدة الكاملة لساناً وديناً وقربى بين

من لم يختلفوا على فهم القرآن الكريم ، وتدبره ، وبينهم فى الدرجة العليا منهم رسول الله ، أسوتهم الظاهرة للعمل بشريعته ، والجهاد فى دعوته ، حتى تمت بهذا القرآن النعمة على هؤلاء العرب المبينين ، وذلك بتمام الإسلام الخالص لله الذى ألف به بين قلوبهم ، وحقق به نصرهم ، وفتح لهم تحت رايته الطريق لدعوة من حولهم للإسلام بعد الرسول ، والشهادة بهذه الدعوة عليهم .

لهذا فإن الحاجة إلى تفسير هذا الكتاب الحكيم لم تظهر إلا متأخرة ، وعلى شكل مدارس متعددة المناهج والمفاهيم ، وذلك بعد انتشار الإسلام وامتداده إلى أقوام آخرين غير العرب ، وعلى الأخص بين الفرس وبعض شعوب آسيا الوسطى . فهؤلاء المفسرون من المسلمين غير العرب ممن احتاجو لتفسير ما استعجم عليهم فهمه من القرآن كانوا ولا شك متأثرين برواسب تفكير أقوامهم وبتقاليدهم الموروثة . ومهما تبحروا فى اللغة العربية فقد كانت بعض المعانى الدقيقة للكلمات المتعددة المعانى بوجه خاص يخطئهم التوفيق فى فهمها ، هذا فضلا عن أنه مع تعاقب العصور بعدت الشقة بين الأجيال الجديدة وبين فهم بعض آيات القرآن على ضوء أسباب النزول .

إن المسلمين العرب الأولين من قوم النبى عليه الصلاة والسلام ، والذين نزل القرآن إليهم بلسانهم ، ومتحدثاً فيه عنهم ، وعن نعمه التى لا تحصى عليهم ، ومذكراً لهم ببيت الله الذى أقامه على أرضهم بمكة أبوهم إبراهيم بمعاونة أبيهم إسماعيل — هؤلاء العرب الذين تمت لهم باجتباء الله نعمة هذا اللسان العربى المبين كانوا يدركون معانى القرآن وآياته وقت نزولها أولا بأول ، وهم يتسابقون إلى الاستماع إليها منذ أول الوحى مؤمنين

ومشركين ، حتى تم إيمانهم جميعاً خلال مرحلة الدعوة ، وحيث كان بيان القرآن الحكيم هو بآياته أداة التبيين لدعوته إليهم ، وحجة الله بكلامه الذى هو من جنس لسانهم عليهم . فهم أول من يعلم بمتابعة هذا التنزيل والترتيل فى قرآن تخشع له قلوبهم ، ثم تلين لذكر الله به جلودهم وقلوبهم ، هو من عند الله ، ولا يمكن بحجة الله عليهم به أن يكون من عند غير الله ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى لهم :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .
النساء : آية ٨٢

فلما أن مضى هذا العهد المستنير بتدبر القرآن بلسانه ، والمتخلق بخلقه وراء رسول الله الأسوة لكل أصحابه ، ثم لما أن مضى من بعده أيضاً عهد الخلفاء الراشدين أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم جميعاً ، جاء عهد الأمويين بعد أن فشا فيه الترف وبعد أن تحولت الخلافة إلى شبه أسرة مالكة ، وتولى أمر المسلمين من قصور دمشق خلفاء ليسوا بالأئمة ، أو ليسوا بالعلماء والقدوة فى الدين — وقعت الفرقة فى صفوف المسلمين ، وكانت قد بدأت بالحرب بين اثنين من ذوى القربى من قريش ومن صحابة رسول الله هما : الإمام على بن أبى طالب ، وبين معاوية بن أبى سفيان أحد كتاب الوحى لرسول الله ، ووالى الشام من قبل عمر بن الخطاب ومؤسس الدولة الأموية ، وكان رجل دولة بمعنى الكلمة لا يتردد رغم تدينه فى تقديم مصلحة الدولة أحياناً تذرعا بأن فى الحفاظ عليها حفاظاً على مصلحة الدين .

بداية التحلل :

ولقد كان معاوية كصحابى رجلا قوى الشخصية قد كفل الاستقرار للدولة الإسلامية ونجح فى مد رقعتها ، وكفالة وسائل الدفاع عنها براً

وبحراً ، إلا أن خلفاءه لم يكونوا على مستوى الالتزام بواجبات الأمير المسلم وحقوق المسلمين فى شريعة الله عليه ، فظهرت الفتن والصراعات فى عهدهم . إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز .

كان عمر بن عبد العزيز رجلا تقياً مؤمناً وعادلا أحيا بسلوكه أحكام الشريعة ، وأخلاقها وغاياتها ، بادئاً من أول الأمر بتثبيت مبدأ الشورى ومبدأ البيعة . فلقد كان الخليفة السابق ، وهو سليمان بن مروان ، قد عقد له ولاية العهد بعد وفاة ابنه الأكبر أيوب . ولما توفى سليمان خلع عمر بن عبد العزيز هذه البيعة الوراثية وأرجع الأمر إلى اختيار المسلمين قائلا : « أما بعد فقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه ، وعلى غير مشورة من المسلمين وإنى أخلع بيعة من بايعنى فاختاروا لأنفسكم » .

وهكذا تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بمبايعة المسلمين القائمة على الاختيار الحر . وبدأ حكمه العادل الرشيد بعزل المستبدين والمنحرفين من ولاة الأمصار ، وجباة الخراج ، كما ألغى مخصصات أمراء بنى أمية ضارباً بنفسه المثل . بل إنه لم يتنازل عن مخصصاته فحسب ، بل تنازل أيضاً عن أرضه بالمدينة وكان قد ورثها عن والده وضمها إلى بيت المال ، وعاش على ريع قطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بماله الخاص ، ولم تكن تغل عليه أكثر من مائتى دينار فى العام .

كذلك فإن عمر بن عبد العزيز قد تجرد من مظاهر السلطة والترف التى تقترن عبر كل التاريخ بسلطة الملوك والأباطرة والقياصرة ، والتى كان بنو أمية قد انزلقوا إليها فسقطوا فى مصارعها . وبذلك كان عمر بن عبد العزيز وهو يتحدث إلى الناس على فراش بسيط فوق الأرض قائلا : « لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم غير أنى أثقلكم حملا » — كان عمر بن

عبد العزيز بهذا التجرد الصادق من الترف والخيلاء والإستئثار بالرأى لكى يحكم بالشورى والعدل وخشية الله فى أمانة الحكم — هو خامس الخلفاء الراشدين كما يصفه بذلك بعض المؤرخين المسلمين .

استمرار التفرق والتحلل :

ولكن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت قصيرة ، حيث لم تتجاوز ثلاث سنوات انقضت بين الدهشة والانبهار كأنها ومضة برق فى ليل حالك . ولذلك فلم يكتب لهذا الغرس الصالح فى حياة المسلمين على عهده أن يستقر ، وأن ينمو ويثمر ، ولم تلبث مظـاهر التفرق والخلافات وصراعات المذاهب المستحدثة فى الإسلام أن عادت أشد مما كانت عليه بعد وفاته ، ودخل بنو العباس إلى حلبة الصراع على الحكم إلى جانب العلويين . ثم سرعان ما فاق العباسيون العلويين فى أطماعهم ، وتطلعوا هم أيضاً على الخلافة .

وكان معنى هذا أن الخلافات المتفاقمة بين المسلمين استمرت بعـد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التى لم تحقق باستيلائها على الخلافة ما كان ينشـده المسلمون من أمن وعدل واستقرار . ذلك أن العباسيين نهجوا نهج الأمويين فى حصر الخلافة فى أبناء أسرتهم ، وبذلك كان التغيير الذى حدث فى أمر الخلافة سطحياً ، واستمر الصراع متفجراً بين العلويين والعباسيين ، مما أدى إلى تدبير العلويين إقامة دولة لهم مستقلة فى المغرب ، ثم عادوا فنقلوا مقرها إلى مصر ، بينما استمر النظام العباسى يستنفد أغراضه وترفه وجهد المسلمين فى بغداد ، بعيداً عن الصراط المستقيم ، وهدى القرآن الكريم .

وبذلك بين القاهرة وبغداد تمزقت وحدة المسلمين ، وضاعت الحدود والمعالم التى أرساها المسلمون الأولون على عهد النبى والخلفاء الراشدين ، وبلغ الصراع على الملك والترف بين من تفرقوا باسم الإسلام الواحد شيعاً وأحزاباً إلى حد استعانة بعضهم بالعدو الأجنبى فكشفوا له عن ضعفهم ، وأطمعوه فى العودة إلى احتلال أراضيهم ، وتبديل مقوماتهم ، بعد أن عاش قروناً على حدودهم بعد جلائه بالإسلام ، يرصد مثل هــذه الفرصة من تفرقهم للإغارة عليهم .

أما العباسيون فقد تقاربوا مع شارلمان ملك غرب أوروبا ، ليتخذوا منه حليفاً ضد القوة الصاعدة للأمويين فى الأندلس . كما كاد أن يقع تقارب مماثل بين الفاطميين والأوروبيين فى مواجهة السلاطين السلاجقة فى بعض مراحل الحروب الصليبية ، لولا أن صلاح الدين ظهر فى مصر وضرب خطة هذا التقارب من جذورها ، وهو يعمل على توحيد مصر والشام ، وعلى تحقيق القدر من الوحدة الذى أتاح له استرداد بيت المقدس ، وشل قدرات الصليبيين بهزيمته الساحقة لهم فى حطين .

إنه من المؤلم حقاً أن نرى المسلمين الأوائل ينجحون بقوة الإسلام الدافعة فى إذابة إمبراطورية الفرس ، وفى إجلاء قياصرة الروم إلى أبواب القسطنطينية ، ينسون أسباب قوتهم فى الإسلام وشريعته ، وحدوده ، وجهاده ، وأخلاقه ، فيختلفون على « الزائل » من المظهر والترف ويتفرقون بالتأويل والتشبيه ، حتى تدهمهم قوى الأعداء المتربصين ، فيفيقوا إلى مصادر قوتهم ، وأصل وجودهم وبقائهم ونمائهم ، عائدين إلى الله وصدق الإسلام إليه ، فينصرهم الله ، كما وقع ذلك بعد أن سقطت بغداد محترقة بآثام حكامها ، وقسوة أعدائها . وهنا عندما تدفقت جحافل

المغول تريد تخريب الشام ومصر تصدى لهم المقاتلون المصريون الأبطال ، الذين لم يستسلموا للهزيمة بل سارعوا تحت رايات الجهاد الإسلامى فضربوا على أيدى المغول ضربتهم التاريخية التى أوقفت أمواج غزوهم فى موقعة عين جالوت قريباً من غزة .

وهكذا منذ ظهر الإسلام على أرض الوطن العربى ، لا يزال المسلمون كلما انحسر عنهم بالفرقة والترف والضعف ظل الأمن عادوا إلى الله ، ورجعوا إلى كتاب الله ، ليبصروا فى نوره معالم الطريق ، ويتملكوا فى هدايته أسباب القوة ، وليصلوا بأخلاقه ، والوحدة به ، غاية النصر .

فتنة الفكر المستورد :

ولقد جرب المسلمون على الرغم من أنهم ينسون ذلك أحياناً أن الحفاظ على أصالة الثقافة الإسلامية ، وعلى مبادئها وأخلاقها المستمدة من الكتاب والسنة – شرط أساسى ليتفادوا فتنة الأفكار الإلحادية والانحلالية بأشكالها المذهبية المختلفة ، وبخاصة عندما يختلط العذب من هذه الثقافة بالأجاج من تلك الفلسفات والمذاهب داخل دولة متعددة الأجناس ، قد تحولت فيها الوحدة إلى تفرق ، والألفة إلى صراع .

وعلى سبيل المثال قامت فى عهد العباسيين نهضة علمية وثقافية كبرى بلغت ذروتها فى عهد الرشيد ، وفى عهد المأمون . ولكن على الرغم من هذه النهضة الفكرية الواسعة وخصوصاً فى عهد المأمون فإنها لم تجد ترحيباً واستحساناً عند العرب الذين أدركوا الخطر على حقائق الإسلام وأخلاقه فى حياة المسلمين من طغيان الفلسفة اليونانية ، والفكر الفارسى ، على هذه النهضة القائمة على الصراع الظاهر والخفى بين شتى المبادىء .

لقد كان واضحاً فيما لايزال بين أيدينا من تراث هذه الفترة التى سقطت بعدها الدولة العربية الإسلامية فى الشرق – بعد نحو سبعة قرون – أن النفوذ الفارسى والتأثير اليونانى لم يقفا عند حد الثقافة والأدب ، بل امتدا أيضاً إلى الدين ، كما بدا ذلك واضحاً فى آراء المعتزلة التى أقحمت أسلوب التفكير الفلسفى والعقلانى على الفكر الإسلامى العلمى والشرعى ، وعلى نحو يتنافى مع ما امتاز به الإسلام من يقين وأصالة .

وقد بلغ من نفوذ هذه المدرسة الفلسفية للمعتزلة على المأمون وخليفته المعتصم حداً حاولا به تحت تأثير زعمائها أن يفرضا آراءها العقيمة والمبتدعة فرضاً على أئمة المسلمين ، ومن ذلك هذه الفتنة التى أثارها المعتزلة بدعواهم « خلق القرآن » وقد لقى الإمام أحمد بن حنبل من التعذيب الوحشى فى مجلس المعتصم لإرغامه على الإقرار بهذه الفرية ما عظم صبره عليه ، وصموده لشراسة معذبيه وحماقتهم وهو يسألهم الدليل من القرآن والسنة على صحة ما يأفكون !

والواقع أن هذه المدارس الجدلية والكلامية التى تعمدت تعميق الخلافات والبلبلة بين المسلمين باسم الإسلام لم تكن إلا مدارس تاريخية وسياسية ، وما كان ليجوز أن نترك مثل هذه الجدليات الجوفاء التى لا ينتهى الدوران حولها ، والتيه فى ظنونها ، وفروضها ، تمتد إلى عصرنا الحاضر لتشغل المسلمين ونسبة كبيرة من مفكريهم عن الاهتمام الجاد بالإسلام الخالص ، والقضايا العصرية التى يواجهها المسلمون على هذه الصورة المؤسفة من الانقسام المذهبى ، الذى يمكن تجاوزه إلى ما هو أفضل من التوحد الدينى .

العودة للقرآن والسنة :

ولا شك أنه كما صلح أمر المسلمين الأولين بالقرآن والسنة ، فإن أمر المتأخرين المعاصرين منهم لا يصلح إلا بالعودة إلى القرآن والسنة . على أن يجاهد المسلمون فى إتاحة فرصة التعلم لهذا القطاع الكبير من المواطنين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وأن يدركوا أن نزول العلماء إلى تعليم العامة أصول دينهم ، وأخلاقه ، وغاياته ، على سبيل التطوع فى المساجد المختلفة هو من أفضل الجهاد إلى الله ، وأن من حق العامة على العلماء أن يطلبوا إليهم ذلك . كما أن من واجب هؤلاء العلماء أن يزيلوا بين المسلمين كل صور الخلاف الشكلية ، وبخاصة عندما سرت عدوى الخلاف إلى مجال فقه العبادات الذى اختلف فيه أئمة الفقه المعروفين حول القواعد التفصيلية والجزئية ، دون ما مساس بالأصول المستمدة من الكتاب والسنة .

ورغم هذا فقد وجدنا الناس يتعصبون لبعض هذه الآراء التفصيلية ، ويلقبون أنفسهم بالشافعيين والحنفيين والحنابلة والمالكيين . هذا على الرغم من أن هؤلاء الأئمة كانوا جميعاً من أهل الكتاب والسنة ولا خلاف بينهم بشأن مبادىء الإسلام الأساسية ، أو بشأن تفسير القرآن الكريم .

وهكذا ما أيسر بغير خلافات أن نعود إلى القرآن والسنة ، فنعود إلى الله ومعنا القوة ، والوحدة ، والألفة ، والنصر .

السؤال الثالث :

« ما هى الدوافع المعاصرة من وجهة نظرك لظهور الحــاجة بين المسلمين الى نظرية اجتاعية اسلامية تستند الى أصح الفهم للكتاب والسنة ،وتكون أساسا لتحديد مقومات هذه « الأمةالوسط » كما

أقامها الاسلام على محكم آيات القرآن الكريم وصحيح أقــوال الرسول. وكذلك لتكون وسيلة فعالة بلغة العصر فى مواجهةالنظريات الاجتماعية المضادة للدين ، كما هو الشأن فى الماركسية الالحادية، والرأسمالية الاستعمارية ، والصهيونية العدوانية العنصرية ؟ »

الإجابة :

امتدت التيارات الفكرية المتعددة ، مع مايكتنف معظمها من فساد وانحراف وتضليل إلى المجتمع الإسلامى فى عصر تنتقل فيه الأفكار بسرعة، حاملة ظواهر الفساد والانحراف نتيجة لهذا التقدم الهائل فى وسائل المواصلات وأجهزة الأعلام .

لقد قربت المسافات ، وتداخلت الأوقات ، بحيث أصبح ميسوراً بالأقمار الصناعية مشاهدة الحدث وقت وقوعه فى أية جهة كانت فى سائر أنحاء العالم . وكان من غير المستغرب أن يتعرض المجتمع الإسلامى على هذا النحو لكثير من المؤثرات السلبية عن طريق الأفكار الدخيلة ، والنظريات المستوردة ، ومجلات وأفلام الجنس ، والكتب والصحف التى تروج للإلحاد والفساد والانحراف . وقد ساعد على ذلك هذا الانفصال المؤســف فى المجتمع الإســلامى المعاصر بين الثقــافة العصرية والتراث الإسلامى ، هذا الانفصال الذى خطط له الاستعمار بشتى الوسائل ونجح فى ترسيخه ، وإضعاف مناعة المسلمين بسببه ، وذلك بفعل العوامل الخطيرة التى دهمت المسلمين بالصور الآتية :

الغالب والمغلوب :

خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقعت غالبيةالشعوب الإسلامية فى الوطن العربى وغيره تحت سيطرة الدول الاستعمارية الأوروبية .

وقد ولدت الهزيمة فى أنفس هذه الشعوب المغلوبة شعوراً بالنقص تجاه هذه الدول الاستعمارية التى عمدت إلى تأكيد قوتها بإظهار تفوقها العسكرى وتقدمها العلمى والتطبيقى ، بحيث لم يكن أمام هذه الشعوب الاسلامية المغلوبة إلا الاندفاع بعقل مركب النقص إلى تقليد الدول الاستعمارية ، والتقبل بغير تمحيص لأفكارها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، الأمر الذى أدى سريعاً إلى ضعف ارتباطها بتراثها الإسلامى ، وإلى فقدانها معالم أصالتها فى الحياة الجديدة المقهورة إلى حد كبير .

الدينى والمدنى :

كذلك حرص الاستعمار على إضعاف هذه الأصالة ، وهذا الارتباط بالتراث بضربة أخرى عمد فيها من البداية إلى الفصل فى التعليم بين المدنى والدينى . فبعد أن كان التعليم تنهض به المساجد والمعاهد الدينية : وذلك بمعناه الكامل الذى يجمع بين علوم الحياة وعلوم الدين ، أنشأ الاستعمار مدارس ومعاهد وجامعات علمانية ، منعزلة عن الدين ، وتستغرق عمر غالبية الأجيال من الطفولة إلى الشباب . وفى نفس الوقت حبس المعاهد الدينية فى زاوية من المجتمع ، لتقوم بعيداً عن مجرى النشاط الحيوى والمركزى للجماهير بدراسة اللغة والتراث الدينى . فاصلا بينهما وبين العلم المتطور الحديث ، بعد أن كانت منذ فجر الإسلام تجمع ولا تفرق ، وفق طبيعة الإسلام الخالص ، بين العلم والدين .

أقسى مراحل التخلف :

يضاف إلى ذلك ماعاناه المسلمون من أقسى مراحل التخلف تحت الحكم العثمانى ، الذى سيطر على الوطن العربى منذ أوائل القرن السادس عشر . ففى الوقت الذى قامت فيه النهضة الأوروبية بفضل امتداد المنهج

العلمى الإسلامى ، وآثاره الحضارية المتنوعة ، إلى أوروبا عبر الأندلس، ومن خلال الاحتكاك المباشر خلال مرحلة الحروب الصليبية الطويلة ، ومن بعض جزر البحر الأبيض مثل صقلية ، ومن بعض مراكز الثقافة العربية الأخرى فى جامعات بادوا فى إيطاليا ، وبواتييه فى فرنسا ، وروستوك فى ألمانيا ، وكراكوف فى بولنده —كان العالم الإسلامى قد وقع تحت سيطرة الدولة العثمانية ، التى قامت بإسم حماية الإسلام والمسلمين بنقل ثروات ، ومكتبات ، وعلماء هذه الشعوب الإسلامية إلى الاستانة . ثم استمر الابتزاز لثروات هذه الشعوب ، مع مقاومة أية فرصة لتعليمها، أو لمشاركتها بأى قدر فى خطى ركب التقدم .

لقد كانت هذه فى نهاية الأمر أقسى مرحلة من مراحل التخلف بين المسلمين ، تمهد لوقوعهم بغير قدرة على المقاومة فى قبضة الاستعمار الأوروبى ، وتحت سلطانه الهادف لتفكيك مقومات هذه الشعوبالدينية واللغوية ، لتبقى عاجزة تماماً — كما يريد — عن التحرر منه ، وعن استعادة مالا يزال يخشاه هذا الاستعمار فى صوره العصرية من وحدة هذه الشعوب بوحدة تجمع بين وعيها للإيمان وبين تقدمها بالعلم الذى يقوده ويوجهه هذا الإيمان .

أمراض الحضارة المعاصرة :

بهذه الرواسب من تخلف سابق ، ومن خلافات لاتزال حية ، ومن خطط للاستعمار بأشكاله ووجوهه الكثيرة لاتزال نشطة ، وقعت غالبية المسلمين فى استهواء المظاهر البراقة للحضارة الأوروبية الحديثة ، والتى اجتذبت اهتمام المسلمين من الناحية السطحية ، من أمثال وسائل اللهو والترف والترفيه التى يتمتع بها الأوروبيون الآن داخل مدنهم النظيفة ،

وطرقهم الفسيحة ، وناطحات السحاب فى نوع من مساكنهم المزدحمة الشامخة ، ومتاجرهم الكبيرة المزينة بإعلانات الأنوار المتحركة ، والمظاهر الخلابة – كل ذلك ساعد على فاعلية مركب النقص ، وشعور المغلوب ، لكى يستمر ابتعاد المسلمين عن تراثهم ، وانشغالهم عنه بقشور الحضارة الأوروبية المعاصرة ، فى وقت تجمعت وتضاعفت فيه سلبياتها ، وبدأ نجمها فى الأفول ، واندفعت شأن كل الحضارات الدنيوية السابقة إلى منحدر الانهيار .

ولو أن المسلمين لم ينشغلوا عن تراثهم وأصالتهم فعادوا إليها ماتأثروا قط بمثل هذه المغريات الحضارية السلبية ، ولنجحوا فى استعادة أمجاد عصرهم الإسلامى العظيم ، ولأنقذوا أنفسهم بذلك ،والإنسانية جمعاءمعهم من هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ، بعد أن بلغت الحضارة الأوروبية المعاصرة ذروتها ، واستبد غرور القوة بأهلها ، فتمادوا فى اختراع وتكديس أدوات الدمار ، وغفلوا عن أن العلم الذى لايقوده الإيمانهو فى حد ذاته علم مدمر . وبذلك تفاقمت عوامل الانهيار ، وتضاعفت السلبيات التى تؤدى إليه ،وأصبحنا فى مصير هذه الحضارة المزدانة حول أدواتانهيارها ، وضياع أجيالها ، نذكر قول الله تعالى :

« حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ » يونس : آية ٢٤

لقد تفشت أمراض الحضارة المعاصرة فى المجالات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسلوكية ، مع تفشى الأفكار الانحلالية ، والأزياء

الماجنة ، وإدمان المخدرات ، وانتشار الأمراض العصبية والعقلية والنفسية ومع ارتفاع فى عدد حالات الانتحار ، وتفاقم أعمال الإرهاب ، واختطاف الطائرات ، ومع ارتفاع نسبة تلوث البيئة بسبب فضلات المصانع ، وزيوت ناقلات البترول ، وتعدد الحروب الإقليمية وأمثالها ، وكل ذلك مع طغيان التسابق على المتع الرخيصة ، والملذات الفردية ، وانحسار الشعور بالإيثار والحرص على الطهارة النفسية والخلقية فى جميع أنشطة الحياة اليومية . وقد ساعد على انتقال كل هذه الأوبئة المتفشية فى الحضارة المعاصرة إلى مجتمعنا الإسلامى أن كلا من النظريتين الرأسمالية والشيوعية اللتين تتصارعان للسيطرة على العالم تقوم على أسس مادية بحتة .

إن اقتران التقدم الاجتماعى بالتقدم الاقتصادى الذى يباهى بالدعاية به لنفسه كل من المعسكرين لايكفى وحده لعلاج مشكلة اختلال التوازن فى حركة هذه المجتمعات المتقدمة الحديثة ، طالما أنه من المسلم به أن أزمة الحضارة الأوروبية فى عالمنا المعاصر إنما ترجع إلى الاطراد فى اتساع المقومات المادية لهذه الحضارة وبين القيم والأخلاق المستقرة على الدين والإيمان كما جاءت بها شرائع الله ورسالاته .

ولقد دفع الإحساس بهذا الخطر عدداً من المفكرين الغربيين إلى التحذير بصراحة من خطورة ترك المبادىء والضوابط الخلقية تضعف وتتلاشى فى عالم كاد أن يتخلى تماماً عن الإيمان بعد أن أخذ الغرور منه مأخذه ، وظن أهله أنهم بالقدر اليسير من العلم الذى بلغوه يستطيعون أن يهيمنوا على أقدارهم ومصائرهم بإرادتهم المطلقة الجامحة ، دون الاستضاءة والتحصن بعلم الله وهدايته .

إن العالم أحوج ما يكون اليوم إلى ثورة أخلاقية تقوم على تثبيت

الإيمان ، ودعم الأخلاق الدينية ، والإسلام بموقفه الوسط ، الذى يتحقق به التوازن بين مادى ومعنوى ، أو بين ما هو دنيوى وأخروى هو القوة القادرة على أن تنهض بهذا التحول البناء فى مسار البشرية والحضارة .
ولكى يتيسر للإسلام أن ينهض فى هذا العصر بهذه الرسالة يجب أن يعيشه المنتسبون إليه حقاً ، ليكونوا القدوة الحسنة بين أنفسهم ، ولغيرهم ، الأمر الذى لايتحقق إلا إذا وعى المسلمون مسئولياتهم ،وعملوا مخلصين على إعلاء كلمة الله ودعوته ، بادئين بين أنفسهم باتخاذ الخطوات الأساسية التالية :

الأصـــالة والعصرية :

أن يصححوا أولا فهمهم الخاطىء للعصرية ، فالعصرية لا تعنى كما يتصورها البعض التحلل من التراث ، والتنكر للفطرة الداعية إلى الإيمان وخلقه ، ومبادئه ، بدعوى أن التراث بما فيه من دعوة الإيمان ، وأحكامه وضوابطه يشد المجتمع ويرجع به إلى الوراء . ذلك أن المجتمع العصرى ليس المجتمع المقلد لغيره بغير فهم أو هدف ، وإنما هو المجتمع الذى له مركز انطلاق يضىء له على طريق التقدم ما يعينه على أن يحسن الفهم ، وأن يحسن الاختيار ، وأن يملك الإضافة لقوى ومفاهيم وسلوكيات التقدم الذى يعيشه ، ولن يستطيع مجتمع إسلامى أن يفعل مثل ذلك فى هذا العصر إلا إذا اتخذ من إيمانه وتراثه منطلقاً ومنبعاً لأصالته ، وضوءاً وهداية لتقدمه فى عصره .

يتضح من هذا أنه لا يوجد تناقض بين العصرية والأصالة ، بل إن الإصالة هى مصدر قوة العصرية وضمان تجددها باستمرار ، داخل حركة هـــذا المجتمع العصرى الذى يعيش أهله عصرهم ، بمعنى أن يرتفعوا بتفكيرهم ، وأساليب معيشتهم إلى مستوى ما بلغته الإنسانية فى عصرهم .

عاملين فى ضوء إيمانهم ، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مبادىء ، وضوابط ، وأخلاق ، ومن ثقافة وحضارة وتقـدم ، إلى التأثير على عصرهم بالإضافة التى تؤدى إلى ترشيده والارتفاع الإنسانى بمستوى تقدمه .

إحياء وتجديد التراث :

لقد ضعف ارتباط المجتمع الإسلامى بتراثه العظيم طوال عهد الدولة العثمانية ، ثم اشتد ضعفاً فى فترة السباق الاستعمارى على أرض الشعوب المتخلفة ، ومن بينها العديد من الشعوب الإسلامية التى حرص الاستعمار فى حكمها على أن يفصل فى سياستها التعليمية بين ما هو دينها وتراثها وبين علوم العصر وثقافته .

بذلك تحولت المساجد بإرادة الاستعمار إلى مجرد دور منزوية للعبادة ، وتوقفت رسالة معظمها فى نشر التعليم بمعناه الكامل الذى يتوحد فيه علم الدين بعلوم الحياة ، كما كان ذلك شأنها وهى تعمل قبل الاستعمار مراكز للإشعاع العلمى ، والتنوير الدينى ، والعطاء الاجتماعى المتعدد الخدمات .

هذا بينما انعزلت جميع مراحل التعليم المدنى حتى الجامعات لكى تستمد فكرها وثقافاتها من ذات المصادر الأوروبية التى تؤرخ للعلم ، والفكر من بداية الإغريق ثم الرومان متجهة إلى العصور الوسطى ، ثم عصر النهضة الذى لا يرد فيه قط ذكر العرب والمسلمين ، مع أنهم المصدر الأساسى لكل ما أضاء ظلماته من أصول صحيحة للمعرفة ترتكز على المنهج العلمى التجريبى العربى ، بدلا من المنهج الفلسفى التجريدى الإغريقى .

وعلى هذا فالطالب العربى فى كل هذه المناهج الأوروبية لا يحاط علماً بالفكر الاقتصادى والاجتماعى العربى عندما يدرس الاقتصاد أو الاجتماع ، وذلك فضلا عما حققه العرب من تقدم عظيم فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات ، بينما لا يلمس الطالب أثراً لنهضة العرب العلمية فى هذه المجالات وهو يدرس هذه المواد فى المدارس والجامعات العصرية . وذلك لأن المراجع التى يرجع إليها أكثر أساتذته الذين تلقوا العلم فى الخارج هى مراجع أجنبية تسقط من فصولها عامدة نهضة العرب العلمية وتسدل عليها ستار ما يسمى ظلماً وزيفاً بظلام العصور الوسطى .

إننا لا نفكر ونحن ندعو إلى استعادة إيماننا وتراثنا وأصالتنا فى أن نبتعد كلية عن هذه المدنية المعاصرة ، وأن نرفض التعامل معها ، ولكننا ندعو إلى إحياء التراث الإسلامى وتنميته ، وهذا لا يكون كما يظن البعض بمجرد إعادة طبع كتب التراث القديم ، وإنما يكون بدراسة كتب التراث بمفهوم العصر ، وأن نربط بين ما احتواه هذا التراث من آراء ومبادىء ومفاهيم وبين حركة الفكر منذ ظهورها حتى عصرنا الحاضر — ومن مثل هذه الدراسة الواعية يمكن للأجيال المتتابعة فى المجتمع الإسلامى أن تدرك أهمية ما يحمله لها تراثها من مقومات وحوافز وضوابط وأهداف بالقياس إلى ما يقابله فى الفكر الحديث ، وهى تشعر وتلمس إلى أى مدى يدين أفضل ما فى الفكر الحديث إلى التراث الإسلامى ، بينما على المسلمين وهم يسترجعون إيمانهم وتراثهم وأصالتهم أن يعملوا على تغيير مسار الحضارة المعاصرة ، وهى تتخبط بأدواتها وقواها التطبيقية الصناعية بغير إيمان يقود إلى الحق والخير والعدل والأمن — هذه العلوم ، ليكونوا بمجتمعهم السليم المؤمن أسوة بينهم ، ولمن حولهم .

وغنى عن البيان أن ارتباط المسلمين المعاصرين بتراثهم كتراث حى متجدد هو الذى يتيح لنا أن نواكب التقدم ، مع احتفاظنا بالقدرة على وزن المتغيرات بميزان مبادئنا وأخلاقنا وأهدافنا الأساسية ، وتمحيص كل تغير على هداها ، وبذلك نضمن تطويع كل تغير ، وكل تقدم ، لإعلاء كلمة ديننا ومبادئنا وأهدافنا السليمة .

نبـــذ البـــدع والخرافات :

كذلك فإن المسلمين المعاصرين أحوج ما يكونون فى هذا العصر إلى تنقية الفكر الإسلامى مما علق به خلال مراحل التخلف والخلافات السابقة من البدع والمدسوسات والخرافات ، فهذه الشوائب والانحرافات الفكرية التى تتعارض مع المنهج العلمى والشرعى للإسلام تسىء إلى المسلمين ، وتعوق تقدمهم ، بل إنها تسىء أيضاً إلى الإسلام خارج نطاق المجتمع الإسلامى ، وتضع المسلمين أمام المتسائلين عن حقيقة الإســلام ، أو المعجبين به بعد أن قرأوا عنه فى موقف لا يحمدون عليه ، عندما يتبين لزوار بلادهم ،ومتفقدى أحوالهم ،أنهم لا يعيشون الإسلام كما أنزله الله، وكما طبق حدوده وسلوكه رسول الله .

لقد تسربت هذه البدع عن طريق بعض الشعوب التى دخلت برواسب حياتها الوثنية إلى الإسلام دون تنقيتها ، والمجاهدة للتحرر منها . وكذلك عن طريق الأباطيل التى بثها خصوم الإسلام بين المسلمين ، وكان بين هؤلاء من تظاهر بالإسلام ليندس بين المسلمين ويتمكن كالطفيلى الموبوء من بث سمومه فى كل اتجاه ، كما حدث ذلك بالنسبة لجميع ما تسرب إلى التراث من الإسرائيليات وأسبابها .

كذلك فإن هذه البدع الباقية كغثاء السيل ، وأعشاب النهر ، من

عصور التخلف السابقة ، لا تقل خطراً عن هذه البدع المذهبية الوافدة إلى المسلمين فى هذا العصر ، لتعمل مع غيرها فى إضعاف القوى الإيجابية بين المسلمين ، وتنشيط المؤثرات السلبية فى أكثر نواحى فكرهم وحياتهم .

وعلى هذا فإن على المسلمين وهم يقومون بإحياء الصحيح من تراثهم الإسلامى أن يحرصوا تماماً على تنقية الفكر الإسلامى من كل التسربات والخرافات والبدع الدخيلة عليه ، والغريبة عنه ، وبذلك يرجع الإسلام إلى المسلمين فى صورته المشرقة ، وحقائقه النقية ، التى تساعدهم على بناء مجتمعهم المعاصر أقرب ما يكون إلى التأسى بذلك المجتمع الأول الذى كان على عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وعهد الخلفاء الراشدين .

المؤثرات السلبيـــة :

كذلك فإن العمل الإيجابى لغرس فضائل الإسلام وأخلاقه فى حياة الشباب ، وربطهم بالدين والتراث ، لا يكفى فى دعم هذه الأخلاق والفضائل فى حياتهم ما لم تعمل على وقايتهم وتحصينهم من المؤثرات السلبية التى أصبحت تغزوهم بالعديد من الفتن والإغراءات والضغوط كما تحملها إليهم الحياة العصرية عن طريق الإذاعة والتليفزيون والسينما ، إذا لم تخضع هذه المصادر مع المصادر الثقافية الأخرى مثل الكتب والصحف للتوجيه والترشيد ، لتحقيق تربية وتنمية الشباب فى المجتمع الإسلامى على أسس راسخة من مبادئه وفضائله وأخلاقه وغاياته .

إنه من المؤلم حقاً أن نجد أمراض المجتمعات الحديثة من لهو وخمر ، وجنس وعنف ، ومخدرات وتحلل ، تتحرك إلى مجتمعنا المتدين نوعاً ما ، والراغب فى تنمية الإيمان وإحياء التراث ، كما تتحرك الأوبئة سريعة العدوى ، لتضاعف من خطر المؤثرات السلبية على شباب المجتمع الإسلامى

المعاصر ، وعلى أجياله المتفائلة ، مهما كانت نواياهم طيبة ، واستعداداتهم موفورة فى بادىء الأمر .

لهذا فإن من واجبنا أن نضاعف جهودنا بالتساوى بين غرس مبادىء الإسلام وأخلاقه فى مدارك شبابنا وسلوكهم وثقافتهم ، وبين العمل على تحصينهم من هذه المؤثرات السلبية بجميع أنواعها ومستحدثاتها ، ومنع انتشارها بكل الوسائل الجدية والصحيحة تربوياً واجتماعياً ، وفى جميع المجالات التى يتحرك فيها الشباب داخل الأسرة والمجتمع ، ليتعلم ويفهم ويؤمن ويعمل ، محصناً من مخاطر عصره ، وواعياً لأهدافه الكبرى التى يسعى لها بكل قدراته الموجهة فوق هذه المخاطر ، ورغم هذه المخاطر.

• • •

بهذه الواجبات المحددة ، وبالسهر على حسن الالتزام بها فى كل المجالات يمكن إحياء التراث الإسلامى ،وتحقيق الأمل الموروث ببعث الأمة الإسلامية الحرة والمؤتلفة ، والمتماسكة ، لكى تنهض برسالتها المشرقة — مرة أخرى — فى هذا العالم ، كأمة وسط تحقق التوازن الدائم فى مسيرة ومتغيرات المجتمع الإنسانى ، باتجاه الهدف الأفضل ، ومع الصحوة الدائمة للوقاية من عوامل الفساد المتفاقمة التى تسبب انهيار الحضارات رغم مظاهر العافية الكاذبة عليها .

هذه الأمة الإسلامية الوسط لا تعنى مطلقاً أنها الأمة الوسيطة بمفهوم المهادنة ، والقناعة فى حل المشكلات بأهون الحلول الوسط ، وإنما هى تعنى الوسطية التى تلتزمها بالصدق فى تطبيق مبادىء وأحكام الإسلام ، وبالصدق فى التخلق بأخلاقه وفضائله . أى أنها الوسطية التى تعنى الاتزان والتوازن فى حركة الحياة ، ومتابعة متغيراتها ، ليبقى الميزان متعادلا دائماً

بين الماديات والمعنويات ، وبين الحركة والثبات على النحو الذى أوجزنا بيانه فى الإجابة عن هذا السؤال .

وغنى عن البيان أن هذا التوازن يحمل معنى القصد والاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا تذبذب بين طرفى نقيض ، وإنما التزام واضح بالسير على الطريق السوى ، والصراط المستقيم .

وهكذا نجد أن الله سبحانه قد أنزل نوره بالقرآن الكريم ، وجعل فى أحكامه وأخلاقه وترتيله ، وفى أسوة الرسول صلى الله عليه وسلم فى العمل به ، ميزاناً حياً باقياً للعدل ، ومعياراً أميناً ودائماً لحق ، ليكون المسلمون به كلما صدقوا الله إيمانهم وإسلامهم « أمة وسطاً » تشهد بعملها وميزانها على الناس كما جاء فى قوله تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً » البقرة : آية ١٤٣ .

وبالله التوفيق ، وإليه القصد ، والحمد لله رب العالمين .



بحوث القسم السادس

القرآن الكريم
وبنى إسرائيل

يجيب عنه

الكاتب الإسلامى

الأستاذ أحمد موسى سالم

السؤال الأول :

« متى كان اصطفاء الله بنى اسرائيل لتكون فيهم دعوة الى الله بوصفهم الفرع الثانى من فرعى اسماعيل واسحاق ، ابنى ابراهيم عليه السلام ؟

ومتى ولمـــاذا كان خروجهم وشـــتاتهم من أرض فلســـطين عندما غضب الله عليهم وأنهى النبوة بينهم ؟ »

الإجابة :

بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، وإسحاق هو الابن الأصغر لإبراهيم من زوجته الأولى وقريبته السيدة أم إسحاق . وإسماعيل هو الابن الأكبر لأبيه إبراهيم عليهما السلام من زوجته الثانية ، السيدة الحرة المحصنة أم إسماعيل .

وفى البدايات الأولى من تحريفات أحبار بنى إسرائيل ، ومن كتابتهم فى كتبهم مما يقولون إنه من عند الله ، وهو ليس من عند الله ، زعمهم أن أم إسحاق اسمها «سارة» يرمزون بذلك إلى أنها كانت فائقة الحسن وكانت سارة لزوجها ، وأما أم إسماعيل فهى فى زعمهم ، وكذبهم على الله ، وتحريفهم للتاريخ ، تحمل اسم«هاجر » رمزاً لأن زوجها هجرها و طردها مع ابنها إسماعيل ، ليهلكا فى الصحراء ، بأمر زوجته سارة ، وحيث أن هاجر هذه فى افترائهم على الحق كانت « جارية » السيدة سارة التى أذنت لأبراهيم بزواجها ، ثم عادت بعد أن جاءت له بإسماعيل فأمرته بطردها .. !

كذلك كان من تحريفات الأحبار المتعمدة ماينسبونه بالبهتان على الله من أنه جعل العهد أى «النبوة» لإسحاق ابن السيدة سارة ، ولنسله من بعده ،

وأما ابن الجارية فى زعمهم وهو إسماعيل عليه السلام ، فقد حرمه الله من هذه النبوة ، استجابة للسيدة سارة ، ورغم دعاء إبراهيم وضراعته بمثل هذا العهد والنبوة لولده الأكبر ، والأحب إليه . . إسماعيل !

ومن الأقوال التى كتبها الأحبار من عندهم ، وبأهوائهم ، فى هذه المزاعم التى كذبها التاريخ الحق بنبوة إسماعيل ، وبالرسالة الخاتمة ، والباقية بالقرآن ، والمهيمنة على الدين الحق بنبوة حفيده محمد — ماجاء فى الأصحاح السابع عشر فى سفر التكوين : « وقال ابراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدى معه عهداً أبدياً لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . اثنا عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق » ! ! !

وهكذا عندما بدأ بنو إسرائيل يتمردون على الله ، ويتعبدون من دونه للذهب ، وينشرون بإسمه التحريف ، ويروجون رغم وصاياه الموبقات ، ويوقدون الحروب — زعموا بأن مشيئة السيدة الغيور أم إسحاق تعلو دعاء ابراهيم الحنيف ، خليل الرحمن ، وتحرك مشيئة الله الذى هو رب المشيئة ، فتحرم إسماعيل من النبوة ، بل تأمر الرجل الحكيم الحليم إبراهيم بطرده وأمه ليموتا جوعاً وظمئاً فى صحراء بيرسبع كما زعموا . . هذا بينما الحقيقة التى أسفرت فى نور القرآن ، ونادى بها قبل ذلك بعض أنبياء إسرائيل ، ثم بشر بها السيد المسيح ، هى أن ابراهيم وزوجه أم إسحاق ، وزوجه الحرة البارة أم إسماعيل ، وابنها صادق الوعد النبى إسماعيل كانوا منزهين عن كل ماسبقت إليه أقلام الأحبار وأهواؤهم بالتزييف والتحريف

التفضيل . . والشتات :

لقد نشأ إبراهيم عليه السلام بين قومه من عرب العراق نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وهو أحد أبناء قبيلة كلدة العربية فى العراق، كما أنه من ذرية نوح ، وممن اصطفاهم الله من هذه الذرية للنبوة ، وحمل رسالات الله إلى شعوب وأمم — أى أجيال — هذه الأمة العربية ، التى اصطفاها الله واجتباها ، كما أضاء بذلك واقع التاريخ الدينى من أوله إلى الرسالة الخاتمة فيه — لتكون هى أول المدعوين بهذه الرسالات إلى عبادة الله الواحد الحق ، بغير شريك ، وإلى إخلاص الإسلام إليه بالعقل والقلب ، وبالقول والعمل. فآمن من أبناء هذه الشعوب العربية من آمن ، وكفر من كفر ، فأما الذين آمنوا فقد استخلفهم الله فى الأرض « ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً » .

وأما الذين كفروا فصب عليهم سياط العذاب الماحق ، وقضى عليهم بالقوارع والمذلات والشتات ، جزاء كفرهم بالنعمة ، وطغيانهم بالغنى ، واستبدادهم بالضعيف ، ومعاجزتهم لله .

وكانت رسالة إبراهيم عليه السلام أول الأمر إلى قومه بالعراق ، فلما لم يستجيبوا إليه إذعاناً واتباعاً لكبرائهم وكهانهم ، بل وعندما أراد كبراؤهم أن يحرقوه بالنار لإسكات حجته فأنجاه الله منها — خرج من العراق ناجياً بدينه وبدنه ، يستهدى الله إلى أمر أعظم ، فى رسالة ودعوة إلى الله أطول مدى ، وأبقى أثراً ، وذلك حيث يقول الله سبحانه فى استهدائه به إليه ، ليحقق رجاء الخير فى أبنائه ، وظهور الإسلام الذى دعا إليه فى ذريته :

وقوله تعالى :

« فَأَرَادُوا به كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ . وَقَالَ إنى ذَاهِبٌ إِلَى

رَبِّى سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

الصافات : الآيات من ٩٨ إلى ١٠٢

بهذه الآيات يتحدد طريق إبراهيم عليه السلام فى نعمة من كبريات نعم الله على البشر ، فهو يتجه بعد نجاته بآية من الله من كيد أهل العراق، ليسير باتجاه أرض الكنعانيين التى كانت تضم ماهو الآن الأردن وفلسطين ولبنان . والكنعانيون عرب هاجروا من موطنهم الأول عند الخليج العربى نحو ٢٣٠٠ سنة ق . م ، وحيث كانوا يملكون مساحات واسعة من غابات النخيل ، ولذلك أطلق عليهم اليونان اسم الفينيقيين وذلك من كلمة «فنكس» بمعنى نخلة ، أى سموهم بحسب وطنهم الأول « النخلاوية » فجاء بعض المغرضين ، أو الجهال ، فاعتبروا الفينيقيين الذين هم الكنعانيين شعباً آخر غير عربى .

ومن أرض الكنعانيين سار ابراهيم بهدى الله جنوباً باتجاه الحجاز — ودون أن يذهب كما زعم الأحبار إلى مصر . — حتى انتهى إلى مكة ، مكان البيت ، وحيث شاء الله له بهذه النعمة الكبرى أن يجعل من هذه الأرض سكناً ووطناً لأحب أبنائه إلى قلبه، الموعودين فيما أوحى الله به إليه بأن تؤمن بالإسلام الخالص الحنيف أمة منهم ، بدعوة رسول من أنفسهم، وبذلك يتحقق أعظم ما كان يرجو إبراهيم أن يتحقق على يديه، وبدعائه ، والذى هو فى نفس الوقت أكبر نعم الله المشرقة بنوره ،وكتابه،

وشرعه، إلى آخر الزمان، فى ذريته من أبناء ولده إسماعيل، وفيمن يهديهم الله إليه على أيديهم من العالمين .

من أجل هذه الرسالة الخاتمة فى ذرية إبراهيم من أبناء إسماعيل استجاب الله دعاءه، فى لحظة استهدائه إليه، وقبل تشعب السبل به، فوهبه هذا الغلام الحليم إسماعيل ، الذى ذهب به، وبأمه البارة المحصنة إلى مكة مكان البيت، لكى يحمل أمانة رسالته الجديدة ، والباقية فى عقبه منهم إلى يوم الدين ، وفى هداية الله رسوله إبراهيم إلى مكان البيت بمكة ليقيمه بها يقول تعالى :

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » . الحج : آية ٢٦

وفى مكة يدعو إبراهيم ربه لذريته المجتباة للدين الحق ، والإسلام الخالص ، والقرآن المنير، بدعوة النبى المصطفى ، كما جاء فى قول الله تعالى على لسانه :

« رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » . إبراهيم : آية ٣٧

ثم تقبل لحظة فاصلة فى التاريخ الدينى عندما يكبر إسماعيل ناشئاً

فى حضانة أبيه ، وحيث يوحى الله ويأذن بإقامة بيته المحرم ليعود العرب فيحجوا إليه، فيقوم إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعده وهما يدعوان الله بكل هذا المستقبل المشرق ، والموعود ، بظهور الرسالة الخاتمة فى ذريتهم ، تزكية واجتباء لهم ، ورحمة بالدين الحق لمن حولهم . . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسماعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

البقرة : الآيات من ١٢٧–١٢٩

بهذا الدعاء الذى ظلت تحمل أصداءه الآفاق فى تراث أبناء اسماعيل، وهم ينتظرون استجابة الله به ، جيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة ، انقشع كل ريب فى أمر المفاضلة بين بنى إسرائيل ، أى أبناء اسحاق ، الذين أنعم الله عليهم بما تركه فيهم من دين ووصايا إبراهيم ، وتوراة موسى ، وأنه « فضلهم » إلى أجـــل ما على العالمين فى زمانهم ، ولكنهم اختلفوا من بعد ماجاءهم العـــلم — أى الدين — فى رسالة أكثر من نبى منهم « بغياً بينهم » — عن أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام ، من العرب

الذين استجابوا لربهم بصحة قلوبهم وألسنتهم ، أكثر عصورهم ، وبقدر ماوسعهم من الحفاظ على ما استمسكوا به من دين أبيهم إبراهيم ، وهم يحجون كل عام — كما دعاهم — إلى بيت الله المحرم ، فى الأشهر الحرم التى حددها ، وبالمناسك التى أوصى بها .

كذلك فقد حفظ اسماعيل قصة هذا الوعد المنتظر لهذه الأمة المسلمة المجتباة منهم ، والرسول المصطفى من بينهم ، فانتظروهما على طول الزمن غير مكذبين ولا قانطين . فلما أن جاء الرسول المصطفى عرفوه ، ولم يلبثوا بعد قليل من المحال من بعض الحاسدين والمتزعمين ، أوالغافلين والبطرين — أن استجابوا له ، وآمنوا به ، ودخلوا فى دين الله الحق أفواجاً ، ليكونوا بحق « خير أمة أخرجت للناس » إلى يومنا هذا ، وحيث قال الله عنهم وإليهم « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم» ولم يقل إنه « فضلهم » على العالمين فى زمانهم ، حتى إذا ماسقطوا عن مستوى الفضل بتحريف الدين ، وعبادة الشهوات ، قضى عليهم بما قضى عليهم به من الضربات والشتات !

يقول الله سبحانه عن بنى إسرائيل فى بدء نعمته عليهم بالنبوة فيهم — بينما كان أبناء عمهم اسماعيل يقطعون بالصبر ، والتزام المعروف ، مراحل الترقى بلغتهم ، حتى يبلغوا بكمال هذا اللسان العربى وبيانه أن ينزل به الكتاب الباقى ، والقرآن المنير ، فيكونوا بهذا القرآن وأسوة الرسول ، أمة الإسلام الداعية إليه ، والحافظة لمصادره . . يقول الله عن بنى إسرائيل وهو يذكرهم بنعمته فى أول أمرهم ، ويحذرهم من كفرها ، والحرب لها :

« يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

البقرة : آية ٤٧

ثم يقول سبحانه بعد ذلك عندما مرقوا مروقهم الذى قضى عليهم بغضبه ، وهو يكشف عن زيفهم وادعائهم بأنهم أولياء الله بعد أن أغلقوا أعينهم وقلوبهم عن شريعته :

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

الجمعة : الآيات من ٥ إلى ٨

وهكذا بما اجتمع على أكثرهم من الكفران بنعمة الله، والطغيان بتحريف كلامه ، والخيلاء والكبر على الناس بأنهم الأقربون من دون الناس لله ، فهم أبناء إبراهيم الذين لايعملون بعمله ، بل يخونون الله ، ويستحلون ما لا يحل من أموال البشر ، ويمارسون خديعة الجميع ، وينشرون

الموبقات والمفتريات حيث يذهبون. وبهذه الجرائم التي لم يسبقهم ولم يلحق بهم من استطاع جمعها مثلهم فى جعبة واحدة ، فقد أصبحوا أشد الناس فزعاً من الموت ، وحرصاً على الحياة ، وهم يعلمون ماذا ينتظرهم من الحساب على غرائب ظلمهم . ونسوا أن عذاب الله الذى يفرون منه بالحذر من الموت سوف يلاقيهم كذلك قبل الموت ، فى هذه الضربات التى يضربهم الله بها المرة بعد المرة ، ممزقاً فى غرة من الأمن جمعهم ، ومشرداً فى الأرض بهم ، ليهرعوا بالخوف إلى حيث لايعلمون ، ولايأمنون . . وهذا هو الشتات الذى أذاقهم الله عذابه أكثر من مرة .. ولايزال وعيد الله به سبحانه عليهم قائماً لأكثر من مرة ، وهو القائل عنهم فى هذا النذير الكبير :

« فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » . الأعراف : الآية ١٦٦ و١٦٧

لقد أقام اليهود فى فلسطين لأول مرة بقوة العدوان الدموى ، وتحت دخان الدس والخداع ، وإرهاب الافتراء والتهويل منذ بدايات ١١٠٠ق.م. وعلى الرغم من كل ما اقترفوه فلم يستطيعوا أن يحوزوا من أرض فلسطين ، إلا رقعة صغيرة يحيط بهم العرب وغيرهم من حولها . ولقد كانت البداية إلى هذا الاغتصاب اليهودى لفلسطين هى شعارهم الدموى الذى احتفظوا به تأكيداً لخروجهم على الدين ، وحربهم على البشر ، واختلال عقولهم بغرور

العنصرية ، وكبرها ، ومزاعمها ، وهو الشعار الذى سجلوه عن مذبحتهم فى « أريحا » الفلسطينية بكل الفخر المزرى بوحشيتهم، وذلك حيث كتب أحبارهم عن هذه المذبحة فى الإصحاح السادس من سفر يشوع ، فقالوا إن أوامر يشوع والكهان صدرت بذبح كل من فى المدينة « من رجل وامرأة، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم، والحمير بحد السيف »!..

من أجل ذلك فإنه فى خلال هذه الفترة التى اغتصب فيها اليهود أرض فلسطين ، ليعيشوا فوقها بهذا العدوان الدموى، والهوس الضارى ، والاستعلاء الوهمى – كانوا دون أن يشعروا يحاربون وهم فى كامل العجز والخبال ثلاث حروب لاقبل لهم بواحدة منها – على جبهة واحدة ، وتلك هى حربهم لله ، وحربهم لجميع البشر ، وبخاصة لأصحاب اليد العليا عليهم مع الرفق بهم من أبناء عمهم العرب ، ثم حربهم لأنفسهم . وعلى هذا العدوان الأعمى ، والشرس ، والكافر بالنعمة ، والعاجز عن سلوك الحضارة ، تلقوا من الله الذى كفروا بنعمته ،وتمردوا عليه ، هذا الكثير من الضربات التى سلطها عليهم ، حتى تم اقتلاعهم من فلسطين ، وجرى شتاتهم فى الأرض، قروناً طويلة ، قبل أن ينسوا دروس التاريخ ، ويعدوا أنفسهم على نفس المنزلق العنصرى ، الغرورى ، والغبائى ، والذى لانهاية حتمية له إلا ضربة شتات جديدة، وصاعقة من الله ، إن لم يفيقوا لمتغيرات العصر ، ويبرؤا – بغير حاجة إلى العصا – من شهوة التوسع ، ومن خيال التفوق المبرر للتسلط والتوسع !

من هذه الضربات التى تجرعها هؤلاء المتمردون على وصايا أبيهم إبراهيم ضربات عربية أذاقهم إحداها بمشيئة الله سرجون الثانى ملك آشور ، وكان

ذلك سنة ٧٢١ قبل الميلاد ، حيث دمر لهم بهذه الضربة أكثر مدنهم عقاباً على بعض شرورهم . ثم أذاقهم الأخرى بعد ذلك نبوخذناصر البابلى ، وكانت سنة ٥٧٦ قبل الميلاد ، وفيها سبى الكثيرين من أشرارهم ونفاهم إلى العراق ، حيث نبتت جذور الصهيونية الأولى ، وهم يبكون على فقدان مابطروا عليه ، مسجلين فى بكائياتهم مدى إسراع العجز والمذلة إليهم ، حيث لاسند لهم فى قوتهم الوهمية إلا الغرور والوهم ، والهوس العنصرى ، وجبروت الخبل ، وذلك فى مثل قولهم : «على نهر دجلة جلسنا وبكينا عندما تذكر ناصهيون ! »

على أن أكبر الضربات التى سحقت غرورهم ، واقتلعت جذورهم ، جاءتهم من حكامهم الرومان على مرتين ، الأولى سنة ٧٠ ميلادية ، وكانت هى العقاب العاجل من الله على ماتعرضوا به للمسيح عليه السلام من السخرية به ، والأيذاء لأنصاره وحوارييه ، وذلك حيث أحرق الرومان أورشليم بقيادة تيطس بن فسباسيا قائد نيرون .

وأما الضربة التالية لها ، والتى شملت الأمر بجلائهم جميعاً عن الأرض التى لم يعيشوا عليها إلا بالمذابح ، والمطامع ، والخداع ، وتجارة الموبقات ، وحيث اختلط خوار معبودهم وهو العجل الذهبى بمبالغة أحبارهم الذين يخبون فى الحرير ، ويتحلون بالذهب ، مع إظهار التورع ، وهم يتكلمون بلسان أبناء إبراهيم ، لكى يهدموا فى الأرض بناء دعوة إبراهيم . . لقد جاءتهم هذه الضربة القاصمة سنة ١٣٥ ميلادية على يد الإمبراطور أدريانوس الذى أشرف على تنفيذ وإنجاز جلائهم جميعاً . . وكان هذا هو الشتات الأكبر .

ومع ذلك فإن هؤلاء العجزة والمغترين ، والمردة المستكبرين ، لم يجلوا بعد أن أذلهم الشتات ، وطاردتهم اللعنات والشبهات ، من كان

أوسع صدراً لهم ، وأرفق رفقاً بهم ، بطول الأرض العربية وعرضها ، من أبناء عمهم العرب ، الذين واسوهم ، وفتحوا جميع مجالات العمل أمامهم ، وأسبغوا كل صور الحماية عليهم ، كما اعترف بذلك وزيرهم أبا إيبان فى كتابه « شعبى » . . ومن أجل ذلك فقد عادوا مرة أخرى إلى فلسطين ، وهم كما زعم لهم غباؤهم ، وخيالهم ، وكبر عنصريتهم ، وحقد صهيونيتهم ، فى ظروف أفضل من القوة والسلاح والمال ، والتواطؤ الدولى ، تسمح لهم برد الجميل إلى العرب ، بهـذا الاغتصاب التوسعى الذى خططوا لممارسته على أرض العرب ابتداء من فلسطين !

وهكذا جرى حكم الله بين « تفضيل » بنى إسرائيل على من حولهم من العالمين فى مرحلة الأنبياء الصالحين إسحاق ويعقوب ، ويوسف وموسى ، وقبل أن يجىء ميقات الرسالة الخاتمة إلى العالمين عن طريق العرب ، إلى أن تحولوا بشقائهم وغبائهم إلى عبادة العجل الذهبى ، وهواية العدوان والتحريف والتزييف ، فمضوا بالمذابح والتهاويل يغتصبون تلك الرقعة الصغيرة من أرض فلسطين ، ويملأون الأرض ضجيجاً ، وينطحون الصخر عتواً ، حتى أدركهم الشتات الذى ضربهم الله به أكثر من مرة . . والذى سيظل يلاحقهم — مالم يزدجروا ويجنحوا حقا إلى السلام — مرة بعد مرة !

وسنحاول فى الكلمات الآتية . . ومع الإيجاز — أن نلخص ما يمكن أن يكون تفسير الحياة هذه الجماعات الصهيونية التى تنكرت عبر التاريخ لدين إبراهيم ، والتى عاشت فى تراكم غرورها بنجاحاتها الوهمية فى مجال الخداع للبشر ، تعمل على التسلط على العالم ، وإغراقه فى التيه النظرى ، والتحرر غير الأخلاقى — وهى تواصل خطايا « صهيونيتها الأولى » بعد موسى والعجل الذهبى ، ومذبحة أريحا ، بينما تدعم ركائز « عنصريتها » التى لا تجديها شيئاً بغير

إيمان صادق، وعمل صالح ، زيادة عما تدعيه من التفوق الذى لا نعرف من وسائل تأكيده إلا لغة « المذابح » التى تكررت أخيراً فى ديرياسين وغيرها ، وهى الجنونيات التى لايعرف التاريخ الصادق والحق فى سنن الله تعالى جواباً عليها إلا الضربات الصاعقة والماحقة مثل ضربات سرجون ونبوخذناصر . . وتيطس وأدريانوس ! !

بين الأتقياء الموقنين، والأدعياء المحرفين :

عاش اليهود من بنى إسرائيل بعد اغتصابهم الأول لفلسطين قروناً طويلة يمارسون فى غالبيتهم ما انساقوا إليه بعد كفران نعمة الله، وتحريف الدين الحق ، وذلك بعبادة الذهب ، ومن التجارة فى الموبقات ، ومن التخصص فى إيقادنيران الحروب، ومن محاولة التسلط على شعوب الأرض بمحاولة الاستيلاء على أدوات ومصادر الثقافة ، وموالاة اختراع «النظريات» المتنوعة التى توقع البشر فى «تيه نظرى» يغرقون فيه بعيداً بهذه الحجب النظرية عن أى طريق علمى ، يقينى ، يقودهم إلى الدين الحق ، ويربطهم بحركة الواقع المتحرك بقوانين الله فى الخلق، وبذلك يحرمون من رؤية العلم بوجهه المنير، الهادف فى وجهته الصحية لتأكيد الإيمان بالله فى حياة واعتقاد الإنسان من أجل تنميته ، وتقدمه ، وسلامه . .

لقد عاش بنو إسرائيل قروناً طويلة داخل الوطن العربى الكبير بين أبناء عمهم العرب ، سواء أفراداً يتمتعون بالأمن ، والفرص المتكافئة داخل الأوطان العربية المختلفة ، أو جماعات فى فلسطين التى اغتصبوها لتكون بالعدوان والتحريف والفتنة نقطة انطلاق مركزية للعدوان على أراض عربية أخرى واغتصابها، كما حاولوا فى اليمن، وفى شمال الحجاز على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فهم لم يحاولوا مرة واحدة أن يفيدوا

من المقارنة بين ماعليه أبناء عمهم العرب — مع كثرة عددهم ومواردهم — من حياة المبادىء المستقرة على المعروف، والمطردة مع الحق، والمعتصمة باليقين فى الله ، والمستمسكة بشريعة الله ، لايتحولون عنها ، ولايحرفون فيها ، إلا بعض غفلات عن بعض أحكام هذه الشريعة ، لاينسون الله فيها، بل يحبونه ، ويتضرعون إليه ، وإن أضافوا بعض من يتقربون بهم إليه ، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى الله وشريعته ، مؤتلفين عليها فى الإنابة إليه ، والجهاد فى سبيله ، صادقين باذلين مستبشرين .

إن هؤلاء الذين اغتصبوا فلسطين أول مرة من بنى اسرائيل لم يحاولوا قط هذه المقارنة بينهم وبين أبناء عمهم العرب ، أبناء إسماعيل عليه السلام، ليفتحوا أعينهم على هذا الفارق الواسع الذى يباعد بينهم فى مجال اليقين والعلم والأخلاق ، وفى موازين القوة والصبر والفداء ، فيسألوا أنفسهم : لماذا احتفظ أبناء عمنا العرب بهذا « الصدق » الخالص ، الذى تفرد به — على سبيل المثال — كتاب الله إليهم عن أى تحريف ، ليبقى إلى ماشاء الله حافظا نور الله وشريعته ، كما نزل ، وذلك فى جميع المصاحف التى يتداولها المسلمون إلى اليوم . كما حافظوا على صدق الرواية ، والتنزه عن الوضع ، وبخاصة فى أحاديث الرسول الكريم ، التى بدأ جمعها فى القرن الثانى من الهجرة ، والتى بلغ الحرص على تنزيهها مما وضعه اليهود المستسلمون وأمثالهم من الأحاديث التى دسوها على النبى صلى الله عليه وسلم أن لايقبل الإمام البخارى من ستمائة ألف حديث جمعها أكثر من سبعة آلاف حديث فقط ، منها ثلاثة آلاف مكررة باختلاف السند، أى إنه لم يعتقد بقوة تمحيصه للصحيح فى صحة أكثر من أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف تبين له أن مئـــات الألوف منهـــا هى من الإسرائيليات وأشباهها من المدسوسات . . !

لم يسأل اليهود أنفسهم عن هذا الصدق الذى وجدوه ظهيراً ، وسنداً ، ونوراً على طريق أبناء عمهم العرب ، وهو الصدق الذى حاربوه بأعجب الوسائل منذ استحلوا محاربة الله ، أملا فى أن ينتهى هذا « الصدق » من هذا العالم ، وأن يموت على أيديهم . . ولكن الصدق لن يموت . . ووهم الصهيونية العنصرية هو الذى سوف يموت . .

كذلك لم يسأل اليهود أنفسهم عما هو أعجب فى خلق أبناء عمهم العرب ، وهو هذه « الأمانة » فى تلقى « شريعة الله » عن الله ، على أنها حق ملزم بالطاعة قولا وعملا ، وشعوراً وتفكراً . ذلك أنهم وقد آمنوا بالله بقوة البرهان العلمى ، المشهود أمام أعينهم فى هذه السماوات والأرض ، المتكاملة الجلاء أمام أبصارهم وبصائرهم ، ضوءاً ونوراً على أرض وطنهم الكبير — فقد أصبح كل ماتنزل الله به فى شريعته إليهم حقاً لاريب فيه ، وديناً لا اختلاف عليه ، ومنهاجاً لانكوص عنه . وهو حق يصل بهم فى مرتبة الإيمان والتصديق إلى أقصى درجات حق اليقين ، الذى يعرجون به مع معانى القرآن ونوره إلى أبعد مايدركون مما لاينتهى من معانيه ، والذى يعبرون به مع الحياة وابتلائها حتى يروا رأى العين — رهبة من الله ورغبة إليه — حقيقة مابشر به بعد البعث من الثواب والعقاب .

لم يسأل اليهود أنفسهم هذه الأسئلة ، ولم يعقدوا هذه المقارنات بينهم وبين أبناء عمهم ، لكى يفيدوا ماقد ينيبون به إلى الله ، وما قد يرجعون به إلى دين ابراهيم ، بمثل هذا « اليقين العلمى » بشريعة الله بين العرب ، ومنهاج العمل بهذه الشريعة — بدلا من هذا الذى استرسلوا فيه من تيه التحريف ، وباطل التزييف ، الذى خدعوا بهما أنفسهم ، أكثر مما خدعوا بهما غيرهم ، وحيث قادهم هذا التحريف بأشكاله آخر الأمر إلى أن يستحلوا لأنفسهم هذا القول الذى لايقول به إلا الممسوسون من

الجن والإنس ، وهو « تفوقهم على جميع البشر — حتى على العرب أبناء إبراهيم — بحق نسبتهم إلى ابراهيم » ... بينما أبناء عمهم قد انتسبوا قبلهم إلى نفس هذا الأب ابراهيم !

لم يسأل اليهود أنفسهم حتى اليوم عن قول المسيح لهم « وقالوا له أبونا هو ابراهيم قال لهم يسوع لو كنتم أبناء ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » .. وكذلك لم يجيبوا إلى اليوم عن قول المسيح لهم « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . . لاتقدرون أن تخدموا الله والمال » ! !

ومع كل هذه الأسئلة المعلقة فى الأناجيل عاشوا يطمعون فى اغتصاب أرض العرب ، وأموالهم ، وهم يعلمون — كما علموا فى الماضى وكما سيعلمون فى المستقبل ، أنه لاقبل لهم بمواجهة العرب . . وإن كانت لهم هذه القدرة بالعبث الطويل بشعوب أخرى كثيرة . . حتى حين !

السؤال الثانى :

« ماذا فى ذاكرتك التاريخية عن صور عدوان اليهـود على أرض وشعوب الوطن العربى منذ خرج رؤساؤهم وأحبارهم على التوراة ووصـايا الله ؟ .. ومنذ عبـدوا الذهب ، وقتلوا بعض أنبيائهم ، ووقفوا موقفهم المعادى من الأمة العربية وخططوا مرارا لتمزيقها — قبل العصر الحديث بالحروب والفتن من أجل الاستيلاء على الوطن العربى ؟ »

الإجابة :

بعدنحو ١٢٠٠ سنة من الفتنة ، والشغب ، والتخطيط العدوانى ضد الشعوب العربية المحيطة بهم فى فلسطين ، التى اغتصبها اليهود بالبداية الدموية وهى مذبحة « أريحا »— شاء الله سبحانه بعد عدد من الضربات أن تكون الضربة الكبيرة بالشتات الناجز لهم على يد الإمبراطور أدريانوس سنة ١٣٥ ميلادية ، قسطاً من العقاب المحتوم على ما اقترفوه بإملاء أمراضهم النفسية والعنصرية المعقدة من الخطايا والأوزار الكبار على جميع الساحات ..

وعلى الطرق التى فتحها هذا الشتات أمامهم ليركضوا عليها بعيدين عن رحمة الله ، وعن تعاطف أكثر البشر ، ولتغتسل فلسطين بعدهم طويلا من آثار عدوانهم ، وتبرأ من جراح تجـبرهم — نزح فريق منهم إلى شمال أفريقية ، وإلى أسبانيا وألمانيا وسائر البلاد الأوروبية . بينما آثر الفريق الآخر أن يتحرك ويندس داخل الوطن العربى الكبير ، فسارت جماعات منهم إلى تدمر فى الشام ، وجماعات أخرى

إلى يثرب وما حولها شمال الحجاز مثل خيبر وتيماء ووادى القرى ، بينما اتجهت جماعة منهم إلى أرض اليمن .

وعلى الرغم من أن هذا الشتات الكبير كان ضربة للعقاب الرادع ، إلا أنه كان على شدته فرصة نادرة لكى ينيب هؤلاء الهاربون المذعورون إلى ربهم الحق ، وأن يراجعوا أنفسهم إلى حياة أفضل يعبدون خلالها سيداً واحداً ، ورباً منعماً ، هو رب موسى وإبراهيم ، متطهرين من ذنوبهم بوصايا آبائهم ، وعائدين إلى أصح مابأيديهم من كلام الله إليهم إلا أن أكثر هؤلاء الذين شتتهم الله فى الأرض لم يلبثوا أن استعادوا نزواتهم ، واستقبلوا بوجوههم — متكيفين مع الظروف الجديدة — نفس طريق العدوان والفتنة والطغيان ، مجددين فى وسائلهم لاغتصاب الأرض العربية ، وابتزاز أموال العرب ، وإثارة الحروب بين العرب وبين أنفسهم ، وبينهم وبين القريبين أو البعيدين عنهم ، مع الترويج الدائب لتجارة الخمر ، واللهو ، والفساد ، بما ظنوا معه أنهم يقيمون به فلسطين أخرى ، داخل فكرة « المستوطنات » والحصون ، التى تتلاحم بعد نموها وغناها لتصبح دولة قائمة بذاتها ، فإن لم يستطيعوا فإنه حسبهم بعد « الغنى » بالمال الحرام ، وتكديس الذهب ، أن يجعلوا الوطن العربى لاهث الأنفاس دائماً فى معارك الدفاع عن نفسه ، مفلساً ، ومتخلفاً ، ومتصارعاً بشتى المذاهب ، والنظريات التى يمولونها لصرفه عن طريقه القويم ، وصراط الله المستقيم ، حتى لا يأتلف أو يتوحد أو يقوى فى يوم من الأيام .. !

عدوانهم فى اليمن :

فى النزوح بعد الشتات إلى اليمن عمل النازحون إليها من اليهود على نشر اليهودية بها ، وكان ذلك على طريقتهم باستخدام الذهب ، ورشوة

الكبراء بكبائر المتاع ، فأخضعوا لإرادتهم من الملوك الحميريين ، « ذو نواس » الذى يعرفه الروم باسم « دميانوس ». وقد بالغ ذو نواس فى التعصب ليهوديته فى غمرة من خضوعه الأعمى لشهواته بأيدى من استهواه من سادة اليهود ، وهكذا قام لغزو نصارى نجران ، فلما أن احتل بجيوشه أرضهم ، وأصبح له السلطان الأعلى عليهم ، عرض عليهم « اليهودية » قسراً ، فلما امتنعوا عن الإستجابة له واستمسكوا بعقيدتهم الخالصة فى طاعة الله ، نقم ذلك عليهم ، فحفر لهم الأخاديد بتحريض مروضيه من اليهود ، وأحرقهم بالنار ، كما أحرق إنجيلهم ، وهدم كنيستهم . وكان ذلك فيما بين ٥١٥ و ٥٢٥ ميلادية ، وهى مدة حكم هذا الطاغية ، الذى حقق لليهود فى محاولتهم اغتصاب أرض عربية باليمن طريقتهم المفضلة فى بدء الاغتصاب بمذبحة مثل أريحا ودير ياسين !!.

وفى هذا العدوان البشع على نصارى نجران بتحريض اليهود النازحين إلى اليمن يقول تعالى فى كتابه الكريم :

« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » البروج : من آية ٤ إلى ٨

وكان ما وقع بعد ذلك هو أن الروم قاموا بتشجيع ملك الحبشة على غزو اليمن ، لنصرة النصارى بها ، فبعث إليها بأحد قادته أرياط ، ومعه أبرهة ، فقتلوا من يهود اليمن ، ومن اليهود النازحين بعد الشتات ، والمحرضين على الفتنة والإنقسامات ، مقتلة عظيمة ، غير الأسرى والأموال. وأما ذو نواس ، صنيعة اليهود ، فقد آثر أن يفر بنفسه حتى إذا بلغ البحر

إقتحمه بفرسه حتى غاص فيه ، مؤثراً هذا الموت على ما بعد أسره من الحساب على ما اقترفته يداه ، من بيع نفسه لأعداء المؤمنين ، وقتله العابدين .

عدوانهم بالحجاز :

بعد ذلك بنحو قرن من الزمان ظهرت فى شمال الحجاز فى يثرب وخيبر وفدك ووادى القرى وتيماء حصون متتابعة ومستوطنات لليهود ، فى محاولة جديدة بعد فشل محاولتهم باليمن ، لإنشاء دولة لهم الحجاز ، تملك المال والسلاح والمخططات لممارسة ما توحى لهم به أوهام مطامعهم العنصرية ، وأمراض انفصاماتهم النفسية الصهيونية . فلما أن ظهرت دعوة النبى المنتظر من بين أبناء إسماعيل فى مكة ، وحملت الأنباء إليهم إسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يكتمون ما أعلن أنبياؤهم من بشائر ظهوره، نشطوا إلى مناهضة دعوته ، وبادروا من أول الأمر إلى تأييد خصومه من زعماء الشرك فى قريش .

وتاريخ ظهور الإسلام ، والسيرة النبوية ، زاخر بما اندفع إليه سكان هذه المستوطنات سراً وجهراً ، من مناصبة المسلمين العداء ، حتى لا يتحقق لشبه الجزيرة العربية أن تأتلف بالقرآن المبين ، والنبى الأمين ، والإسلام الخالص ، فى أمة واحدة ، قوية ، يتسع أمامها تحت رايات القرآن ، ودعوته ، وجهاد المسلمين به ، تحرير الأرض العربية من نير الأكاسرة والقياصرة على شعوبها ، ومعنى ذلك ، أن لا يبقى هناك أمل قابل لأن ينبت لقيام تلك « الدولة اليهودية العدوانية » حيث كان يجرى الأعداد الطويل ، لربط مستوطناتها ، وتوسيع رقعتها ، وإعلان قيامها .. !

ولقد كان من الحتم مع تصاعد انتصار الدعوة الإسلامية بعد هجرة الرسول إلى المدينة ، أن تأتلف قلوب من كانوا مختلفين من قبائلها إلى حد القتال وهم الأوس والخزرج ، أبناء العم ، وذوو قربى ، وذلك بدسائس اليهود المحصنين على أسوار مدينتهم ، ليصبحوا بالاسلام « أنصار الله » المجاهدين فى جيش النبى ، كما تآخى هؤلاء الأنصار بعد ذلك مع كل من هاجروا بإسلامهم إلى المدينة من قريش ،أهل البيت ،وأبناء عم النبى ...

وبوقوع هذه التطورات السريعة فى مراحل نجاح الدعوة الإسلامية تزايد جهر يهود المدينة بخصومتهم للمسلمين ، ونقضهم لمواثيقهم مع النبى ،إلى الحد الذى انتهى –كما تنتهى كل عدواناتهم المستعلية بالعنصر ، والمتردية فى الغرور ،والمستغشية بكل أمراضهم النفسية على غباء الأصرار والاستكبار – إلى ما قضى الله به سبحانه من الإطاحة بأجزاء دولتهم التى خططوا بكل الدهاء لها ، قبل أن تتواصل هذه الأجزاء ، وتتماسك ، لتقوم هذه الدولة العدوانية فى شمال الحجاز ،وعلى الطريق الحيوى لوحدة الأمة العربية على شريعة الله ، وهو طريق أو محور المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . ولقد كان اجهاض وتقويض هذه الدولة اليهودية التى استهلت وجودها بالعدوان ، واستهدفت بوجودها محض العدوان . . بضربتين متلاحقتين من ضربات الله كما قضى بحكمه عليهم . .

الضربة الأولى : اقتحام حصون اليهود بالمدينة ، والتى أقامها بنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو النضير ، وكانت أشد هذه الضربات لبنى قريظة الذين نهض النبى إلى قتالهم بعد زوال خطر الأحزاب من قريش ومن معهم فى غزوة الخندق ، وبعد أن تحقق المسلمون من تجهز يهود بنى قريظة للحرب مع المشركين لولا ما أصابهم من الإندحار

والإنسحاب الفاشل . وهكذا نادى النبى فى أصحابه قائلا : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة » . . وكانت الضربة بقضاء الله عليهم ، عبرة للمعتبرين ، فى شدتها التى استأصلت مقاتلتهم ، وأنهت كيانهم . ثم لحق بهم بعد ذلك يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، جزاء ما أسرفوا فيه من نقض العهود ، وحرب المسلمين ، ومناصرة المشركين ، كما قال الله عنهم وهو يلعنهم على إفسادهم فى الأرض، وترويجهم للباطل :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا »

النساء : آية ٥١ و٥٢

الضربة التالية : هى الإستيلاء على حصون اليهود شمال المدينة والحجاز ، وهى حصون ومستوطنات خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء، وقد بدأ المسلمون بخيبر التى كانت أوفر مالا وسلاحاً ، وكان فيها نما إلى المسلمين من أخبارها أنها كانت تريد تجييش جيش لغزو المسلمين فى المدينة، والعمل على استخلاصها لليهود . ولقد كانت هذه الضربة بتقويض هذه الحصون وإزهاق باطلها ، وسوق بقاياها مبعثرة ، ومذعورة ، كما قضى الله عليها ودون أن تزدجر — إلى شتات جديد . . !

وفى هذا الفضل على المؤمنين فى تقويض أركان هذه الدولة اليهودية الناشئة للعدوان ، بكل أسلحة العدوان ، وفى إزالة مستوطناتها ، وقتل أو أسر مقاتلتها ، وفى تحرير الأرض العربية من عواقب قيام هذه الدولة العدوانية بكل ما تحمله من أطماع ومخططات أمراضها الصهيونية العصابية والذهانية . . يقول الله تعالى :

« وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . » الأحزاب : آية ٢٦ و٢٧

بعد ظهور الإسلام :

ونوجز فيما يلى صوراً من عدوانهم على الأمة العربية الإسلامية بعد أن قامت دولة العرب بالإســلام ، وقد ملأت حقائق هذا العدوان بكل أشكال أطماعه ، وتحريضاته ، كتب التاريخ بكل اللغات :

• كان اليهود هم المخططين للثورات المضادة ضد الدعوة الإسلامية فى العديد من أشكال المذاهب التى كانت بداياتها تعاونهم مع حلفائهم القدماء من الفرس لإسقاط الحكم العربى للدولة العربية الإسلامية القائمة فى أكبر رقعة لها على أرض الوطن العربى . وقد كانت أولى الثمرات المريرة لنجاح دسائسهم ، وشائعاتهم الهدامة ما أسهموا فيه من الفتنة التى بدأت من عصر عثمان ، والتى اتسعت كل خروقها إلى حد ذلك الإنقسام المسلح ، والمروع بين ابنى العم على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان،وكلاهما من أقرب الصحابة إلى رسول الله،الأول منهما بطل سابق فى الطليعة بسيفه ورأيه فى جهاد الشرك ، والثانى كاتب من كتاب الوحى مؤتمن من الرسول على التنزيل ، وأحد السابقين إلى الإسلام بعد الهجرة، رغم أن أباه كان قائد مشركى قريش قبل أن يسلم بعد الفتح .

ومن ثم فقد أثمرت هذه الثمار المريرة التى نماها عدد من اليهود ثماراً أشد مرارة منها فسقطت الدولة الأموية ، ثم انسحقت بعدها

الدولة العباسية ، لكى تقع ، ويقع النير معها على أعناق الشعوب العربية المتمزقة بمذاهبها الإعتقادية ، وثقافاتها الجدلية الفلسفية الكلامية الظنية — لسلاطين السلاجقة ، ثم للأتراك العثمانيين .

• كان اليهود وراء التحريض على الحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين ، هذه الحروب التى ظلت موجاتها تجتاح الأرض العربية فى مرحلة بارزة من مراحل تخلف شعوبها ، وانقسامهم . والتى استغرقت نحو مائتى عام حيث بدأت بهذا الإنسياب المتهوس للسوقة والمفلسين من فرسان أوروبا الذين نشطوا على نداء البابا أوربان الثانى سنة ١٠٩٥ بالدعوة للحروب الصليبية لاحتلال نفس الأرض التى تحتلها إسرائيل اليوم ، فانطلقوا يهاجمون الآمنين فى الإمبراطورية الرومانية نفسها ، ومنها عبروا لكى يتلقاهم السلاجقة المسلمون بسيوفهم البتارة ، فقضوا عليهم جميعاً ، وحولوهم إلى كومة كبيرة من الأشلاء قرب « نيقية » سنة ١٠٩٦ . . وحيث انتهت هذه الحروب بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى هؤلاء المتهوسين سنة ١٠٩٩ حيث ذبحوا بوحشية من أهلها الأبرياء سبعين ألف مسلم ، وبعد أن حررها صلاح الدين سنة ١١٨٧ الذى نشأ بالإسلام على خلق السماحة والسلام فلم يعامل القوات الصليبية فيها بالمثل فيذبحهم كما فعلوا بالمسلمين ، ثم حين جاءت سنة ١٢٩١ فتحررت عكا أخيراً بعد جميع المدن التى كان قد حاول الصليبيون عبثاً التشبث بها ، وكان تحررها بتلك القوات الإسلامية الظافرة التى قادها السلطان قلاوون وابنه السلطان الأشرف . .

ويشرح الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه « أضواء على الحروب الصليبية » وجوه الشبه بين ما استهدفه الصليبيون من احتلال

البقعة العربية العزيزة على كل عربى ، والمستقرة فى قلب وطننا ، وما استهدفته إسرائيل من اغتصاب هـــذه البقعة ، والدوافع التى شجعت على ذلك ، والغايات الكامنة وراءه ثم يقول :

« والواقع أن الباحث لا يسعه سوى أن يسلم بالتشابه الشديد بين الظروف التى أقام فيها كل من الصليبيين فى نهاية القرن الحادى عشر وإسرائيل فى القرن العشرين دولتهما فى ذلك الجزء الحيوى من جسم الأمة العربية ، ففى كلتا الحالتين اعتمد المغتصب الدخيل على انقسام العرب إلى قوى متنافسة ، لا يربط بينها رباط الإحساس بالخطر ، وفى كلتا الحالتين استطاع العدو المغتصب أن يعتمد على عنصر الخيانة ممن باعوا أنفسهم وضمائرهم ، وفى كلتا الحالتين ظهر رد الفعل قوياً فى صفوف الأمة العربية ، فلم يرض الضمير العربى عن ذلك الوضع ، ولم يجد الرأى العام العربى ملاذاً يعصمه من الخطر إلا الوحدة ، فارتفع صوت المخلصين ينادى بوحدة الصف أو وحدة الهدف ، لاستخلاص أرض العروبة من مغتصبيها » .

بعد الأندلس :

ونمضى بعد ذلك فى العرض الموجز لعدد من صور العدوان اليهودى على الأرض العربية ، ومن شهوات الحرب المستقرة ظاهراً وباطناً ضد العرب ، فنذكر كيف كانت المعاملة الطيبة التى لقيها اليهود فى معايشتهم للمسلمين فى الأندلس ، حتى لتعد أيامهم بها هى عصرهم الذهبى الوسيط ، ومع ذلك فقد كانوا فى الأندلس من أقوى العوامل على تفكك الحكم العربى الإسلامى بها ، حتى انتهى الأمر إلى وقوعها فى أيدى الأفرنج بعد ثمانية قرون تعد من أزهى عصور الحضارة فى تاريخ العالم . .

على أنه بعد سقوط الأندلس بدأ بعض اليهود الذين لم يخرجوا منها فوضعوا أنفسهم ومعلوماتهم عن أسرار العلوم العربية قبل خروج العرب من الأندلس فى أيدى ملوك أسبانيا والبرتغال ، وخصوصاً فى مجال الكشوف والعلوم البحرية التى كان العرب سباقين ومتفوقين فيها ، وهى الكشوف والعلوم التى أوحت بحركة الإلتفاف حول العالم الإسلامى لغزوه من ظهره هذه المرة ، بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى غزوه بالمواجهة .

وهكذا وضع اليهود فى أيدى أوروبا من المعلومات والوثائق ما مكنهم تحت رايات الإستعمار من الغزو البحرى لشواطىء العالم الإسلامى والهند والشرق الأقصى ،ونهب ثروات هذه البلاد للعمل على تخلف أهلها .

مع الاستعمار :

وأخيراً بعد الغنى الذى حققته أوروبا فى مغامراتها الإستعمارية بدأت الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر ، والثورة العلمية والقومية فى القرن التاسع عشر . وأتيحت لليهود فى أوروبا بعد أن تسربوا إلى قيادة الفكر الأوروبى بها ، وخصوصاً بعد حركة ، وسبينوزا ، وماركس ، وسيجموند فرويد ، وماكس نوردو ، للتمكن من الثروات الأوروبية ، ومن قيادة الفكر وأجهزة الأعلام ومؤسسات السياسة والسلطة فى أوروبا .

وهكذا فى صورة هذه السلطة ، وبعد أن انتهت وسقطت كل قيود الأذلال عن اليهود ما بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر بدأت الأحلام الصهيونية تتجسد على طريق هستيريا العودة إلى فلسطين ، وإقامة الدولة العسكرية المتسلطة بمزاعم الإنتماء العلوى

فوق البشر ، وبأوهام إمكان تحقيق السيادة على كل البشر ، وكل العالم ، وبخاصة على كل العرب ، من هذا الموقع المركزى الذى مارسوا تخضيب أرضه قبل ذلك بدماء الأبرياء .

وأخيراً أثمر تحالف الصهيونية والإستعمار تجدد هذا الإغتصاب الدموى الثانى لأرض العرب حول بيت المقدس ، وهكذا ولدت دولة « إسرائيل » سنة ١٩٤٨ فى جو يملؤه دخان الحرائق ، وصراخ القتلى والجرحى ، من الشيوخ والنساء والأطفال من العرب الذين بوغتوا بالعدوان ووحشية القائمين به .

وكان الغرور الذى تتفجر به الكلمات الهستيرية لقادة إسرائيل من الصهاينة « الأكثر تمرساً » لترسيخ الإغتصاب الجديد ، يرتكز كعادته معهم على الغباء العصابى التقليدى ، فقد اعتقدوا أنهم يفاجئون العرب هذه المرة ، وهم فى أسوأ الأحوال من التمزق ، والإنقسام ، والجهل ، والفقر ، والمرض ، والإغتراب الكامل عن مصادر الأصالة ، والهوية، والقومية ، وأنهم – أى العرب – سيظلون إلى أن يلفظوا أنفاسهم تحت صخرة هذا الغزو الصهيونى ، المسلح بمخططه ، وتمويله ، وعتاده ، وحلفائه ، عاجزين عن أن يفرزوا قياداتهم العربية الشامخة ، القادرة على جمع شملهم ، وكلمتهم ، لإحباط هذا العدوان الصهيونى ، الذى طال التخطيط والإعداد له لفرض أهدافه الأبدية على العرب !

هكذا ظنوا . . ولذلك لم يجد قادتهم ما يمنعهم من التحدى السافر بإعلان هذا الشعار الدموى القائل : « يمت كل الناس ويبقى إسرائيل وحده » !

ولكن سرعان – كما هو فى قدر الله المحتوم ، وفى سننه التى لا تتبدل ما خاب ظنهم ، ودخلت فى التيه – مرة أخرى –مسيرتهم . ذلك لأن

الشعوب العربية ، وفى مقدمتها مصر ، فجرت كوامن مقاومتها للعدوان وأفرزت هذه المقاومة قياداتها لقمع هذا العدوان ، بالحرب الطويلة الأمد حتى يتحقق النصر الكامل ، وتتحرر الأرض العربية المقدسة . وكانت أولى هذه المواجهات العنيفة والمنظمة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ثم زادت عليها لتعزيزها ثورة التصحيح سنة ١٩٧١ ثم جاءت مبادرة السلام العادل — بعد انتصار ١٠ رمضان — بكل شروطها عن تبادل الحقوق المشروعة ، وبقوة تعبيرها من منطلق القوة والإرادة الحرة فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ جهداً صاعداً ومستمراً على نفس الطريق ، حتى كان توقيع إطار السلام العادل باتجاه ترسيخ ركائز السلام الشامل ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٩٧٨ .

فى ضوء هذا التحول التاريخى فى صالح أصحاب الحق المشروع ، وبمشيئة الله القادر ذى الأمر المسموع ، يحق لنا أن نتذكر اليوم — نحن العرب — ما سبق لغلاة الصهيونية والاستعمار أن تشدقوا به فى الزراية بالعرب وحقوقهم ، لكى نقيس اليوم بالأمس ونعتبر ، ونشد أحزمتنا ولا نسترخى ، ونتوكل على الله ولا نفرط ، من أجل إعادة البناء ، وتحقيق التقدم والرخاء .

• إننا نتذكر ما سبق أن قاله بن غوريون مردداً من بعض كتب الصهيونية السرية « التلمود « » هذا الشعار التحريفى للتوسع : « فلسطين قلب العالم ، والقدس قلب فلسطين ، والمعبد قلب القدس ، وقدس الأقداس قلب المعبد » ! . . فماذا بعد هذا يتبقى للعرب ؟ !

• وكان مناحم بيجين فى أيام شقاوته وقساوته الصهيونية الأولى يقول لتبرير المذابح ، وللتشجيع على وضع الفلسطينيين تحت نير الآلام ، والعذابات ، والمعاناة التى لا تنتهى إلا بانتهائهم ، وذلك عندما كان يقود

عصابة أرجون زفاى ليومى : « أنتم الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم . لا عطف ولا رثاء حتى ننتهى من إبادة ما يسمى بالحضارة العربية التى سنبنى على أنقاضها حضارتنا » ! ! . . فالآن . . بعد نعمة السلام والأمن . . ماذا ينوى بيجين بالنسبة لعهوده الجديدة ؟

• وكان لورانس الجاسوس الإنجليزى المتخصص فى الحرب السرية للعرب ، يعرف بالضبط ما هى سياسة الاستعمار السابق المتحالف مع الصهيونية ، وفى وثيقة سرية له إلى المخابرات الإنجليزية فى يناير سنة ١٩١٦ عن الأهداف الرئيسية لبريطانيا فى تحالفها مع الصهيونية كتب يقول : « إذا عرفنا كيف نعامل العرب فسيبقون داخل دوامة من الفوضى السياسية ، أى داخل دويلات صغيرة حاقدة ، ومتنافرة ، وغير قابلة للتماسك » ! . . . فالآن هل لا تزال هذه هى خطة قادة الصهيونية وهم يعملون على تقسيم لبنان العربى إلى « دويلات صغيرة حاقدة » ؟ . . أم إنهم بعد السلام العادل والشامل مع العرب سيتوقفون عن هذا المخطط الهدام ، ويحترمون اتفاقيات السلام ، وجميع أهداف السلام ؟ .

ومع كل ذلك فنحن مطمئنون إلى وعد الله للصادقين بمواثيقهم ، ووعيده لناقضى هذه المواثيق ، وهو سبحانه القائل فى وعيده بإحباط كل أهداف المعتدين من قادة الصهيونية المصابين بعصاب العدوان ، وشهوة إيقاد الحروب بين بنى الإنسان :

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » . المائدة : آية ٦٤

السؤال الثالث :

« ما هو المدلول الحقيقى وراء شعار الصهيونية كما يرفعه الأرهابيون المتطرفون والمنحرفون من اليهود منذ انشاء اسرائيل وقبل عقد اتفاقيات السلام ؟

وماذا تعرفه عن مراحل المذهب الصهيونى بين يهود اوروبا قبل أن ينتهى الأمر الى تيودور هرتزل الذى تم فى عهده الوفاق مع الاستعمار الانجليزى على انتزاع ما يسمى بالوطن القومى لليهود فى فلسين ، وما هى الأسباب والعوامل التى أتحت لبناة هذا المذهب العــدوانى العنصرى بين اليهود أن ينشــأ ويتطور ويتأهب وينقض على قلب الوطن العربى حول القدس دون انتباه العرب لمــا كان يجرى الا بعد وقوع الضربة القاسية ؟

الإجابة :

نبدأ الإجابة عن هذا السؤال بالإشارة المباشرة إلى أعماق « العقل الباطن » لعامة اليهود حيث لا يزال يضىء لهم بكل قوة مسيطرة – بعيداً بعيداً عن أى اتزان مع حقائق الماضى أو ضوابط الحاضر ، سلطان هذا الملك الذى آتاه الله سليمان ، والذى استجاب به له فى دعائه كما جاء به فى قوله تعالى :

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَ يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى »

ص : آية ٣٥

وقبل أن نمضى فى الإجابة أوضح أن ما أقصده بالعقل الباطن هنا ليس هو ما يقصده المحلل النفسى اليهودى سيجموند فرويد فى تحليله للأمراض النفسية الصهيونية ، واعترافه بها فى صورة أسس جديدة

للتحليل النفسانى ، وذلك حيث يرى أن « العقل الباطن » هو موطن « الرغبات المكبوتة » التى تنطلق « لا شعورياً » فى الأعراض المرضية التى تنتاب العصابيين ، وإنما أقصد أن هذا « العقل الباطن » فى طبيعة الأعراض الشاذة للفكر اليهودى ، فى صهيونيته الأولى ، وصهيونيته المعاصرة ، قد أصبح بطول التشبث بمخالفة الواقع ، وإنكار المعقول فى العقل الإنسانى العام ، هو مصدر « الشعور » المسيطر على حياة « عصابية ذهانية » تستعصى — إلا بالمعالجة — عن أى قدرة ، أو رغبة ، فى الاتزان مع حقائق التاريخ ، ومع ضوابط ومتغيرات العصر .

ثم أعود إلى قصة الملك سليمان ، الذى افتتن اليهود بملكه ، وبالقوى المتعددة التى سخرها الله له لبناء هذا الملك ، فأوضح بإيجاز شديد أن الحكمة الإلهية فى إرسال أنبياء ملوك إلى بنى إسرائيل مثل داود وسليمان — على غير ما جرت به سنة الله فى إرسال الرسل السابقين واللاحقين ، الذين كانوا إخوة مطهرين بصدقهم وبساطتهم وأمانتهم وأخلاقهم لأقوامهم ، وليسوا ملوكاً عليهم — إنما كان سنة خاصة ببنى إسرائيل ، شاء بها الله وهو يطيل من إرخاء حبال الإنابة إليهم ليرجعوا إلى الله ، أن يرسل إليهم أنبياء يعلم سبحانه أنهم يكونون أحب إليهم بإشباع ولعهم بالمال ، وغرورهم بالسلطان ، إذ كانوا « ملوكاً » ثلاثة ، يبهرونهم بمظاهر الغنى ، وعنفوان السلطان ، وبخاصة إذا كان أحدهم مزوداً بآيات « التسخير » لعدد من القوى الظاهرة والخفية ، كما توفر ذلك فى ملك سليمان — بعد طالوت وداود — لعل هؤلاء الملوك الأنبياء ، وهم يسوقون إليهم العظات بالإنابة إلى الله ، والعودة إلى الصراط المستقيم ، والتقبل لما سبق أن هجروه من وصايا وكتب إبراهيم وموسى ، أن يجدوا منهم

من خلال انبهارهم بآلاء الملك ، وافتخارهم بأن هذه الآية العجيبة فى نبوة ملك ، هى ما خصهم الله به ، فيكون شكرهم له رجعة بالحق إليه ، واستغفاراً من جملة ذنوبهم وكبائرهم له ، ثم إيمانهم – على يد هؤلاء الملوك ، بما استكبروا طويلا على الإيمان به من قبل ! !

ولكن ما وقع لأكثر بنى إسرائيل أمام هذا الملك الذى وهبه الله لنبيه سليمان كان فى ردة آثاره على أمراض كبريائهم ، وغرورهم العنصرى ، وتحريفهم لكلام الله ، وتعبدهم للذهب ، واشتهائهم للتسلط به على تنشيط سوق الشهوات ، والسيادة به على مصائر البشر – لقد كان كل ذلك هو فتنتهم الكبرى ، التى استقرت بكل برهانها المقلوب أمام أعينهم المسحورة ، وبصائرهم المبهورة ، لتؤكد لهم أنه حيث اجتمع «الهيكل والذهب» فى ملك سليمان ، وحيث ظهر إمكان « التسخير » لكل الظاهر والخفى من الجن والإنس ، ومن الموارد والعناصر ، لإقامة ملك يتأكد به – رغم كل معارضات أنبيائهم السابقين واللاحقين ، ورغم كل مواعظ من بقى منهم على بقية من دين موسى وإبراهيم – أن اليهود من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، هم الشعب المعد بمجرد نسبته إلى هؤلاء الأنبياء – وإن لم يعمل بعملهم – لأن يحكم هذا العالم ، وأن يتصرف فى البشر بكل ما « يشتهى » للتمكين لأبدية هذا الحكم ، وأن نقطة الإنطلاق على هذا الطريق الطويل ، والوعر ، تبدأ من هذه الصورة المستقرة فى أعماق عقولهم ، والموشاة بخيوطها الذهبية المشعة لهيكل سليمان ، رمزاً لهذا الملك الذى قام فى لحظة من الزمان ، بقوة التسخير لجميع القوى فى هذا العالم .

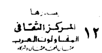
كانت هذه الآية التى وهبها الله لسليمان فى ملكه الذى لا ينبغى لأحد من بعـــده ، هى « الشعار » الذى سار به أكثر اليهود فى الإتجاه العكسى لمقتضى عظتهم بهذه الآية الزائلة ، وغير القابلة للتكرار لملك سليمان . . .

لقد كانت هى فى انبهار كبريائهم ، وتسلطهم ، وغرورهم ، وخبالهم العنصرى هى «الرمز» الذى عبدوه،وأقاموا عليه،ومن حوله، وفى طوفان خيالاته ، عقيدتهم العنصرية الكبرى . . أقاموا عليه : « الصهيونية الأولى » و « الصهيونية الثانية » . . التى ولدت فى « العقل الباطن » لليهود ، ومعها كل أمراضها العصابية والذهانية ، بمولد هذا الرمز البالغ التأثير عليهم فيما فرضوا أنه « اتحاد الهيكل والذهب » . . وأن ما سخره الله من القوى الظاهرة والخفية من الجن والإنس ، ومن الموارد والعناصر ، إنما هو إشارة الإنطلاق لإقامة مملكة سليمان العالمية . . باغتصاب فلسطين العربية ، وما حولها من النيل إلى الفرات . . ليقيم الأحبار الجدد ، أى « الصهاينة » هذه المملكة التى ترفع شعار الدين على شهواتها وأطماعها . . . وكلما سقطت . . قاموا ليجربوا مرة أخرى . . ليجربوا أن يعبدوا سيدين فى وقت واحد « الهيكل والذهب » ! ! .

وهكذا بعد شتات وانهيار الصهيونية الأولى على أرض مملكة سليمان.. عادت النوازع ، والرموز ، والأوهام ، لتحاول توفير جميع الوسائل لمولد الصهيونية المعاصرة .. كما سنشرح خطوات نشأتها فى أوروبا بإيجاز فى الإجابة عن هذا السؤال ..

ملك سليمان :

وحقاً .. لقد استطاعت القوى الصهيونية أن تعد لظهورها فى العالم





باتجاه فلسطين ، بل وأن تحقق الإغتصاب الثانى لأرض فلسطين ، حيث آثار الهيكل ، وبقايا مملكة سليمان .. ولكن هل سأل أحد من كبار الصهاينة الأوروبيين الذى أصروا على العدوان ، وعلى ابتلاع أرض العرب . . هل سأل أحد منهم نفسه عن حقيقة مملكة سليمان التى قامت على تسخير الجن بمشيئة الله ، وليس بعلم من عند سليمان أو غيره ، لتسخيرها ؟ !

هل سأل أحد من هؤلاء الصهاينة الغارقين فى أحلام « الماسونية » ، والذين تميزوا فى هذا العصر أن يصنعوا بشكل من الأشكال القدرة على تسخير الشياطين ، والبشر المستضعفين ، دولة كبرى على أرض العرب يحكمون منها كل العالم ، ويذلون بسلطانهم بها كل الشعوب . . هل سأل أحد منهم نفسه عن حقيقة هذا الملك الذى أقامه سليمان على جزء من الأرض العربية المغتصبة من حيث اتساعه . . ومن حيث سلطانه على الشعوب العربية المجاورة له ؟ !

هل سأل أحد منهم نفسه هذا السؤال ليعلم أن هذا الملك الواهن الصغير لسليمان ، والذى كانت الجن والشياطين المسخرة فى قيودها وأصفادها تتخبط فى أرجائه ، لم يكن فى مشيئة الله آية تقبل التكرار ، بعد أن استوفت مقاصد الحكمة الإلهية فى عرضها على بنى إسرائيل لموعظتهم ، فلم تزدهم إلا عتواً وخسارا . . ! ؟

وهل ينكر أحد من علماء الصهيونية المعاصرة اليوم أن هذا الملك الذى سخر الله فيه لسليمان الكثير من القوى الظاهرة والخفية كان ملكاً مهتزاً ، صغيراً ، لا يتجاوز – رغم النملة والهدهد والشياطين المكبلة

فى الأصفاد — تطاق هذه الهضبة الجرداء من أرض فلسطين العربية ، وهى الهضبة التى انكمشت فوقها جماعات اليهود المتناثرة من يهوذا وإسرائيل ، بينما بقيت المدن الكبرى فى فلسطين شمالا وجنوباً ، وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط معاقل قوية بأيدى العرب الكنعانيين ..!؟

وأكثر من هذا دلالة على ضعف هذه المملكة السليمانية ، المهتزة وسط بحر العرب ، والتى لم تكن تساوى جزءاً من مئتين من مساحة الوطن العربى الكبير — أن سليمان النبى والملك كان فى وضعه وسط أمواج هذا البحر البشرى مضطراً إلى مهادنة وملاينة الحكام العرب فى مصر ، وفى الدولة الكنعانية ذات المدن الزاهرة على البحر مثل صور وصيدا . وأن مملكة سليمان النبى والملك كانت بذلك « رهينة » فى متناول يد المصريين ، والكنعانيين ، الذين كانت قواتهم البرية والبحرية لا تسخر الجن على وجه التحقيق ، كما أن مدنهم الزاهرة كانت تعبر عن حضارة ونظم لم يبلغ إليها إدراك اليهود ولا عفاريت سليمان على عهد سليمان ، على الرغم مما شاب هذه النظم من وثنيات تلك العصور إلى حين . !

فهل يأمل صهاينة العصر — رغم ذلك — فى أن يكونوا أكثر اقتداراً من مصدر إلهامهم على التوسع بابتلاع الأرض العربية ، وعلى إنجاز هدف السيادة المطلقة على كل البشر من هذا الملك والنبى سليمان ، الذى هو برىء ومنزه ولاشك عن خطايا هذا «التوهم الصهيونى» العدوانى وما تولد عنه من « شعارات » وتنظيمات ، ومن عصابيات وذهانيات !!؟

من كل ما أشرنا إليه يتبين من بداية الشعار الصهيونى المؤسس على رمز « هيكل سليمان » ما هو المدلول الحقيقى وراء هذا الشعار كما رفعه

الإرهابيون ، والمتطرفون والمنحرفون ، منذ الصهيونية الأولى ، ومنذ الصهيونية المعاصرة التى قامت بإنشاء إسرائيل » على أساس التوسع ، واحتلال كل أرض العرب « من النيل إلى الفرات » . . وهو المدلول الذى خاطبهم الله سبحانه به فى كتابه العزيز حيث قال عن هؤلاء الصهاينة وشعارهم :

« وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا » . البقرة آية : ١٠٢

نشأة الصهيونية المعاصرة :

ثم نتحدث فيما يلى عن تواريخ الخطى والمراحل المتعددة ، والمتعاقبة التى تم بعدها قيام هذا التنظيم الخفى ، والقوى ، للصهيونية المعاصرة ، والذى كانت علامة تمامه ظهور تيودور هرتزل اليهودى النمساوى تلميذ الفيلسوف اليهودى ماكس نوردو . وقبل أن نبدأ فى تسجيل هذه المراحل والتواريخ الخاصة بقيام الصهيونية العالمية المعاصرة ، على أسس الصهيونية الأولى بكل عدوانيتها ، وعنصريتها ، وعصابها ، يجدر بنا أن ننى أن هذه الصهيونية المعاصرة لم تكن تصر فى البداية على احتلال « فلسطين » بدلالة أن هرتزل جاء إلى مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الإنجليز حول تنفيذ مشروع الاستيطان الصهيونى فى شبه جزيرة سيناء ، وليس فى فلسطين ، وكأن سيناء ليست مطمعاً أساسياً من أطماع الدولة التى أعد

الصهاينة الجدد من الأوروبيين لإقامتها فوق أرض العرب ، وأنها ليست أحد الطرق إلى فلسطين ، إن لم تكن فلسطين هى بداية الطريق إلى احتلالهـا . . !

وبعد فإن التواريخ الآتية تؤكد أن « فلسطين » كانت هدفاً مرسوماً ومحدداً منذ أكثر من قرن من الزمان قبل توجه هرتزل سنة ١٩٠٤ ليتظاهر بمفاوضة الإنجليز ، الذين قاموا بالدور الإستعمارى الفعال لتحقيق هذا الهدف الصهيونى المحدد . . ومنذ نحـو قرنين من يومنـا الحاضر . .

١ — فى سنة ١٧٨٩ كانت البداية الخيالية لبعث مشاعر قومية بين اليهود الأوربيين داخل « حوارى اليهود » الخاصة بهم فى مدن أوروبا أو « الجيتو » كما يسمونها ، عندما بدأ اليهودى موسى مندلسون فى تلك « الحوارى » المغلقة على حياة اليهود الخاصة حركة فكرية تحت إسم « هاسكالا » أو « التنوير » ، وهى كلمة عبرية قريبة فى العربية من كلمة « الصقل » والمقصود به « التثقيف » أو التنوير كما ذكرنا ..

وكان هدف هذه الحركة الفكرية البسيطة ، والزاحفة فى خفاء وتحفظ أول الأمر فى ظلمات تلك « الحوارى » اليهودية ، هو توجيه انتباه اليهود الحريصين على « عزلتهم » بمعتقداتهم الخاصة داخل « الجيتو » إلى أهمية انفتاحهم على ثقافات العصر فى البلاد التى يقيمون بها ، وذلك حتى يصبحوا أهلا — مع عزلتهم — للمساواة بمواطنيهم من الأوروبيين ، وقادرين على الحوار معهم عن إمكان تحقيق أهدافهم من هذه المساواة ..

هذه الحركة المبسطة منذ سنة ١٧٨٩ ، والداعية إلى التنوير العـــام

داخل ظلمات الحوارى اليهودية فى المدن الأوربية كانت هى البداية التى انتهت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى قيام هذا التنظيم القوى والخفى للصهيونية المعاصرة ، التى توجهت تحت شعار « الخلاص من الشتات » نحو هدفها المحدد لها منذ الصهيونية الأولى ، وهو اغتصاب فلسطين .. !

٢ — فى سنة ١٧٩٩ وجه نابليون فى حصاره الفاشل لمدينة عكا ، بعد فشل غزوه لمصر — وذلك طمعاً فى الأموال والمعاونات اليهودية — نداء سياسياً رخيصاً يحرض اليهود ، أو يشجعهم به على « العودة لبناء القدس » ! مما كان علامة على بداية تحرك خيوط للتحالف على اغتصاب أرض وموارد العرب بين اليهود والقوى السياسية الجديدة الإستعمارية فى أوروبا . .

٣ — فى سنة ١٨٢٧ قام موسى حاييم مونتفيورى أحد أصحاب رؤوس الأموال من اليهود الإنجليز بسلسلة من الزيارات الإستطلاعية إلى فلسطين ، وذلك لاستكشاف الطرق الميسرة لاغتصابها عند تمام أهبة الصهيونية الجديدة لذلك ، وقد ظل يواصل نشاطه الصهيونى خلال هذه الزيارات حتى سنة ١٨٧٤ ..

٤ — فى سنة ١٨٤٠ حاول اللورد مونتفيورى أن يتفاوض مع الحكومة الإنجليزية من أجل معاونته على تحقيق مشروعه الذى يفتح لليهود مجال « الإستيطان الزراعى » فى فلسطين ..

٥ — فى سنة ١٨٥٥ إشترى هذا اللورد مونتفيورى المالى اليهودى

الإنجليزى أول مزرعة بفلسطين بجوار يافا وخصص دخلها لفقـــراء اليهود . . .

٦ — وبينما كانت هذه المناوشات الإستيطانية الأولى تتم بجهرد رأس المال اليهودى الأوروبى مستعيناً بالقوى الإستعمارية نشطت بعض التنظيمات اليهودية الأوروبية متسترة ومتنكرة فى أثواب مسيحية زائفة للترويج للأهداف الصهيونية ثقافياً بين الأوروبيين ، ومن ذلك ما قامت به المنظمة الصهيونية التى خلعت على نفسها إسم « الحلف المدرسى الدولى لمكافحة العداء للسامية » من نشر كتاب عن رحلة القس آرثر بنرين إلى سيناء وفلسطين ، بهدف الكشف عن رحلة « الخروج » التى قام بها بنو إسرائيل ، أكثر شعوب الأرض تميزاً كما يصفهم ! واسم هذا الكتاب المدون بأقلام يهودية « تاريخ سيناء وفلسطين » .. وقد صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٨٥٦ ..

٧ — فى سنة ١٨٦١ تم عقد مؤتمر صهيونى « تجريبى » فى مدينة ثورن فى بروسيا ، دعا إليه الحاخام زفى كاليسكر ليشرح وجهات نظره فى ضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم لتحقيق حلم العودة إلى فلسطين. وقد كانت النتيجة المباشرة لهذا المؤتمر الأكثر تحدياً ووثوقاً مما سبقه ، إنشاء جمعية صريحة فى إعلان المخطط الصهيونى لاغتصاب فلسطين باسم « جمعية استعمار أرض إسرائيل » .. كما كان من نتيجة المؤتمر الدعوة لإنشاء أول مدرسة زراعية يهودية بفلسطين ..

٨ — فى سنة ١٨٦٢ ظهر كتاب الفيلسوف اليهودى موسى هيس وهو « روما وبيت المقدس » الذى هاجم فيه فكرة اندماج اليهود فى

الشعوب الأوربية التى يعيشون فيها حياة المواطنين من أهلها . وقد دعـــا فى كتابه إلى تدعيم الهدف الصهيونى المعاصر للعودة الى اغتصاب أرض العرب ، إبتداء من إحتلال فلسطين والقدس ، ثم السيادة على العالم بالقضاء على المسيحية ، وإقامة قاعدة المملكة اليهودية فى روما .

٩ — فى سنة ١٨٦٥ تم نتيجة لمؤتمر ثورن بروسيا إنشاء صندوق « إكتشاف فلسطين » فى بريطانيا ، ليقوم بتزويد الجمعيات اليهودية التى انتشرت فى أوروبا تحت إسم « محبى صهيون » بالأموال الإنجليزية اللازمة لتحقيق أهدافها ، مثل جمع المعلومات التى تساعد على تيسير احتلال فلسطين ، ورسم الخرائط المفصلة عنها على أساس الكشف عن الأسماء اليهودية القديمة للمدن والأماكن بدلا من الأسماء المستحدثة ، بعد أن حرر العرب فلسطين من قبضة الروم بعد ظهور الإسلام . وكان معظم العاملين فى هذا الصندوق من الضباط الإنجليز ..

١٠ — فى سنة ١٨٧٠ بدأ الكاتب الصهيونى برتس سولنسكون بحملته الصحفية لإذكاء « حب صهيون » بين يهود أوروبا ، ضد ما سماه بالعبودية الروحية ، والفراغ الفكرى لدعاة الإندماج من اليهود فى الأوطان التى يقيمون بها . وقد كان لهذه الحملة الصحفية المثيرة آثارها فى قيام جمعية صهيونية جديدة إسمها « قديماً » أى « إلى الأمام » ، وهى أول جمعية يهودية تنادى بالقومية اليهودية قبل ظهور هرتزل ، وكان مقرها فيـــنا . . .

١١ — فى سنة ١٨٧٠ أيضاً تم إنشاء أول مدرسة زراعية فى فلسطين وهى المدرسة التى سبق أن أوحى بها مؤتمر ثورن سنة ١٨٦١ ، واختاروا لها إسم « مكفيا إسرائيل » . .

١٢ — فى سنة ١٨٧٨ بدأت المحاولات لتنفيذ « الإستيطان الزراعى » اليهودى فى فلسطين . فى هذا العام حاول ياؤل موسى سالمون وهو يهودى من القدس ، مع بعض الصهاينة الأوربيين ، إنشاء مستعمرة زراعية على نهر الراكون باسم « بتاح تكفا » أى باب الأمل ..

١٣ — فى سنة ١٨٨١ وعلى أثر حادث اغتيال القيصر الروسى ألكسندر الثانى بعد إجراءات القمع ضد اليهود جمعيات « محبى صهيون » أو كما هى بالعبرية « هوفوف زيون » .. لتنادى برفض الإندماج ، وتنشيط جمع الأموال لاغتصاب فلسطين ..

١٤ — فى سنة ١٨٨٢ صدر لليهودى الروسى الدكتور ليون بنسكر والذى سبقت له زيارة سيناء ، وجمع المعلومات عنها بمخادعة سكانها من البدو — أقوى نداء موجه إلى يهود أوروبا بعنوان « التحرر الذاتى » يذكرهم فيه بأن « اغتصاب فلسطين صهيونياً » هو البديل الأفضل من استمرار بقائهم « خاضعين » لاستغلال الدول الأوروبية ! !

ولسنا ننسى أنه فى هذا العام ١٨٨٢ احتلت انجلترا مصر عسكرياً ، وكان أعظم أهدافها الإعداد لخطط قيام دولة « إسرائيل » .. وقبل ذلك سنة ١٨٨١ كانت قد ظهرت من غرائب التمويهات اليهودية جمعية صهيونية تحمل كذباً إسم « مصر الفتاة » أخذت توزع منشوراتها فى الإسكندرية خلال معارك عرابى ضد الإنجليز لإثارة مشاعر « تحررية » زائفة ، وهدامة ، لهذه الثورة الوطنية ، وكان ذلك للمعاونة على نجاح المخطط الإنجليزى الصهيونى لاستعمار مصر ، باعتباره خطوة أساسية لتمكين اليهودية العنصرية الصهيونية من اغتصاب فلسطين ! !

١٥ — فى سنة ١٨٨٢ أيضاً قامت حركة « بيلو » تعبيراً عن نجاح نداء اليهودى الروسى ليون بنسكر ، واسم هذه الحركة مؤلف من الحروف الأولى من كلمات التوراة بالعبرية « بت يعقوب ليخ أو تيلحا » والتى هى بالعربية « بيت يعقوب هلم فنسلك فى نور الرب » ..

١٦ — فى سنة ١٨٨٧ عقد مؤتمر فى دورسكينكى حيث توحدت الحركة اليهودية المنادية بالعودة إلى « صهيون » لأول مرة بتوحد جمعيات « محبى صهيون » أو « هوفوف زيون » .. وبذلك بدأت الجهود النشطة لتدريب القادة الصهيونيين الذين ظهروا من بعد ليقودوا هذه المنظمة الصهيونية بعد تمام قيامها ظاهره وخفية ، على أساس ما استقر لهم من ركائز هذا الفكر العنصرى الصهيونى العدوانى ، للانطلاق به بكل ما فيهم من خبال البارانويا والعصاب والذهان ، لإنشاء ما يسمونه بالوطن القومى ، والدولة اليهودية ، فوق جثث القتلى ، وحطام المدن العامرة ، وتراب الأرض العربية المقدسة المخضبة بدماء الأبرياء والشهداء ..

١٧ — فى هذا المخطط الذى أحكمت الصهيونية المعاصرة بكل ذكاء غبائهما ، تحديد مراحله ، وتصنيف شعاراته ، وقد ملأتها ، « بارانويا العظمة » بالثقة فى إملاءاتها التعسفية كأنها — فى يقينها الزائف — وحى إله .. أو نبوءة نبى وملك معا .. مثل سليمان !

وعلى هذا فقد حدد هذا المخطط العصابى السرى بأنه فى السنوات العشر ما بين سنة ١٨٨٧ و سنة ١٨٩٧ . تتم مرحلة التسلل العدوانى إلى فلسطين تحت شعار « المحراث والسيف » .. وقد تم فى سنة ١٨٩٧ إعلان قيام « الصهيونية المعاصرة » مع الإشارة إلى أهدافها الممكن الإعلان

عنها فى مؤتمر بال الذى أعد له وقاده اليهودى النمسوى تيودور هرتزل..

١٨ — من سنة ١٨٩٧ وحتى سنة ١٩٠٧ يتم الإعداد والتمويل والتخطيط والدعاية باتساع العالم لقيام إسرائيل ، مع شراء الأعوان ، وإسكات الأصوات القوية ، وضمان مباغتة العرب وتضليلهم عن حقيقة ما يجرى ، حتى لقد أشيع مرة أنه من الممكن أن ترضى « الصهيونية » بعد أن نضجت أنيابها ، ورفعت رأس الأفعى بكل سمومها — بوطن قومى يمنحه لها الإنجليز فى « أوغنده » .. !! .. وفى هذه المرحلة تم أول المطلوب لإقامة الدولة القومية لليهود وهو إحياء اللسان العبرى بعد موته ، وإنشاء صندوق الجباية لجمع الأموال لهذه الدولة بانتظام من أغنى أغنياء العالم وهو يهود أوروبا وأمريكا ..

١٩ — من سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩١٧ خصصها المخطط الصهيونى لخلق النواة العسكرية للجيش الإسرائيلى بانشاء العصابة المسلحة ، « هاشومير » أى الحارس . . وغيرها من العصابات المدربة على المذابح..

وفى سنة ١٩٠٧ كانت لجنة بنرمان الإنجليزى قد أتمت عملها الذى كان قد تم التواطؤ عليه بين الصهيونية والإستعمار الإنجليزى ، وهو إعلان حق اليهود فى إنشاء وطن قومى تأسيساً على ضرورة القضاء على أى احتمال بوحدة الأمة العربية التى تملك المفهوم الدينى والإنسانى والحضارى العريق للحرية ، كما تملك من اللغة والعقيدة والأرض والبشر ، مايحقق لها بغير هذا الجسم الإسرائيلى الصهيونى الغريب فى قلبها — أن تتوحد ، وأن تصبح قوة مضادة لجميع مخططات وأهداف الإستعمار فى الوطن العربى ، بل وفى الشعوب المجاورة ، التى اعتادت فى حالات استرخاء العرب إبتزاز مواردهم ...

٢٠ – من سنة ١٩١٧حتى سنة ١٩٢٧ كانت في المخطط الصهيوني هي « مرحلة الإغتصاب » وشعارها « السور والبرج » ، وفيها تم وضع القوانين التي تساعد اليهود الأوربيين على الهجرة وتعزيز الإستيطان الإستعماري العدواني الصهيوني ..

٢١ – من سنة ١٩٢٧حتى سنة ١٩٣٧ – كانت مرحلة مقاومة المد الثوري العربي الفلسطيني ، وهذا مهم دائماً بالنسبة للصهيونية ، وكان أثره واضحاً في المؤتمرات الموجهة للقضاء على المقاومة الفلسطينية في كل مراحلها ، وبكل أشكالها .

٢٢ – من سنة ١٩٣٧ حتى سنة ١٩٤٧كانت مرحلة انطلاق الإرهاب والمذابح حتى يتم احتلال فلسطين ،وتسارع الدول المتواطئة لإعلان قيام دولة إسرائيل كما حدث في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ..

٢٣ – من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٧ اعتبرها المخطط للصهيوني ، الواثق في تدبيره ، بداية مرحلة «التوسع» وقد جعل شعارها « الإنقضاض والأمر الواقع » وفيها – كما شهد أبناء هذا الجيل – تم «الإحتواء الأول» للأرض التي تم احتلالها ، أي تم تعزيز هذا الاحتلال بالمستوطنات العسكرية ، وطرد السكان العرب ، وتهويد كل معالم الأرض والحياة والناس . وفي هذه المرحلة أيضاتم العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، وهو العدوان الذي نجحت مصر في إحباط أهدافـــه .

٢٤ – من سنة ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧ كانت في لغة ذلك المخطط ، الإنطلاق بالعدوان إلى اغتصاب أرض جديدة ، تحت شعار خداعي مبتكر يخفي شراهة الاندفاع إلى التوسع ، والاغتصاب ، واحتلال الأرض الجديدة من الوطن العربي ، وهو شعار « الوصول إلى حدود

آمنة » . . ونتائج نكسة سنة ١٩٦٧ واستيلاء إسرائيل على أرض سيناء معلومة لنا من نتائج هذا المخطط الذى تحالفت عليه الصهيونية الإستعمار .

٢٥ — من سنة ١٩٦٧ وحتى سنة ١٩٧٧ — كما حـــدث قبيل مبادرة الرئيس السادات — وكما كان معداً فى التخطيط الصهيونى الذى فاجأته هذه المبادرة ، تقع مرحلة « الإحتواء الثانى » أى تعزيز الأراضى الجديدة التى تم احتلالها منذ سنة ١٩٦٧ بانشاء المستعمرات ، والمستوطنات العسكرية — عليها ، وتهويد معالم الأرض والحياة والبشر .. !

٢٦ — أما التوقعات التى تضمنها هذا التخطيط الصهيونى الشامل — فى تقدير قادة الصهيونية وإسرائيل— والذى يسير كما أتيح للكثير من الدول العربية وفى مقدمتها مصر — أن تعلم الكثير من أسراره رغم شدة التحكم عليه ، فإنه يسير بكل نشاطه نحو إقامة « إسرائيل الكبرى » .. ومن خلال ثلاث مراحل جديدة قادمة رسمت لها الصهيونية « أهدافاً أساسية » تحققها — إذا استطاعت — لتمزيق أية احتمالات لوحدة أو قوة الأمة العربية ، وهذه الأهداف هى :

١ — الإستغلال الاقتصادى لاستنزاف كل موارد العرب .

٢ — التغلغل الاعتقادى لتمزيق وحدة الاعتقاد الصحيح الذى لا تتحقق بغيره وحدة العرب .

٣ — التفتيت السياسى والاجتماعى وراء نفس الهدف السابق لتفجير التناقضات المانعة لوحدة العرب .

ومثل هذه المراحل الخطرة فى أحلام إسرائيل ، وقادتها العصابيين

الواهمين ، والتى لا تزال برغم ما حققته إسرائيل حتى الآن بعيدة كثيراً عن متناول يدها ، وعن احتمالات وقوعها مع وجود الأغراض المؤدية إليها ، ومخاصة بعد هذه المفاجأة التى قام بها الرئيس السادات باسم مصر والعرب بمبادرته التى ألقاها فى وجه إسرائيل ، على طريق هذا الإحتمال الوحيد للسلام العادل بينها وبين العرب ، مع كفالة أمنها من غير عدوان أو توسع . . أقول إن مثل هذه الأهداف المدمرة لوحدة العرب هى مما يقف العرب جميعاً ، وأجيالهم الفتية ، واليقظة ، والموحدة من ورائهم ، لمنع أى إحتمال لتولد المناخ الملائم لاقترابها ، أو لإمكان التردى إلى حد احتمال وقوعها . . وليست هذه الوقفة العربية ، النامية على طريق السلام العادل ، أو الصراع المنتصر ، مما يمكن تحققه بالتمنى ، ولكن بالإيمان والعمل ، والتخطيط والتوقيت ، والعرق والدم ، والله سبحانه يقول إذا ما كان اختيار إسرائيل هو الحرب :

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ »

التوبة : آية ١٤

صناعة النظريات والأيدلوجيات :

بعد هذه الخطى التى سارتها فى الماضى وباتجاه المستقبل نشأة « الصهيونية المعاصرة » من خلال مراحل وجود اليهود الأوروبيين فى أوروبا بعد الشتات من الأندلس ، لا يفوتنا أن نتبين ما فات أكثر قادة الصهيونية من أنهم وهم يؤثرون على الفكر الأوروبى بمظهر قدرتهم المتفوقة على صناعة النظريات الوهمية – فى غير مجالات العلم – تعرضوا للإصابة بنفس المرض الذى أصابوا به غيرهم ، وهو التيه النظرى ، بل

لقد كانت إصابتهم بسبب اعتدادهم بأنفسهم ، وتوهمهم المناعة من التأثر بما يعدونه لغيرهم — أشد خطراً عليهم ، فكان لهم هذا « التيه » الذى أوغلوا فيه بتنمية هذه النظرية الصهيونية إلى أهدافها . . وكان التردى فى الحسابات الخاطئة . . والقرارات المتعسفة . . والمخططات التى تتناقض مع حقائق الماضى ، ومع سنن الله فى الواقع المتحرك بكل جديد ، ومتغيرات العصور المتلاحقة ، والمستقرة مع تغيرها على سنن الله . .

لقد بدأ اليهود صناعتهم للنظريات ابتداء من دراستهم للفلسفات اليونانية القديمة ، وعلومها السرية الخاصة بالصفوة والأرستقراطية ، ومضوا فى ذلك من بداية استخدامهم لكلمة « ثيورى » التى تعنى — كما عربناها تعريباً لا يتفق مع حقيقة معناها « نظرية » . . ذلك أن « ثيورى » بمدلولاتها الفلسفية اليونانية والسرية القديمة من أيام الإغريق تبدأ بكلمة « ثيو » وهى تعنى « زيوس » كبير آلهة الإغريق ، وبذلك تصبح كلمة « ثيورى » فى دلالتها اللغوية التاريخية تفرض ارتباط الحقيقة « النظرية » بهذا المصدر الخرافى والأسطورى القديم الذى يمثله « زيوس » أو « ثيو » فى حياة الإغريق القدماء !

ومن هنا نجد أن كلمة « ثيولوجى » بمتابعة استعمال كلمة « ثيو » تعنى إلى هذا العصر « علم اللاهوت » حتى وإن كان الكلام فى هذا المجال يخرج عن نطاق « اللاهوت الوثنى » ، وكذلك اصطلاح « ثيوكراسى » ويعنى « الحكومة الدينية » التى يديرها باسم القوة الإلهية رجال الدين ، مثل هذه الحكومة الدينية التى تولت أمر بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام حتى عهد داود .

إذن فمنذ البداية نشط يهود أوروبا من خلال بنائهم لتنظيمهم الصهيونى العنصرى إلى إدراك ما تحمله كلمة « ثيورى » من تعدد الطرق إلى التيه النظرى بواقعها الأسطورى والخرافى والوهمى المتنزل من الأوهام الإغريقية التى صنعت « زيوس » كبير الآلهة الإغريق فتنوعت بذلك « نظرياتهم » الوهمية التى أهدوها إلى أوروبا فى هذا الاتجاه ، إلى أن كشف الفيلسوف الفرنسى ديتوت دى تراسى « ١٧٥٤ — ١٨٣٦» عن كلمة « إيديولوجى » من كلمة « إيديو » بمعنى « فكر » ، وحيث أصبحت هذه الكلمة التى تعنى « علم الأفكار » أساساً واسعاً لتحليل الأفكار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتنوعة على طريق تصنيع « مذاهب فكرية » أكثر تعقيداً ، وأوفر جدلا ، فى بحثها النظرى الصناعى حول الكون ، والحياة ، والإنسان ، وبهذا كانت فرصة يهود أوروبا الذين غرقوا دون أن يشعروا فى إيديولوجيتهم الصهيونية العصرية ، لكى يغرقوا العالم فى الكثير من « الأيديولوجيات » الهدامة ابتداء من الماركسية حتى الوجودية والبراجماتية النفعية لجون ديوى !

ولقد تنوعت هذه الأيديولوجيات منذ كارل ماركس سنة ١٨١٨ الذى وضع كتاب « رأس المال » وأنشأ أول جمعية ثورية شيوعية ، والذى لم ينس أن يسهم بنصيبه رغم ذلك فى بناء الصهيونية العدوانية ، فكان مع زميله الفيلسوف البولندى ماكس نوردو — أستاذ هرتزل — زميلين فى الجمعية اليهودية بباريس ! . . لقد تنوعت هذه الأيديولوجيات حتى شملت تخليق أوهام غريبة تستهوى الكثير من المنسحقين فى عصر العلم بغير إيمان ، مثل خرافة « تحضير الأرواح » وتعدد أنواع ومخاطر ممارستها . . ومثل ظهور جماعات غريبة تحمل شعارات مسيحية متطرفة

تذكى الحيرة والبلبلة وزيادة التفرق بين الطوائف المسيحية ، مثل جماعة « اليونيتيريانز » « أى الموحدين » وجماعة « الهوسبتاليين » أى « المضيافين » أو الذين يتمتعون بحسن الضيافة لمن يقبلون عليهم . . وهى جماعات تتحرك بقيادات صهيونية خفية كان من آثارها ظهور عدد كبير من الأناجيل المستحدثة فى أمريكا ، وفى ولايات كثيرة بأمريكا مما بدأ يثير الشعور بالجزع لدى عدد من عقلاء الأمريكان ، وهم يرون ازدياد التمزق فى مفهوم الإيمان ، داخل هذا التيه النظرى ، أو التيه الأيديولوجى ، الذى أغرقت فيه الصهيونية بلاد الغرب ، وأمريكا ، رغم ، أنهم أحسنوا ضيافة اليهود ، وأطالوا الاستماع والتأثر بسحر « نظرياتهم » . .

ولقد كان من هؤلاء العقلاء العالم النفسى التجريبى الدكتور هنرى لنك ، الذى وضع سنة ١٩٣٦ كتاباً تعددت فى أمريكا طبعاته ٤٨ مرة حتى سنة ١٩٦٤ وهو بعنوان « العودة إلى الإيمان » وفى هذا الكتاب ينادى بأن البديل من إصابة جميع سكان الولايات المتحدة بالأمراض النفسية المستعصية على التحليل والعلاج ، والمؤدية إلى الكثير من ظواهر الاغتراب الخيالى الذى تعانيه نسبة عالية من الأجيال الأمريكية المعاصرة والتى لا تجد حلا لاكتئابها ، واغترابها ، ومشكلاتها النفسية المحيرة — إلا الانتحار فى أحيان كثيرة .. البديل الوحيد هو العودة إلى الإيمان .

على أنه مع كل هذه الضربات الصهيونية — المباشرة وغير المباشرة للتعجيل بانهيار الحضارة الأوروبية الأمريكية المعاصرة ، ومع غفلة الكثيرين من قادة هذه الصهيونية المعاصرة عن أن الشعب اليهودى بكل طوائفه يعيش — مثل شمشون — داخل هيكل هذه الحضارة التى أفقدوها

رغم تفوقها العلمى إيمانها مع أنهم يستمتعون بكل خيراتها ، فإن هذه القيادة الصهيونية العالمية لا تزال تجهل — أو تتجاهل — أن الأمة العربية الى لم تغير منذ فجر التاريخ من إيمانها بالإيمان والدين ، هذا الإيمان الذى زاد تماسكها به بعد نزول القرآن الكريم ، هذه الأمة العربية كانت ، وستظل إن شاء الله ، محصنة من التردى فى هاوية ما تقدمه الصهيونية المعاصرة للعالم من تيه « النظريات . . والأيدلوجيات ، وما تنشئه من سراب التنظيمات الخفية والماسونيات . . حتى وإن ضل فيها القلة من أهل الغفلة من العرب . .

ومعنى هذا بكل جلاء أن الأمة العربية ، التى تعمل بكل صدق وجهد لإعادة وحدتها ، ودعم بنائها للدين الحق ، والعلم الذى يقرده الدين الحق . . هذه الأمة التى انسحقت أمام إيمان أبنائها جيوش كسرى ، وفرت جيوش قيصر ، وانتهى إلى الفشل المهين خلال ٢٠٠ سنة عدوان الصليبيين المستميت ، وسقط إرهاب المغول المتوحش ، متمرغاً فى تراب جراحه بضربة واحدة مؤمنة فى « عين جالوت » . . إن أمة كهذه الأمة العربية تضع يقين حياتها وبقائها فى شريعة الله ، وفى منهجها العلمى ، منذ نزل القرآن ، وانتصر الإسلام منتشراً فى ربوع الأرض بحضارته وعلمه ، وسلامه وعطائه ، قد أصبحت تملك علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، بأن مجتمع المؤمنين الذى أقامه المسلمون الأولون على عهد الرسول الكريم ، على أركان الأمانة والصدق فى الإلتزام بشريعة الله قولا وعملا ، وشعوراً وفكراً ، وجهاداً وبذلا . لا يمكن أن يقوم ما لكا لحجته ، وإرادته ، وقراره ، على أساس « نظرية اجتماعية » . . أو « نظرية وضعية » مهما كان لونها أو اسمها . . أو مصدرها !

على أننا حتى إذا افترضنا فكرة « تنظير الإسلام » أو « أحكام الشريعة الإسلامية » — أى تقريب تصور السامع المعاصر لفهم هذه الأحكام فى مواجهة نظريات وايدلوجيات العصر — كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى السؤال الثالث من القسم الرابع عن « القرآن الكريم والمجتمع » — ومن أجل التمكن فى إطار هذا « التنظير » الفرضى من مجادلة هذه الجماعات والتنظيمات الإلحادية ، وإحباط أهدافها وإسقاط جدلها ، سواء فى مصر ، أو فى أى مكان فى العالم ، فأننا حتى بهذا التنظير « المجازى » لإفساد مثل أهداف الشيوعية الماركسية ، والاستعمارية العلمانية ، والصهيونية العنصرية — لا نستطيع أن نتصور شمس القرآن الكريم ، وهى شريعة إلهية محكمة لا يأفل نورها ، ولا ينطفىء سراجها ، تصبح — ولو مجازاً — فى الحيز الضيق المغلق ، لنظرية بشرية وضعية ، لا مطال ليدها ، ولا بينة على دعواها ، داخل هذا « التيه النظرى الأيدلوجى » المهتز بنظرياته وإيديولوجياته ، كأنها دمى فكرية ، سريعة الأضمحلال والزوال فى مناخ باطلها . . والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم فى حكم قاطع عن قيام الدين بالشريعة الآلهية ، وليس بالنظرية الوضعية . . هذه الشريعة التى معناها اللغوى منبع الماء العذب الذى منه كل شيء حى ، والذى يرده الناس للحياة به :

« لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » المائدة : آية ٤٨

ثم يقول سبحانه عن شريعة الدين الخاتم ، وعن ميثاقه بها فى القرآن الكريم :

« ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » الجاثية : آية ١٨

مبادرة السلام :

وأخيراً . . فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ يقع فى ذروة الصراع بين العرب وإسرائيل، ما هز القيادة الإسرائيلية ، والكيان الإسرائيلى، هزة عنيفة لأمر لم يكن قط متوقعاً . . فلقد قام الرئيس المصرى محمد أنور السادات وبعد حسابات قائمة على مواجهة جميع المشاعر النفسية والوراثية المعقدة لدى الإسرائيليين — بعمل شجاع وصريح ، من أجل إنهاء هذا الصراع الطويل الذى لا جدوى منه إلا المزيد من سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، وذلك على أساس متين ، وطويل المدى ، من السلام العادل ، الذى تتوازن وتتحقق به المصالح المشروعة للأطراف المتصارعة . .

ولقد كانت قوة هذا العمل الشجاع مستندة إلى صدقه ، ووضوحه ، وإلى ما فى أصالة الخلق العربى من الإيمان بفضل السلام على الحرب ، ومن إيثار للسلام العادل إذا لم ينتقص حقاً ، وإذا وجد سميعاً . . وقد بدأ هذا العمل الشجاع بزيارة السادات للقدس ، حيث واجه منفرداً قادة إسرائيل مجتمعين فى قلب معسكرهم، وحيث عرض عليهم بأناة وحلم مبادرته بهذا السلام العادل الذى حمل به أقصى ما فى وسع المقاتل الشريف عن السلام أن يصل إليه ، لكى يسأل خصومه فى « عقر دارهم» عن احتمالات تحقيق هذا السلام العادل ، بكل شروطه المتوازنة فى المصالح تماماً بين إسرائيل وبين العرب . .

لقد ذهب الرئيس السادات ليسأل عن هذا « السلام العادل » الذى هو غاية من يتقى الله فى مخاطر وأهوال الحروب ، فلا يخوضها إلا مكرهاً

ثم راضياً بعد ذلك وناشطاً إلى البذل والفداء ، إذا لم يكن بد من الحرب من أجل السلام . .

لقد ذهب الرئيس السادات إلى « القدس » ليسأل عن هذا السلام العادل » الذى يمكن بالبحث فى احتمالاته إقامة أسسه وأركانه وبنيانه بين العرب وإسرائيل . . لقد أراد أن يتحقق بنفسه هل هذا « السلام » بينهم وبيننا قد مات فعلا ، إذن ينبغى أن نعلن معاً عن وفاته وأن نشارك معهم فى دفنه ، وتصبح الحرب بعد ذلك هى البديل الوحيد بعد مواراته التراب ! .

أو أن هذا السلام إنما يشكو فقط على فراشه من بعض العلل أو الجراح ، وهنا فأنه من الواجب التعاون بالصبر — بين الطرفين اللذين تصارعا طويلا بغير موقعة حاسمة — لمداواة علل هذا السلام ، وعلاج جراحه ، مهما بلغ من شدتها أو تعقيدها . . ؟

أو أن هذا السلام صحيح معافى ، إلا أنه فقط بطول الإهمال له ، والأعراض عنه ، سقط فى غيبوبة طويلة ، وأنه من الممكن ببعض المنبهات القوية ، والمنعشات الطبية ، إعادته إلى صحوته ووعيه ، حتى يباشر سيادة هذا الموقف الصراعى بين الطرفين باتجاه إنهاء العدوان ، والحرب ، والخصومة إلى أمد بعيد . . ؟

وعلى هذا فقد كانت نتيجة زيارة القدس فى مبادرة السلام للرئيس السادات أن تحققت أكثر الشعوب العربية ، وأكثر شعوب العالم ، أن احتمالات قيام « السلام العادل » لا تزال قائمة ، وأن حياة هذا السلام بعد المعالجات والمفاوضات محتملة . وكان أهم ما أثمرته هذه المبادرة أنها ألقت هذا الضوء الكاشف الشديد ، إلى زمن طويل ، وحتى اليوم ، على جميع هذه

« الأمراض النفسية الإسرائيلية » الوراثية والأسطورية ، والتى لايمكن أن يقبلها العصر ، أو أن يرضى بها العرب ، والتى تبرر ضد جميع حقوق الإنسان استمرار « التوسع » فى احتلال الأرض العربية ، وذلك فى إطار مخطط استعمارى استيطانى صهيونى عنصرى ، لانهاية لأطماعه فى اغتصاب الأراضى العربية ، من النيـــل للفرات . . أو من الخليج للمحيط ! !

كذلك فقد أفادت هذه المبادرة وهى تسلط أضواءها الكاشفة على جميع سرائر وظواهر الأطماع الإسرائيلية التوسعية على إيقاظ إرادةوقوة المقاومة العربية لتحرير أرضها المحتلة حتى آخر شبر منها ، بكل الوسائل ، ومع طول الزمن ، الأمر الذى لم يكن واضحاً للعرب بهذا الجلاء للخطر الإسرائيلى على حريتهم وبقائهم قبل هذه المبادرة . . فلقد مر وقت قبلها ، وفى عهد الثورة نفسها ، كان فيه بعض الأغرار والبلهاء من أدعياء العلم يقولون بعد نكسة سنة ١٩٦٧ تخفيفاً لأحزان مواطنيهم بسبب احتلال اسرائيل المفاجىء لسيناء : « وماذا فى سيناء نبكى عليه ؟. . أليست هى « شوية رمل » ! ؟

هؤلاء الجهلاء البلهاء عرفوا اليوم بعد مبادرة القدس أنه لاتفريط فى « حبة رمل » من سيناء ، التى هى بالنسبة إلى أمن المصريين الوطنى ، وإلى أمنهم الاقتصادى والغذائى مستقبلا ، بما فيها من موارد ثمينة فى باطن الأرض ، ومن مياه جوفية ، وفحم ، وبترول ، ويورانيوم ، وغير ذلك من النفائس — لاتقل فى بناء مصر عن نهر النيل نفسه . . !

كذلك فقد عرف المصريون والعرب أن مرتفعات الجولان السورية التى تشرف عسكرياً على دمشق وتهددها ، لايمكن التفريط فى شبر منها

أيضاً . وقبل ذلك فأن وطناً مستقلا للأخوة الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة هو الأساس الأول والمتين لأية تسوية . . أى لأى دبيب حقيقى للحياة فى كيان هذا السلام العادل المنشود . . هذا بينما القلب النابض لمبادرة القدس هو تحرير « القدس » العربية ، والمسجد الأقصى المبارك ، من استباحة وتهديد الصهيونية لها ، مهما كان ثمن هذا التحرير . . ومهما طال الزمن لإنجاز هذا التحرير . . ولا شك أنه بعد إعلان هذه الاتفاقات المبدئية بين مصر وإسرائيل عقب مؤتمر كامب ديفيد الذى انتهى فى ٨ سبتمبر ١٩٧٨ ، والتى كانت هى البداية لهذا التحرك الهادف المتواصل نحو الاتفاق الشامل ، فإن التوصل — آخر الأمر — إلى تحرير القدس العربية ، هدف هو من وجهة نظر الرئيس السادات ، وهو يمثل وجهة نظر مصر والأمة العربية — لا يمكن التخلى عنه .

السؤال الرابع :

« ما الذى تعلمه عن خطط الاستعمار الانجليزى الوحشية ضد سكان سيناء وقبائلها ، من أجل القضاء عليهم ، وتصفيتهم حتى يتم له تفريغ سيناء من المواطنين المصريين بها تمهيدا سابقا بعشرات السنين لاحتلال اليهود لها ؟

ثم كيف تنقض الحجج الملفقة تاريخيا والتى يتذرع بهـا اليهود فى دعاياتهم العالمية لاحتلال سيناء ، وهى الأدعاء بأن توراة موسى نزلت على أحد جبال سيناء الجنوبية فى الموضـع الذى يقوم عليه حاليا دير سانت كاترين ٠٠

أين نزلت توراة موسى ؟ ٠٠ ولمـاذا تصر الصهيونية العالمية على انكار الموضع الحقيقى الذى نزلت عليه ، على الرغم من أن القرآن الكريم ، والعهد القديم ، والتحقيقات العالمية ، عن طريق الخروج ، والبعيدة عن التمويل اليهودى تؤكد أنها لم تنزل على أى جبل من أرض سيناء المصرية ؟ »

الإجـابة :

فى الوقت الذى تعد فيه الأجهزة المسئولة فى مصر جميع الخطط والوسائل اللازمة لإعادة تعمير سيناء .. بعد تحريرها القريب إن شاء الله ـ تعميراً يعود بها إلى حياة العصر ، بكل ما تملكه من موارد ، وما تتسع له من عمران ، فإن البداية الطبيعية لهذا التعمير الذى نتجهز له بكل ما نملك من حقائق عن سيناء ، ومن قدرات لاستحيائها بعد مواتها الطويل .. هذه البداية هى أن ينظم المسئولون ، والعلماء الخبيرون بسيناء ، حملة إعلامية

واسعة النطاق ، ومستوفية التشويق ، لاستيفاء « تعمير » فكر وذاكرة المواطن المصرى بخاصة ، والفكر العربى بعامة ، بكل الحقائق والمعلومات وبكل البيانات والخرائط عن الموارد والخصائص ، التى تتمتع بهـا سيناء المصرية الغالية ، التى تتميز عن كل أقاليم مصر فى الوادى الخصيب بأنها الحصن المنيع للدفاع عن هذا الوادى ، وبأنها المنجم الغنى بموارد الطفرة الاقتصادية فى مجال تقدم ورخاء وحضارة مصر ، فضلا عن أن سيناء منذ فجر التاريخ كانت هى طريق الهجرات العربية التى نشأ منها الشعب المصرى منذ الملك مينا موحد القطرين ، والذى قدم أجداده إلى مصر فى موجة هجرة عربية عن طريق سيناء وبرزخ السويس ..

عزلة سيناء :

لقد بلغت عزلة سيناء عن الفكر المصرى المعاصر ، وعن شواغل حياة كل يوم فى اهتمامات المصريين قبل نكسة ١٩٦٧ — سواء فى الكتب أو الصحف ، حدا بعيداً ، وذلك منذ بادر الإنجليز إلى إدارتها بطريق مباشر بعد إحتلال مصر سنة ١٨٨٢ . بحيث إنه لم يصدر طوال فترة الإستعمار وحتى عام النكسة من الكتب المهمة عن سيناء إلا كتاب نعوم شقير الذى أصدره سنة ١٩١٥ باسم « تاريخ سيناء » وهو من رجال المخابرات الإنجليزية ، وكان هدفه الأساسى ترويج أكثر الأكاذيب التاريخية التى أراد الإستعمار الإنجليزى ترويجها عن سيناء لصالح أهدافه الأساسية فيها ، وهو إعدادها — بعد تفريغها من سكانها البدو المصريين والحضر لاستقبال الإحتلال الصهيونى لفلسطين وسيناء بغير مقاومة ..

ولقد ظهر بعد ذلك للرد على مفتريات هذا الكتاب كتاب قيم عن سيناء للمؤرخ عباس عمار صدر فى الثلاثينيات بعنوان « المدخل الشرقى

لمصر » وقد خصصه لتأصيل العلاقة السلالية بين قبائل سيناء وسكان مصر في مديرية الشرقية وغيرها ..

وأما فى الصحف فلم يرتفع فيها قبل الثورة صوت عن سيناء إلا صوت واحد، قوى، ونادر فى علمه ومثابرته، وهو صوت أحد أبنائها العالم الجيولوجى محمود درويش الفار الذى ظل طوال الثلاثينيات — وقبل إعلان قيام دولة إسرائيل — ينادى بإنقاذ سيناء من جرائم الإنجليز ضد سكانها ، الذين استهدفت تجويعهم ، وتجهيلهم ، وتفريغ بلادهم منهم ، إعداداً لاستقبال العدو الصهيونى ، الذى كان من المؤكد لولا ما جرى على هذه القبائل من عمليات القتل العمد ، والنشط ، أن يواجه هذا العدو المستهتر — قوة عربية ضاربة ، وقادرة على جميع صور القتال الإنقضاضية ، والتعويقية ، والمباغتة ، فوق أرض سيناء المليئة بالقمم ، والمضايق ، والمتاهات ، التى يعرفها أهل سيناء شبراً شبراً ، والتى لا يستطيع العدو مهما كانت أسلحته الحديثة ، أن ينجو من ضربات هذه القوة البدوية ، المنتشرة فى أماكن متعددة ، بالقدر الذى يثخنه بالجراح ، ويمهد لهزيمته ، وانسحابه ، وربما قبل تدخل القوات النظامية لجيش مصر لمواجهة هذا العدو . . .

هذه العزلة الفكرية داخل مصر ، والوطن العربى ، عن سيناء المصرية قبيل اغتصاب الصهيونية العالمية ، كانت تخيم على بلادنا ، بينما كانت الكتب ، والنشرات ، تنتشر بكل اللغات فى أوروبا ، وباللغة العبرية ، كأنها الوباء ، حاملة إلى الرأى العام العالمى فى صور حقائق لا يرتقى إليها الشك — أغرب الأطماع والمزاعم والأكاذيب من وجهة النظر الصهيونية تجاه فلسطين وسيناء ، مزودة بهذه الإضافات الصهيونية

المتعالية ، والهستيرية ، فى تحقير وسباب العرب ، والتهوين من شأنهم وتصويرهم وهم آباء كل الرسل وكأنهم شعب أبله ، بلا جذور ، ولا أخلاق ، ولا وعى ، ولا قضية ، ولا أمل فى البقاء . . ! !

عزل سيناء :

كانت المهمة الأساسية للإنجليز فى احتلالهم مصر — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هى تفريغ سيناء من سكانها البدو ، المهيئين بحرية حياتهم ، وسرعة حركاتهم ، وطبيعة تسلحهم ، للقدرة الفائقة على القتال ، كما عرف وتحقق من هذه القدرة القتالية للبدو عدد كبير من قادة الجواسيس الإنجليز الذين مثلوا بكل الخداع المكشوف دور الأصدقاء للعرب ، وللبدو ، من أمثال لورنس ، وجون جلوب ، وكلايتون ، وبراملى ، وغيرهم كثيرون ، ولذلك فقد كان واضحاً للإنجليز أن مهمتهم الأساسية فى سيناء منذ أنشأ كرومر مصلحة الحدود هى تحقيق السيطرة على الصحارى المصرية ، ومن بينها شبه جزيرة سيناء ، لعزلها عن مصر ، وقد بدأوا بإغلاق أبواب سيناء أمام أبناء وادى النيل ، وذلك بمنعهم من العبور إليها لمصالح تجارية ، أو روابط عائلية ، إلا بتصريح من الحدود التى كانت خاضعة للإنجليز خضوعاً مباشراً ، مثل هذا التصريح لم يكن يحصل عليه غير البعثات القادمة من أوروبا لخدمة الأهداف الصهيونية ، وغير العملاء للإنجليز من هنا أو هناك على قلتهم ، وكان بعضهم من يهود مصر .

وعقب هذه الخطوة لعزل أبناء وادى النيل عن سيناء ، بدأ الإنجليز بوضع أمرها إلى الحكم الإنجليزى العسكرى المباشر ، وذلك بتعيين أحد ضباط المخابرات الإنجليزية وهو كولونيل باركر ابن أخت الاستعمارى

المعروف كتشنر حاكماً لسيناء سنة ١٩٠٦ ، ومن بعده فيما عدا فترات الحرب الكبرى حكمها الإنجليزى جارفس ، ثم همرسلى الذى ظل حاكماً لها حتى سنة ١٩٤٦ ، حيث عادت سيناء للسلطات المصرية . .

تحت هذا الحكم العسكرى الإنجليزى ، والذى لم يكن أكثر من أداة طيعة ، وعصا غليظة فى يد الصهيونية العالمية ، توجهت كل أعمال هذا الحكم الغاشم إلى عزل أهالى سيناء نفسياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، عن إخوانهم من سكان وادى النيل . . !

التجويع والقهر :

ولقد كان المخطط الإنجليزى الصهيونى لتجويع بدو وسكان سيناء بكل مافيه من البشاعة والوحشية ، مخططا معداً ليسير فى شعاب متعددة لضمان تحقيق أكثر من هدف بالتركيز على هدف واحد .

لقد كانت هذه البقية الهزيلة العجفاء من عرب سيناء التى شاهدتها فى سيناء فى أحد أسفارى إليها ــ وهى ثمرة واحدة من أكبر الجرائم الإنجليزية والصهيونية فى هذا العالم . وهى جريمة التجويع والقهر على أكثر من طريق ألخصها فيما يلى : !

أولا ــ وضع التموين فى أيدى تجار عملاء للإنجليز من بعض اليهود وبعض اليونان فى مدينة الطور ، وهؤلاء كانت مهمتهم ثلاثية بحسب المخطط الإنجليزى الصهيونى ، وهى :

(١) تقليل الموارد الغذائية إلى أقل حد ممكن ، وأهمها الأذرة ، والدقيق ، والسكر ، وبذلك لا تنال أى أسرة إلا ما هو أقل من الكفاف لحياتها ، مع أن البدوى كان أحيانا يقطع الطريق من موقعه فى

شبه الجزيرة ، إلى مدن التموين ، مثل الطور ، والعريش ، فى نحو عشرة أيام على الأبل !

(ب) كان هؤلاء التجار العملاء يحصلون مقدما من رؤساء العائلات الذين لهم بطاقات تموينية وتتعامل معهم على « أختامهم » التى كان يستخدمها هؤلاء التجار فى تسجيل حسابات وهمية عليهم ، تنتهى بأن يجد العرب أنفسهم بعد بضع سنوات مدينين بمبالغ لاطاقة لهم بسدادها لهؤلاء التجار والعملاء القساة !

(ج) الحل السعيد لهذه المشكلة هو أن يسدد البدوى دينه لهذا التاجر العميل ببيع ما يملكه من نخل ، فى أى مكان من أرض الجزيرة ، وبالضرورة فإن من كان يملك النخل ، فإنه يملك الأرض التى يقوم عليها هذا النخل . . وبذلك أمكن تجريد عدد كبير من البدو من أحد مصادر غذائهم الرئيسى وهو التمر ، فضلا عن حصول عملاء الإنجليز والصهيونية على مساحات واسعة من الأرض تحمل أوراقها أختام وشهادات شيوخ العرب !

ثانياً — تشجيع البدو — مع شدة الجوع — وبخاصة من يعيشون منهم بقرب السويس أو القنطرة — على إحراق أشجار المراعى الأساسية عندهم مثل « الرتم » و « الطرفاء » وذلك لصناعة نوع من الفحم الصناعى يسمونه « الهبش » لكى ينقلوه إلى السويس أو الإسماعيلية لبيعه بأرخص الأثمان ، وذلك للحصول فى مقابل ثمنه على حاجتهم العاجلة من الدقيق أو الحبوب .

ثالثاً — عندما انتهى الهبش ، وزاد تضييق التجار العملاء على هؤلاء البدو الجياع فى كميات التموين التى يبيعونها لهم ، وبخاصة بعد بيع ما كانوا

يملكونه من النخيل ، فلم يبق لأحدهم حتى يعيش غير جمله ، وبندقيته ، وعدد هزيل من الغنم والماعز — بدأ تحريض الإنجليز السافر والخفى ، ومن طريق قوات الأمن التى اصطنعها الإنجلـيز من بعض من يسمونهم بالنخلاوية نسبة إلى مدينة أوقرية نخل ، وغيرهم ، أقول بدأ تحريض الإنجليز بواسطة غواية بعض أفراد هذه القرات ، لعدد من البدو الشباب الذين تمردوا على الجوع ، لكى يقبلوا نقل « المخدرات » القادمة من مصادر صهيونية فى فلسطين قبل وبعد احتلالها ، على جمالهم ، وهم مسلحون بأسلحتهم ، إلى أحد مرانئ سيناء ، لتنقلها المراكب الشراعية إلى مصر ، وبذلك يتحدد مصير هؤلاء « المهربين » فى نهاية من هذه النهايات الحتمية الثلاث :

(أ) أن يتعرض المهرب للقتل فى معركة مع قوات الحدود التى تكافح التهريب وبذلك ينقص عدد أهل سيناء واحداً مع أسرته .

(ب) أن يتم القبض على المهرب فيقضى عمره فى السجن ، وبذلك ينقص أيضا عدد سكان سيناء واحداً مع أسرته

(ج) أن ينجح عدد من المهربين — ممن تعاونهم السلطات الخاضعة للمخطط الصهيونى لتشجيع التهريب — فى جمع ثروات طائلة ، تفتن هؤلاء البدو الجياع اللاهثين من الفقر ، والبطالة ، والانقطاع عن المرشد الأمين . وبذلك فإن هذا المهرب الغنى لايلبث أن يجمع ثروته ، وأسرته ، ويشد رحاله ، نازلا إلى وادى النيل ليعيش فى خوف مستمر ، وابتزاز من الجميع ، حتى يفلس ، أو يكتشف طريقة للتكيف . .

ولـكن المهم أن سيناء تكون قد ألقت خارجا عنها واحدا من أبنائها مع أسرته . . وأقربائه . . ومعاونيه !

(د) وبظهور « تهريب المخدرات » فى سيناء بعد الجوع القاتل ، وانتهاء تجارة الهبش ، ووقوع الأرض والنخل فى أيدى التجار العملاء فى مدن التموين ، تحققت للصهيونية الأهداف التى تعتبرها غنائم جانبية لعملية « التجويع والقهر » وهى نقل أموال مصرية إلى اليهود ثمناً للمخدرات ، وذلك فى مقابل نقل سموم صهيونية إلى المصريين ، مع انتشار ما هو مطلوب لزيادة التعقيم والعزل لأهل سيناء عن إخوانهم من أبناء وادى النيل ، وذلك بسبب سوء السمعة الذى شمل بسبب عدد قليل من المهربين جميع الشرفاء الأبرار شديدى الولاء لوطنهم مصر وهم غالبية « عرب سيناء » من البدو والحضر !

الفراغ الرهيب :

وحتى يتحقق القارىء المعاصر من هول هذه الجريمة البشعة التى انتهت إلى هذا الفراغ السكانى الرهيب فى سيناء ، وذلك من طريق تجويع بدوها وسكانها ، ثم من طريق قهر القلة من شبابهم المتمردين على الفقر على تهريب المخدرات ، وذلك حتى يتيسر فى الموعد المحدد اجتياحها بقوات المخططين لاغتصابها من أقطاب الصهيونية العنصرية العالمية أقدم بإيجاز هذه الحقائق والمعلومات التى تصور ما آلت إليه سيناء الغالية بسكانها ، وموقعها ، ومواردها ، على مصر والعرب جميعاً ، بعد هذه الجريمة الإنجليزية الصهيونية البشعة .

أولا — حقيقة أن مساحة سيناء تبلغ ٦١ ألف كيلو متر مربع ، أى إن

مساحتها تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة الدلتا ، ومع ذلك فإن معدل الكثافة السكانية متفاوت بينهما إلى حد بعيد ، وغير معقول ، أى إلى حد يتجاوز المعروف من نسبة الفارق السكانى بين الأراضى الصحراوية والأراضى المنزرعة .

ثانياً— نذكر أنه فى إحصاء سنة ١٩٤٧ بعد انهاء الإدارة الإنجليزية لسيناء كان عدد سكانها — وهو رقم مبالغ فى ارتفاعه رغم ضآلته — هو ٣٨ ألفا بكل ما فيها من البدو والحضر ، بينما بلغ سكان الدلتا — وهى ثلث مساحة سيناء — ١١ مليونا وأكثر قليلا من نصف المليون من السكان . . !

ثالثاً— نذكر أنه فى إحصاء سنة ١٩٦٠ كان عدد سكان سيناء بما فيهم من سكان المدن البترولية والتعدينية ٥٠ ألفا ، بينما أصبح سكان الدلتا فوق ستة عشر مليونا . . !

رابعاً — نجد فى إحصاء سنة ١٩٦٦ وقبل النكسة بعام واحد ، وحيث حدث بعض النشاط العسكرى فى سيناء ، أن عدد سكانها أصبح ١٣١ ألفا ، بينما أصبح عدد سكان الدلتا تسعة عشر مليونا وأربعمائة ألف مواطن . .!

إن هذه المؤشرات الاحصائية كما يقدمها الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء لاتؤكد فقط أن سيناء كما أصبحت بمخططات الإنجليز والصهيونية العنصرية العالمية هى « الأرض الخراب » بالنسبة للمصريين ، وانتظاراً لإسرائيل — التى استثمرت بالفعل عند قيام دولتها هذا الخراب المروع — ولكنها تؤكد أيضا أن مستوى هذا الفراغ الرهيب فى سيناء — رغم مدنها البترولية ، والتعدينية فى الجنوب ، ورغم مدينتيها الكبيرتين

فى السهل الشمالى وهما العريش ورفح — قد نزل عن مستوى غير المعمور من صحارى مصر، مثل صحراء البحر الأحمر، والوادى الجديد، ومرسى مطروح ، كما ورد فى دراسة جادة لأحد محافظى سيناء بعد الثورة ، أى أن هذا المستوى نزل عن مستوى ثلاثة أفراد لكل كيلومتر مربع من الأرض — إلى ما يساوى فى المعدل نحو فرد واحد فى كل عشرة من الكيلومترات المربعة فى سيناء !!!

لا شك أن تفريغ سيناء من سكانها بهذا الانخفاض الرهيب هو فاجعة ، وجريمة سوداء فى تاريخ الصهيونية والاستعمار الأوروبى ، وهذه الفاجعة أو المأساة القومية ، والعربية ، يمكن أن تظهر فى حجمها الحقيقى المروع إذا أمكن أن نتذكر — من الكثير الذى لا يزال المصريون والعرب المعاصرون يجهلونه عن سيناء الغالية — أن عدد سكان سيناء بلغ فى العهد الرومانى بضعة ملايين من العرب، كان من بينهم إذا ضممنا إلى سيناء وادى العربة دولة عربية مستقلة فى « البتراء » ، وقد ظل عدد السكان فى سيناء يمثل هذه النسبة العـــددية الكبيرة حتى زمان طويل بعد التحرير العربى بالإسلام من نير الروم والفرس ، حيث عاشوا يستثمرون موارد سيناء من المعادن والزراعة ، وطرق التجارة ، أفضل استثمار . .

على أنه مهما كان الأمر فإن هذه الصورة الأليمة والفاجعة كانت أحد الحوافز القوية التى تعززت بها كل قوى شعبنا نحو السلام العادل ، أو الحرب التحريرية الحتمية ، من أجل تحرير سيناء مع بقية الأرض العربية المحتلة بعد سنة ١٩٦٧ ، ومن أجل تعميرها . . ومن أجل التكفير عن كل ما أكرهنا عليه الاستعمار من عزلنا عنها ، وعزلها عنا . . سنوات أليمة طويلة . فكان انتصار رمضان المجيد، وما بعده من جهود وإنجازات مبادرة السلام للرئيس السادات .



بعثات مشبوهة :

وفى الاعداد لاحتلال سيناء بتفريغها من سكانها العرب كان النشاط العدوانى الصهيونى الأوروبى يواصل من جهة أخرى ملاحقة سيناء بالبعثات المشبوهة ، الفردية والجماعية ، وذلك كعادته لتحقيق أهداف متعددة على طريق استهدافه هدفا واحداً يستوعب الاهتمام الظاهر به ، وهو نشر مجموعة من المؤلفات الدعائية فى أوروبا عن « الحق المقدس » لليهود فى اغتصاب سيناء مع فلسطين ؛ وأن هذا الاغتصاب يجب أن تعده أوروبا عملا «إنسانيا» تماما ، وأن تسربوقوعه كثيراً لأنه سيحقق لها فتح الأراضى العربية وخيراتها للأوربيين ، كما أن هذا الأمر — وهو مسألة وقت فقط — لن تكون له أية نتائج خطرة بالنسبة لمقاومة العرب لهذا « الوجود الإسرائيلى » الحتمى .. لأن العرب — كما تحكى هذه البعثات الصهيونية المشبوهة ، أو الأفراد العملاء لهم فى كتبهم — ليسوا « شيئاً » يقام له أى وزن .. ونذكر من هؤلاء تلك الجماعة الصهيونية التى تسمت باسم « الحلف المدرسى لمكافحة العداء للسامية » والتى زارت سيناء وكتبت عنها سنة ١٨٥٦ .

هنرى بالمر :

وإذا تجاوزنا فى الحديث بعد ذلك عن الصهيونى الروسى ليون بنسكر الذى دخل سيناء سنة ١٨٨٢ فى بعثة لجمع المعلومات ، بعد أن أصدر كتابه « التحرر الذاتى » للتحريض على بناء التنظيم الصهيونى باتجاه اغتصاب فلسطين ، والسيادة على العالم ، وبعد أن أقام مخيما بها لرسم الخرائط ، وجمع المعلومات ، فى مكان لا يزال معلوماً باسمه حتى اليوم ، فما ذلك

إلا لنذكر مغامراً صهيونياً آخر ، حمله الإغترار الشائع بين الصهاينة بسماحة البدوى ، على أن يتصور إمكان استدراج هذه السماحة — بمفهوم البلاهة — إلى عمل من أعمال الخيانة الوطنية . هذا المغامر الإنجليزى الجنسية ، والصهيونى السياسة والأهداف : إسمه هنرى بالمر ، وقد دخل إلى سيناء فى نفس السنة التى دخل فيها بنسكر ، وهى سنة ١٨٨٢ ، وذلك بعد أن تنكر فى هيئة ولباس رجل مسلم عربى إسمه « الشيخ عبد الله » يلبس العباءة والعقال .. !

* دخل بالمر إلى سيناء تحت عنوان تاجر يريد أن يشترى جمالا لحساب الجيش الإنجليزى ، وكان فى حاشيته كل من البحار الإنجليزى تشارنتون، والمترجم السورى خليل عتيق ، والطباخ اليهودى بخور حسون . وأما الهدف الحقيقى للحملة فكان محاولة « تهدئة العربان » حتى لا يشاركوا فى الثورة العرابية التى كانت ناشبة فى ذلك الوقت ، والتى خشى الإنجليز بعد أن علموا بمؤازرة عربان سيناء لها — أن يقوموا بعمل وطنى إيجابى مثل سد القناة أمام سفن الأسطول الإنجليزى التى كانت تحمل المهمات العسكرية العاجلة من الهند باتجاه الإسماعيلية والتل الكبير لمحاصرة قوات عرابى . وكان فى رحال بالمر لهذه المهمة «رشوة» لهؤلاء العرب قدرها عشرون ألف جنيه ذهبى ، هى عند الإنجليز ثمن ولاء أهل سيناء لوطنهم ، وحرية بلادهم !

ولكن مبعوث الإستعمار والصهيونية لم يلبث بعد أن عرف عرب سيناء مهمته أن عوقب وجميع رفاقه بالقتل ، واهتز الإنجليز كثيراً لهذا الحادث فأرسلوا إحدى سفنهم الحربية إلى الطور حيث عملوا على اختطاف عدد من أهالى سيناء الذين أبلغ عنهم جواسيسهم من اليهود واليونان

المقيمين باسم التجارة فى بلدة الطور ، وبعد محاكمة صورية فى طنطا تم قتل هؤلاء المواطنين الشرفاء بتهمة السرقة ، وليس بالتهمة الحقيقية وهى الولاء للوطن .. مصر !

على أن الحقيقة التى لا يمكن أن تخفى يعلنها أحد رجال المخابرات الإنجليزية وهو نعوم شقير فى كتابه « تاريخ سيناء » ، ودون أن يدرى ، وذلك حين يتحدث عن وقائع مساندة عربان سيناء للثورة العرابية ، فيروى كيف أنهم هجموا فى مجموعات كبيرة على بلدة الطور لقتل جميع أعوان الإنجليز بها من اليهود والأجانب لولا أن الشيخ موسى بن نصير كبير مشايخ سيناء الجنوبية حال بنفسه بين هؤلاء الثائرين مع عرابى وبين هدفهم ، قائلا لهم : لن تمروا إليهم إلا على جسدى ! .. وهكذا نجا هؤلاء الخونة من مصير بالمر ورفاقه بسبب خوف الشيخ موسى ابن نصير ، وحذره من النتائج قبل أن تتضح المواقف بالنسبة لما بين عرابى والإنجليز ..

إمارة سيناء :

وكان لابد للانجليز من أن يسفروا بوجوههم آخر الأمر بحكم سيناء وذلك حتى يحققوا مخططهم الإستعمارى الصهيونى بتجويع وقهر سكان سيناء — جنوبها وشمالها — وتفريغها من أهلها بالموت العاجل بأمراض الجوع المتنوعة ، تمهيداً لاحتلال اليهود لها ، وإضعافاً لولاء هؤلاء المواطنين الشرفاء لوطنهم مصر . وعلى ذلك فقد عينوا الكولونيل باركر سنة ١٩٠٦ محافظاً لسيناء — كما أشرنا — وكان باركر ، الذى هو أحد رجال المخابرات الإنجليزية ، يحمل فى جرابه مشروعاً «حاسماً» من وجهة نظره ، ونظر رؤسائه ، وهو التوصل بكل وسائل الإغراء والغواية والإرهاب إلى أخذ إجماع مشايخ

سيناء على تحويل بلادهم إلى إمارة تابعة للانجليز ، ولكنها تتمتع مع هذه التبعية بقدر من الإستقلال الذاتى ، ويتولى أمرها « أمير » من العرب ، مثل إمارة شرق الأردن ، وتسمى « إمارة سيناء » !

على أن جميع وسائل ومخادعات وترويضات باركر لم تحقق أى نجاح لهذه المؤامرة الاستعمارية الصهيونية ، فقد أجمع شيوخ القبائل جنوباً وشمالا ووسطاً — رغم القهر والجوع وقلة العدد — على أن يحتفظوا بقوة وأصالة روابطهم الوطنية والتاريخية بإخوانهم فى وادى النيل، ورفضوا أى مناقشة حول هذا المشروع المؤامرة !

ولقد حدث بعد تعيين باركر محافظاً لسيناء ، وبعد فشل مشروع إمارة سيناء ، أن قامت الحرب العالمية الكبرى ، وهنا فوجىء باركر للمرة الثانية بأن البدو قد اشتركوا مجاهرة فى هذه الحرب إلى جانب الأتراك بتأثير العاطفة الدينية ، بل إن عدداً من البدو ساروا إلى مؤسسات الشركة الإنجليزية للمنجنيز فى أبو زنيمة فأحرقوها . . !

وكان كل ماستطاع أن يواجه به باركر هذا الموقف المستعصى على كل خبراته الصهيونية الاستعمارية هو أن يجمع شيوخ العرب — بعد انتصار الحلفاء — إلى جلسة « حق عرب » ، وذلك حيث جلس معهم على الأرض ليشرب معهم القهوة — على طريقة جون جلوب — ثم يطلب مقاضاتهم عرفياً على موقفهم من مساندة الترك وخذلان الإنجليز فى الحرب العالمية الأولى !

وفى هذه الجلسة لم يتردد العرب من أبناء اسماعيل أن يردوا على عميل الاستعمار والصهيونية بالموافقة على تعويضه عن خسائره — نيابة عن انجلترا

بعدد كبير جداً من الإبل يصل إلى حد الرضى والقناعة للإمبراطورية . .
وبالطبع كان لزاماً على باركر بالأسلوب اللورنسى أن يتنازل عن جميع حقوق الإنجليز وأن يحتفظ بها . . إلى « غلطة أخرى » . . حسب ، مصطلحات القضاء العرفى ! !

أين نزلت التوراة :

والآن إلى الجزء الأخير والهام من هذا السؤال وهو موضع نزول التوراة . .

لم يكن هناك خلاف قط بين اليهود ولا النصارى ولا المسلمين على موضع نزول التوراة ، فوق الجبل المسمى بجبل الرب ، أو جبل حوريب عند اليهود والمسيحيين ، أو جبل طور سينين كما جاء به نص القرآن الكريم للمسلمين : فلم يبدأ الخلاف إلا عندما حدث بعد اشتداد الاضطهاد الرومانى للمسيحيين فى مصر والشام والأردن ، وبعد سقوط البتراء سنة ١٠٦ ، وفرار عدد كبير من الرهبان ومنهم من كانوا على طريق الخروج لبنى إسرائيل عند أيلة ، أو من كانوا بالبتراء ، إلى داخل سيناء الجنوبية وقد حملوا معهم إلى بعض الجبال التى استقروا عليها داخل سيناء المصرية الجنوبية نفس الأسماء التى عادوا بها من مواقعهم الأولى قرب جبل التوراة فى مدين ، ومن ذلك تسميتهم وادى الدير باسم وادى فاران ، وفاران نفسها هى أيلة التى عاشوا قريبا منها ، وكذلك تسميتهم أحد جبال سيناء الجنوبية والواقع على مسافة ستين كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من مدينة الطور باسم جبل طور سيناء ، الذى يزعمون أنه الجبل المعروف فى التوراة باسم جبل حوريب أو جبل الله . وكذلك تسميتهم لجبل مجاور له باسم جبل المناجاة ، وكما أطلقوا على جبل ثالث قريب منهما وقد أقيم عليه دير سانت كاترين المصدر الأول لهذه التسميات – باسم جبل سانت كاترين . مع أن المعروف

فى التوراة أن جبل الرب حيث كلم الله موسى أول مرة بينما كان يرعى غنم حميه كاهن مدين لابد وأن يكون فى مدين ، لأن موسى بحكم الحق والواقع والمألوف لا يمكن أن يرعى غنم حميه على مسافة تزيد عن ٢٠٠ كيلو متر مجتازاً هضبة التيه ليصل إلى الجبل المزعوم داخل سيناء الجنوبية الجرداء أنه « جبل موسى » .. ثم يعود ليبيت وسط أهله كل يوم ! !

إذن فهذا الخلاف المبتدع نتج عن أهداف ساذجة عند رهبان دير سانت كاترين ، أو لأسباب صهيونية حديثة ظهرت من بدايات القرن الثامن عشر باتجاه العودة لاغتصاب سيناء وفلسطين ، وتبرير هذا الاغتصاب بأن التوراة نزلت فى قلب سيناء المصرية ، على جبل من جبالها إسمه جبل طور سيناء ؛ وجبل ثان إسمه جبل موسى .. وجبل ثالث إسمه جبل المناجاة .. وجبل رابع كما يؤكد الرهبان أيضاً هو جبل الصفصافة ! !

ومما نسوقه لتأكيد أن هذا الخلاف على مكان الجبل فى مدين مبتدع ما جاء فى القاموس المحيط للعالم اللغوى أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادى من علماء القرن الثامن الهجرى من قوله فى معنى كلمة «الطور» : « والطور أيضاً جبل قرب أيلة يضاف إلى سيناء أو سينين » .. إذن معنى قرب أيلة أنه قرب العقبة ، أى إنه فى أرض مدين كما هو الأمر الواقع ..

فى القرآن الكريم :

هذا وفى القرآن الكريم إشارة مجازية تبلغ حد النص الصريح على مواقع الجبال التى نزلت عليها كتب الله الثلاثة وهى القرآن والإنجيل والتوراة ، والتى تقع جميعها فى آية من آيات الله على خط واحد من سلسلة جبال الشراة ، داخل الوطن العربى مهد الدين ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة التين :

« وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » .

التين : الآيات ١ إلى ٣

فالتين والزيتون يعنيان بلاد التين والزيتون ، أى فلسطين كما هو اسمها عند العرب القدماء ، وذلك إشارة إلى نزول الإنجيل . وطور سينين هو الجبل الذى يقع إلى الجنوب الشرقى من العقبة بين مجموعة من الجبال البركانية التى كانت ثائرة قديماً ثم هدأت ، وذلك فى أرض مدين على نفس خط جبال الشراة التى تفصل الحجاز عن سهل تهامه وشاطئ البحر . وهذا البلد الأمين هو مكة كما هو ظاهر ، حيث نزل على جبل حراء أول الوحى بالقرآن الكريم .

وفى نصوص التوراة :

ونكتفى فى تعزيز ما سبقت الإشارة إليه من كلمات التوراة التى تؤيد بكل وضوح أن جبل حوريب ، أوجبل الرب ، أو جبل التوراة ، فى مدين ، أن نذكر من أول الأصحاح السابع عشر من سفر الخروج ما يأتى :

« ثم ارتحل كل جماعة بنى إسرائيل من برية سين بحسب مراحلهم على موجب أمر الرب ونزلوا فى ريفيديم » وجاء فى نفس الإصحاح :

« وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى ريفيديم فقال موسى ليوشع ، إنتخب لنا رجالا وأخرج حارب عماليق » .

أما ريفيديم فهى تعنى بعبرية اليهود جبل الرافد ، والوادى المسمى باسمه ، والذى يقع بعد مرحلة من السير من أيلة ، أو مدينة العقبة ، باتجاه أرض مدين . . فهل تعنى هذه الكلمات التى أوردناها من نصوص التوراة أن بنى إسرائيل كانوا يملكون من الشعور بالإستقرار

وقوة التجمع ، ما يسمح لهم بقتال « العماليق » والانتصار عليهم ، فى أرض مصر .. وقبل أن ينجزوا فرارهم من قوات فرعون التى انطلقت وراءهم لتطاردهم ، مع القبائل الموالية فى سيناء .. ؟ ! !

وهل يقول التاريخ الأمين بحقائقه إن « العماليق » الذين حاربهم اليهود بقيادة يوشع ، وبتشجيع ودعاء موسى كانوا فى أرض سيناء .. حيث كان اليهود عند جبل « الصفصافة » ينتظرون نزول كلام الله فى التوراة ! ! ؟

أم إن العمالقة كما يعلم كل قادة الصهيونية المعاصرة كانوا بنص التوراة يسكنون الجزء الجنوبى من فلسطين ، وأنهم ليسوا فى سيناء المصرية ، وليسوا من المصريين ، وذلك كما جاء فى الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين حيث يقول :

« ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التى هى قادش ، وضربوا كل بلاد العمالقة ، وأيضاً الأموريين الساكنين فى حصون تامار » ! !

فكيف إذن يكون جبل التوراة هو أحد جبال سيناء المصرية .. ولا يكون كما هو بقوة هذه النصوص . إن كانت صحيحة عندهم — فى موضعه إلى الجنوب الشرقى من العقبة ، على أرض مدين فى شمال الحجاز ! ؟

جبل التوراة بتحقيق العلماء :

ما بين سنتى ١٨٩٦ و ١٩١٥ قام أحد العلماء المسيحيين ، المحققين ، والمتخصصين فى دراسة الحضارة العربية الأولى بعدة رحلات كشفية إلى البلاد العربية لإنجاز هذه الدراسة التاريخية ، فى ضوء التفهم الدقيق للبيئة الجغرافية التى ازدهرت فيها ، وبتأثيرها ـ مراحل هذه الحضارة ، وهو العالم ألويس موسل أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة براغ . وقد تركز اهتمام هذا العالم بمنطقة شمال الجزيرة العربية ، حيث اقتضاه هذا

الإهتمام قيامه بارتياد هذه المنطقة بنفسه ، وتخطيط خريطة لها سجل عليها كل ماوصل إلى علمه من أسماء الأعلام والأماكن ليستعين بها فى تعيين مواضع الأعلام التى وردت فى نصوصه التى جمعها .

وقد بدأ موسل رحلاته هذه بارتياد الجزء المعروف باسم « البتراء » أو بلاد العرب الحجرية ، ثم قصد إلى الشام وتدمر بعد ذلك ، ثم ارتاد بعد ذلك الجزء الشمالى من الحجاز .

وقد اهتم الدكتور عبد المحسن الحسينى من بين علمائنا المصريين بهذه الأبحاث التاريخية للعالم التشيكى ألويس موسل ، بسبب تحقيقاتها العلمية الفريدة من خلال الرؤية والمطالعة والمقارنة الجغرافية لمؤلفها ، فقام بترجمة هذه الأبحاث فى أجزاء منفصلة ، بادئاً بأبحاث وتحقيقات موسل فى شمال الحجاز . ومن هذا الجزء القيم الذى ترجمه الدكتور الحسينى وهو « شمال الحجاز » ننقل للقارئ خلاصة ما توصل إليه هذا العالم المتخصص عن الموقع الحقيقى لجبل حوريب ، أو جبل الرب ، أو الجبل الذى نزلت عليه التوراة ، والذى قام بالتحقق منه بشخصه ، بتتبع طريق خروج بنى إسرائيل من مصر ، إلى أن تحقق له أن هذا الجبل — بمالا يتناقض مع القرآن الكريم ، ولا مع أسفار بنى إسرائيل — يقع فى أرض مدين إلى الجنوب الشرقى من مدينة العقبة بنحو ٢٥ كيلومتراً .

طريق الخروج :

يقول موسل فى كتابه عن « شمال الحجاز » من تحقيقه لطريق خروج بنى إسرائيل من مصر ، وتحت هذا العنوان فى ترجمة الدكتور الحسينى .
« طريق الخروج من مصر إلى جبل سيناء أو حوريب » :

« لما فر بنو إسرائيل من مصر حاولوا أن ينجوا سريعاً من المنطقة التى يمتد إليها نفوذ مصر السياسى . وكانت وجهتهم منطقة تتوفر لهم فيها أسباب « الأمن » الذى ينشدونه ، كما يتوفر لهم فيها ما يحتاجون إليه من المطالب الضرورية وهى الطعام والمرعى . وكان يشترط فى مثل هذه المنطقة أن تكون غنية بمائها ومراعيها ، وقريبة من طريق رئيسى للقوافل ليستطيعوا أن يجلبوا ما يحتاجون إليه عن طريق القوافل التى تمر بهـــذا الطريق » .

ثم يقول موسل :

« وكان موسى على علم بمنطقة تتوفر فيها جميع هذه الشروط . تلك هى أرض مدين التى كان قد لجأ إليها قبل ذلك ، والتى كان يقيم بها حموه كاهن مدين ، فيستطيع أن يلتمس فى شخصه حامياً له ولقومه من بنى إسرائيل . لذلك قاد موسى بنى إسرائيل إلى أرض مدين مباشرة إلى جبل الرب حيث تجلى الله له » .

ثم يقول موسل :

« ووفقاً لما ورد فى سفر الخروج « ١٥ : ٢٢ » فإن بنى إسرائيل قد ارتحلوا عن مصر عن طريق العبور فى بحر سوف« البحر الأحمر » حيث غرق فرعون ، ثم تابعوا سيرهم فى برية شور فساروا ثلاثة أيام دون أن يجدوا ماء حتى وصلوا أخيراً إلى « مارة » كما جاء فى سفر الخروج « ١٥ : ٢٣ » حيث وجدوا الماء وإن يكن مراً زعاقاً » . . ثم يقول :

« وإذا تصورنا أن قبيلة كبيرة تلتمس اليوم طريقها للفرار من وجه حكومة متحضرة ، وجيش منظم ، فإنها لا بد سالكة طريقاً سريعاً متبعة

أقصر الطرق وأسهلها من بين الطرق الرئيسية ، حتى تستطيع النجاة من دائرة الحدود التى يمتد إليها النفوذ القانونى للقوة العسكرية التى تطاردها .
وكذلك الحال حين فر بنو إسرائيل من مصر منذ خمسة عشر قرناً قبل الميلاد . وكانت شبه جزيرة سيناء تضم فى ذلك الوقت طائفة من القوات المصرية ، كما كانت القبائل التى تعيش فيها تعتمد إلى حد ما على مصر اعتماداً عظيما ، فكان لا بد من أن تصلها الأوامر بتوجيه قواتها لمهاجمة بنى إسرائيل وإجبارهم على العودة ثانية . فكان بنوا إسرائيل مضطرين لذلك إلى الإسراع فى عبور سيناء من قبل أن تؤيد الفصائل العسكرية الموجودة بها بمزيد من المدد، ومن قبل أن تصل الأوامر إلى القبائل البدوية للوثوب عليهم . وقد كان إرسال المدد للقوات العسكرية ، وتأليب القبائل البدوية ، يستغرق شهراً على الأقل حتى يتم على وجه مناسب، فكان أمام بنى إسرائيل هذا القدر من المهلة كى يخلصوا من شبه جزيرة سيناء ... وكانت أسرع الطرق وأسهلها كى يخلصوا من منطقة النفوذ المصرى هى أن يتبعوا طريق التجارة الرئيسى الواصل بين مصر والطرف الشمالى لخليج العقبة » .

ثم يقول موسل :

« فإذا كان بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر فى شهر مارس وكانت كمية الأمطار فى ذلك العام غزيرة فلا بد إذن من أن يكونوا قد صادفوا فى شبه جزيرة سيناء عديداً من البرك المتخلفة عن الأمطار تشغل الحفر والمنخفضات التى توجد فى بطون الوديان . ولا بد من أنهم كانوا يستطيعون سقى مواشيهم ، وأن يملأوا أوعيتهم . وأما حيث يضطرون إلى الإعتماد على ماء العيون والآبار العميقة فإن ذلك يكلفهم مشقة بالغة . ونحن

لا نعلم موضع تلك العين التى سماها بنو إسرائيل « مارة » أى « مرة » إذ كان ماؤها زعاقاً . ولكنهم من مارة واصلوا سيرهم إلى « إيليم » .. فإذا اعتمدنا ما ذهبنا إليه من أن بنى إسرائيل قد درجوا فوق الطريق التجارى الرئيسى فيجب إذن أن نضع إيليم فى البقعة التى تجاور موضع « العقبة » جواراً مباشراً ، حيث توجد هناك مجموعة من العيون لاحصر لها . وإنى أقول إن إيليم هذه هى نفسها «بطمة فاران « سفرالتكوين ١٤ : ٦ » وهى بنفسها مدينة إيلوث أو إيلات القديمة التى يرد ذكرها فى سفر الملوك « ٩ : ٢٦ » .

ثم يقول موسل :

« ووفقاً لما ورد فى « سفر الخروج » ١٦ : ١ فإن بنى إسرائيل ساروا من مصر إلى إيليم — أى العقبة — فى غضون شهر .. أما من إيليم « سفر الخروج ١٦ : ١ » فإنهم قد دخلوا إلى برية سين التى تقع بين إيليم وسيناء » .. ثم يقول :

« ولما كنا على علم بالبقعة التى تقع فيها أرض مدين حيث يقوم جبل حوريب فإننا نستطيع أن نتبين إذن الاتجاه الذى سار فيه بنو إسرائيل بعد رحيلهم من إيليم ، فقد كانوا إذن لا يزالون يدرجون فوق الطريق التجارى الرئيسى ، فمضوا معه فى اتجاه جنوبى شرقى محاذين لساحل خليج العقبة — أول الأمر — ثم مبتعدين عنه بعد ذلك بمسافة قدرها خمسة وعشرون كيلو متراً . ووفقاً لهذا التفسير فإن المقصود بكلمة سين هو الإقليم الجبلى الواقع فى شرق خليج العقبة . وإن ذلك ليتفق مع ما ورد فى سفر القضاة « ١١ : ١٦ » إذ يذكر أن بنى إسرائيل بعد صعودهم من مصر قد دخلوا القفر حتى بحر سوف » ..

ثم يقول موسل :

« ويقص علينا « سفر الخروج ١٧ » كيف أن بنى إسرائيل قد ارتحلوا من برية سين إلى ريفيديم فلم يجدوا ماء ففجر موسى الماء من الصخر حينما ضربه بعصاه عند مكان قريب من حوريب ، وكيف أن هذا الماء كان يسمى مسة ومريبة ، وكيف أن العمالقة قد هاجموا بنى إسرائيل هناك » . .

ثم يقول أخيراً :

« وهكذا وفقاً لكل مصادرنا فإن حوريب كان يقع فى أرض مدين .. وجبل حوريب أو جبل سيناء هو الجبل الذى نزلت عليه التوراة » .

بعد هذا التحقيق لعالم أوروبى متخصص فى الدراسات الشرقية ، وقد كرس حياته لكثير من الأبحاث التى قام بها بنفسه فوق أماكنها الجغرافية ، والتى منها بحثه عن طريق خروج بنى إسرائيل من مصر ، والذى أثبت فيه — بنزاهة العالم غير المأجور لأحد — أن نزول التوراة كان على جبل سيناء بأرض مدين — تظهر طبيعة هذه الإدعاءات الساذجة التى قام بها الرهبان الفارين من العقبة وما حولها بعد سقوط البتراء سنة ١٠٦ فى يد الرومان الذين كانوا فى ذروة اضطهادهم للمسيحية ، وبعد فرار هؤلاء الرهبان من مصر والشام والعقبة التى كان من أسمائها فاران — إلى داخل شبه جزيرة سيناء وهى هذه الإدعاءات بأن الجبال التى فروا إليها هى جبال موسى ، والمناجاة ، فى وادى فيران وغيرها بمنطقة الطور ، حيث عززوا بهذه السذاجة الزعم الطامس للحقيقة

التاريخية وهو نزول التوراة على موسى بأرض مصر التى كان أكبر همه أن يفر منها بقومه .

أرضنا مقدسة :

والآن يلزم – بعد هذه الجولة وراء التحريفات الصهيونية ، لتطهير التاريخ الدينى ، والعربى ، من سمومها وآثارها وأهدافها ، أن نؤكد أنه بعد نزول القرآن الكريم فوق أعظم الأرض حرمة عند الله ، وقدسية عند العرب والمسلمين ، ومنذ كانت أرضنا العربية مهد الدين . وأرض الرسالات ، فإننا لا نزيد أرضنا المصرية قدسية بأن نضيف إلى تاريخ سيناء هذا الزعم بنزول التوراة على جبل لا يزال مجهولا من جبالها ، كما أننا لا ننقص أرضنا المصرية أى قدر من آلاء الله بها إلينا ، بحيث نراها فى أعيننا مقدسة ، وبخاصة أرض سيناء التى ينبغى أن نزيد من التعرف على نعمة الله التى لا تحد حين جعلها المدخل الطيب المبارك ، إلى أرضنا الطيبة المباركة :

أولا – إن أرضنا فى سيناء المصرية مقدسة لأنها كانت طريق المرور لكل موجات الهجرة العربية التى حملت منذ الملك مينا أسلافنا العرب الأبرار الذين قدموا ومعهم من خلال جميع العصور مقومات حضارة مصر المشرقة فى كل عصورها المتعاقبة حتى العصر الإسلامى ..

ثانياً – إن أرضنا فى سيناء مقدسة – لأنها كما شاء الله لها بالتكوين الطبيعى – هى مجمع طرق مصر الرئيسية التى تربطها قومياً وثقافياً وحضارياً بالأمة العربية ، من غير حدود حاجزة . تمنع رباط الوحدة المتجددة ، بينها وبين شقيقاتها من شعوب هذه الأمة .

ثالثاً — إن أرضنا فى سيناء مقدسة لأن الله سخر لنا فيها منذ آلاف السنين — هذه الموارد والثروات التى لا حصر لها فوق سطح الأرض ، وفى باطنها القريب ، وفى أعماقها ، والتى نراها تسبق الزمن أمامنا دائماً ، لتعزز من قدراتنا على متابعة الرخاء والعمران بأحدث وسائله ، وأعظم مقوماته ، فيتعزز بذلك فى وطننا ، وفى أمتنا ، وفى العالم ، أمننا وسلامنا وتقدمنـــا .

ولئن كانت إسرائيل قد حاولت بالكثير من البعثات الصهيونية المتعددة الأسماء والمهام أن تجمع الكثير من المعلومات الدقيقة عن الكثير من موارد سيناء الثمينة ، وبخاصة تلك البعثة الأمريكية التى دخلت سيناء سنة ١٩٣٨ من السويس تحت الإدعاء بأنها بعثة علمية للكشف عن طريق « خروج بنى إسرائيل » فلقد كانت مهمتها الحقيقية هى جمع أدق المعلومات عن جميع مصادر الثروة الأرضية والبحرية التى يمكن استغلالها عند « دخول إسرائيل » .. إلى سيناء ! .. لئن كانت إسرائيل قد حاولت ذلك ، وجمعت الكثير فعلا من هذه المعلومات عن موارد سيناء .. إلا أن ما تعرفه مصر بهيئاتها العلمية المتخصصة على أعلى المستويات تملك ما هو أكثر كثيراً من حقائق موارد سيناء التى ساعد البدو فى المعاونة على الكشف عنها بجهود فذة ..

ومن أجل ذلك .. فإن تحرير سيناء الذى دخل الإتفاقيات الأولى على طريق السلام العادل الذى سعى الرئيس السادات إلى تحقيقه هو واجب مقدس بالنسبة لشعب مصر ، وبالنسبة لجميع شعوب الأمة العربية ، التى تحمل معها جميعاً هذا الشعور المشترك بقدسية وطننا العربى الكبير ، الذى بدأت به منذ فجر التاريخ آية الحياة ، والدين الذى لا يتناقض مع العلم ، والعمل

الذى يتعزز به السلام .. والذى ظلت هذه الآية تمده بالحياة ، وتصقله بالابتلاء ، حتى نزل القرآن الكريم عزة للعرب ، ورحمة للعالمين .. وبهذا الكتاب المبين ، وأسوة رسول الله الأمين ، امتد الطريق رحباً أمام بقاء ونماء هذه الأمة العربية ، على وطنها الكبير ، وبغير نهاية إلى ما يشاء الله ، ورغم تحديات ومؤامرات كل أعدائها ، لتكون مع صحوتها إلى آيات الله فى كتاب الله ، وفى السماوات والأرض ، حجة الله بالدين ، ونوره بالعلم ، ورحمته بالسلام .. إلى ما شاء الله .

والله سبحانه يقول لهذه الأمة من محكم قوله لتسمع فى مراحل حياتها ، وتؤمن ، وتعمل ، وتستبشر :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »

الطور : آية ٢١

ويقول سبحانه وتعالى فى وعده المبشر لكل من أخلص دينه إليه ، ووعى محكم كتابه وعمل به :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً » .

النور : آية ٥٥

السؤال الخامس :

« ما هى أهداف الصهيونية العالمية من وراء زرع اسرائيل فى قلب الوطن العربى ؟ .. وماذا كان فى جعبة اسرائيل — بتوجيه الاستعمار والصهيونية العالمية — من وسائل خفية وظاهرة لتفتيت وتجزئة الأمة العربيـــة ؟

وفى المقابل ماذا لدى العرب من الوسائل العلمية ، وخاصة بعد انتصار رمضان المجيد للقضاء على أى تجدد لعناصر العـــدوان الأساسية فى المخطط الاسرائيلى التوسعى ، ثم للحفاظ على الحقوق المشروعة لشعبفلسطين ؟ » .

الإجابة :

تبدأ الإجابة عن هذا السؤال بالإشارة إلى ما سبق أن تناولناه فى الإجابة عن السؤال الثالث من مراحل نشأة الصهيونية العالمية المعاصرة بين اليهود الذين عاشوا شتاتهم السابق بعد سقوط الأندلس العربية فى أنحاء أوروبا المختلفة . وحيث يتضح من الإجابة أن جذور نشأة الصهيونية المعاصرة ترجع إلى نفس الجذور التى قامت عليها الصهيونية الأولى ، والتى كانت عبادة العجل الذهبى الذى حمله بنو إسرائيل معهم فى فرارهم من مصر هى البداية لها ، وهى الخطوة الأولى لحركة الخارجين منهم على شرائع أنبيائهم ، وبخاصة ما نزل على موسى ، الذى كان قوى العزيمة فى قيادتهم بحدود ما نزل عليه ، بغير تأويل أو تجاوز . .

ولقد كان من الطبيعى أن يقع صناع النظريات والأيدلوجيات الوهمية من أجيال الحركة اليهودية الصهيونية الأخيرة فى أوروبا ، فى قيد « نظرية » أو « إيدلوجية » تناسبهم ، وتبرر انسياقهم الغامض والغريب

وراء ما يضرهم وما يضر العالم — وإن كان لا يغير من سنن الله فيه .
من هذه الأوهام المسيطرة عليهم باستهداف فرض سيادتهم ومقرراتهم على كل شعوب هذا العـــالم ! .

وكما أوضحنا فإن هذه النظرية التي بدأت باستخدام كلمة « صهيون » و « أحباء صهيون » كانت تحمل الإشارة لحركة هذا التنظيم اليهودى فى أوروبا باتجاه فلسطين بوصفها فى الصهيونية نقطة البداية لحلمها بحكم العالم . وكلمة صهيون ولا شك تعطى التفسير للكثير من عوامل هذا الانسياق غير المتبصر لبذل الجهود والمخططات العدوانية التى لا جدوى منها فى آخر الأمر ، بعد الكثير من الضحايا ، والخسائر ، والأحقاد ، والضربات الموجهة للاخلاق والدين والسلام بين البشر .

أما كلمة « صهيون » فتأخذ أهميتها من كونها اسم التل المقدس عند بنى إسرائيل فى أورشليم القديمة . . وقد ارتبط اسم هذا التل بهيكل سليمان ، وفى هذا الهيكل اجتمع أمام هذا الفريق المتمرد على وصـــايا الشرائع والأنبياء كل ما يبهره ، وما يخطف بصره ، وما يراه جديراً بالعبادة وهو « الذهب » . . وهكذا أصبحت كلمة « صهيون » رمزاً مختصراً لهذا الانبهار ، ودلالاته المعقدة . .

وتصف بعض الكتب اليهودية هيكل سليمان « الذهبى » فتقول : « إنه كان يقوم فوق ربوة ، وكان يبدو فى شكل سياج مربع يضم عدة أجنحه . وفى صدر البناء الرئيسى مدخل كبير يبلغ ارتفاعه ١٨٠ قدماً وهو مرصع بالذهب . وكان الذهب يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل مثل السقف والأعمدة والأبواب والجدران والمصابيح . . وكان فيه

مائة حوض من الذهب ، وكانت الجواهر الثمينة ترصع أجزاء متفرقة منه ؛ كما ترصع تماثيل الملكين اللذين كانا يحرسان « قداس الأقداس » حيث استقر تابوت العهد الذى فيه — حسب قولهم — رمز يهوه رب أرض فلسطين » . .

هكذا أمكن الجمع بين المتناقضين فى هذه « النظرية الصهيونية » الوهمية ، وغير العلمية ، وغير الإنسانية ، وهما « الهيكل » أو المعبد ، حيث تجرى عبادة الله ، ويتجدد العهد بطاعة شرائعه ووصاياه ، ثم « الذهب » الذى فى سبيل الحصول عليه ، من أجل السيادة الباقية على البشرية ، تقع معصية الله ، رب الهيكل ، والشرائع التى تؤخذ على طاعتها العهود فى هذا الهيكل !

وفى هذا المعنى المتجدد بتناقضه فى الصهيونية المعاصرة ، كما فى الصهيونية الأولى ، قال المسيح عليه السلام لقادة تلك الصهيونية الأولى من الذين آذوه ، وكذبوه — كما جاء فى إنجيل متى « ٢٣:١٦» : « ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشىء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم . أيها الجهال والعميان أيما أعظم : الذهب أم الهيكل » !!؟

وأما أهداف هذه النظرية الصهيونية ، التى تم خلال مراحل مخططها الطويل اغتصاب أرض فلسطين — بلا جدوى — سنة ١٩٤٨ ، فيشرحها موسى هيس فى كتابه « روما وبيت المقدس » الذى أصدره سنة ١٨٦٢ فى واحدة من مراحل نشأة الصهيونية المعاصرة بها ، وذلك حيث يلخص أهداف هذه الصهيونية فى هدفين : الأول الاستيلاء على « القدس »

باغتصاب أرض فلسطين ، وما يتبع ذلك من تحقق « وعد السماء » أو ما هو فى الحقيقة تحريف أحبار الصهيونية لكلام الله بهذا الأدعاء بأن الله — تنزه سبحانه — قد أباح أرض العرب — فى وعده لإبراهيم — لتكون هذه الأرض « من النيل إلى الفرات » هبة منه لنسله من أبناء اسحاق وحدهم !

لقد جاء بسفر التكوين « ١٨:١٥ » : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » والمعنى الواضح لهذا الكلام أن الله أعطى هذه الأرض لنسل إبراهيم من أبناء اسماعيل وإسحاق معاً ، وليس لنسله من أبناء اسحاق وحدهم ، كما خدعت الصهيونية نفسها بذلك ، وحيث تجاهلت ما جاء بعد هذه الكلمات فى سفر التكوين من أسماء شعوب يسكنون هذه الأرض من بينهم الكنعانيون واليبوسيون ، وهؤلاء من أبناء اسماعيل على وجه التحقيق واليقين .

كذلك فإن هذه الأرض التى وعد الله بها إبراهيم لنسله من أبناء اسماعيل الأكثر عدداً ، وأبناء اسحاق الأقل عدداً ، قد اتسعت فى وعد الله لإبراهيم حتى أصبحت من الخليج إلى المحيط ، وأنه على هذه الأرض كثيراً ما عاش اليهود من أبناء اسحاق ويعقوب مع أبناء عمهم العرب من أبناء إسماعيل ، حياة الأمن والحرية والعيش الرغد طوال كل المراحل التى كانت تعاودهم فيها حالة النقاهة من عصاب « التحريف » لوعود السماء ! .

وأما الهدف الآخر بعد الاستيلاء على القدس وفلسطين وأرض العرب فهو فيما كشف به موسى هيس فى كتابه عن طبيعة الحركة الصهيونية — من وجهة

نظر قادتها — أن تتم السيادة الصهيونية على جميع الشعوب الأوروبية المسيحية ، وبذلك تنقل الحكومة الصهيونية مقرها من « القدس » لتنتقل إلى مقرها الجديد والأخير فى « روما » وحيث يتعاقب على عرش هذه المملكة الخرافية ، وبعد خراب كل العالم ، ملوك لكل هذا العالم المدمر من نسل داود ، وكل ملك منهم سيكون فى نفس الوقت هو الأب المقدس لكل من فى هذا العالم ! !

صورة من أحلامهم :

وننشر فيما يلى على سبيل التحقق من طبيعة الحركة الصهيونية المعاصرة التى نشأت باسم الدين لتتناقض مع أبسط شرائع الدين ، والتى ترددت بغير تبصر فيما ترددت فيه من الأوهام والأحلام ، ومن المخططات ، والتوعدات ، التى ترتكز بخوارها وخورها على عبادة الذهب ، والعجل الذهبى — ننشر فقرات من هذه الخطبة السرية التى ألقاها فى مدينة براغ سنة ١٨٦٩ الحاخام ريخون ، أحد قادة الصهيونية المعاصرة فى إبان نشأتها فى أنحاء أوروبا . . .

يقول ريخون فى ذلك الاجتماع المغلق من خطبته السرية التى تم العثور على نسخة منها فيما بعد :

« إذا كنا قد انتشرنا فى العالم فلأن العالم كله ملك لنا . . منذ قرون عديدة حارب حكماؤنا الصليب بشجاعة وعزيمة لا تغلبان . إن شعبنا يخطو شيئاً فشيئاً إلى القمة ، وفى كل يوم تزداد قوتنا . نحن نمتلك إله العصر . ذلكم الإله الذى أقامه لنا هارون فى الصحراء . إنه العجل الذهبى الذى عبدناه ، والذى هو اليوم إله العالم أجمع » . .

ثم يمضى الحاخام ريخون فى خطبته فيقول :

« كانت القرون الثمانية عشر الماضية لأعدائنا ، ولكن القرن الحالى والقرون المقبلة ستكون لنا . . إن ثروة أوروبا كلها من الأموال فى أيدى اليهود ، ولسوف نمسك بالتجارة فلا تخرج من أيدينا ، ولسوف نضارب ونحتكر تجارة الخمر والحبوب والدقيق وجميع المواد الغذائية لنتحكم فى بطون جميع أعداء اليهود . . » !

ثم يقول :

« وإذا كان الذهب هو القوة الأولى فإن الصحافة هى القوة الثانية ، وعلينا أن نستولى على الصحافة بواسطة الذهب . . . وحينما نسيطر على الصحافة سنسعى جاهدين إلى تحطيم الحياة العائلية ، والأخلاق ، والدين والفضائل » ! !

ونكتفى بهذا القدر من توعدات ريخون التى كشف عنها العالم ، والتى إن أصابت بعض الشعوب ببعض الأضرار ، فإنها تصيب اليهود ، العقلاء منهم وغير العقلاء ، والصهاينة منهم وغير الصهاينة ، بأكثر الأضرار . .

انتصار السلام على العدوان :

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى بعد نحو قرنين من بداية نشأة الصهيونية المعاصرة فى أوروبا ، واستكمالها قوتها ، وزحفها المتواصل وفق المراحل التى سجلتها فى مخططها — وبعد ثلاثين عاماً من نجاحها فى اغتصاب أرض فلسطين ، وإقامة دولة إسرائيل . . شاء الله سبحانه وتعالى أن يوقف هذا الزحف ، وهو يوقظ العرب فى صحوة جادة لحقوقهم ، ويحرك انتباه

العالم المتحضر والمتقدم إلى استحالة مشاركته فى ضياع هذه الحقوق ، مع حاجته إلى السلام ، ومع حاجته الشديدة إلى ما بأيدى العرب من موارد . . لقد شاء الله تعالى أن يهيئ لانتصار السلام على العدوان ، وللتبصر على التهور ، ولحقائق الحاضر وآمال المستقبل على بعض أوهام الماضى ، وليس حقائق الماضى . . وذلك عندما شرح صدر الرئيس محمد أنور السادات لزيارة خصومه ، وخصوم الأمة العربية ، المغتصبين لأجزاء غالية ومقدسة من أرضها ، وذلك فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ عندما قام بزيارته الشجاعة والمفاجئة للقدس ، وعندما قدم أمام الحكومة الإسرائيلية ، وعلى مسمع من الشعب الإسرائيلى ، ومع لقاء حار له بأبناء الشعب الفلسطينى فى القدس — هذه الخطوط الأولى لمبادرته للسلام العادل الذى يحفظ لجميع أصحاب الحقوق المشروعة حقوقهم ، ويردها إليهم ، ويؤمن لهم أن لا تنتزع بعد ذلك منهم ، وبذلك يتوقف إلى أمد بعيد ، إن لم يكن إلى آخر الزمان ، هذا الصراع المسلح بين العرب وإسرائيل ، فيتوقف معه سفك الدماء ، وقتل الأبرياء . . لكى ينشط صراع سلمى ، وسباق حضارى ، لبناء الحياة ، واحترام حق الحياة ، بين العرب وإسرائيل بقدر مايكون حرص إسرائيل واحترامها لهذا السلام.

نقطة التحول :

فى ضوء هذه المبادرة الشجاعة التى هزت ضمير العالم ، وهى تفاجئه باحتمالات السلام ، حيث لم يكن أحد يتصور احتمال قيام ورسوخ هذا السلام العادل ، بعد قتال وضحايا حروب ضارية تعاقبت خلال ثلاثين عاماً ، وحيث تمتد اليد العربية بالدعوة إلى هذا السلام العادل من مركز القوة بجيشها وشعبها بعد انتصار رمضان المجيد ١٣٩٣ — فى ضوء هذه

المبادرة الشجاعة وآثارها المتلاحقة فى العالم ، بدأت نقطة التحول من الحرب إلى السلام ، ومن صراع التدمير إلى سباق التعمير ، تنمو بمسارها الجديد ، على طريق التفاوض الذى انتهى آخر الأمر إلى مؤتمر كامب ديفيد ، وإلى هذه البداية الجديدة لترسيخ هذا السلام العادل بهـــذه الاتفاقيات المبدئية التى وقعتها مصر وأمريكا وإسرائيل فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ ، وهى الاتفاقيات التى يتمثل فيها الإطار لهذه المبادىء والأهداف الأساسية لهذا السلام العادل ، والتى يتحرك فيها استمرار التفاوض وبذل الجهود فى سبيل الاتفاق الشامل والنهائى بغير تجاوز أو تسويف ، على هذه الأهداف النهائية ، وفى رأسها تحرير القدس العربية ، والتى صرح بشأنها الرئيس السادات قائلا إن للعرب « حقوقاً تاريخية » فى القدس ، ولن نفرط فى هذه الحقوق ، ولسوف نتوصل إليها مع غيرها من ركائز السلام الشامل إن شاء الله .

إعادة البناء بالعلم والإيمان :

فى بعض الحملات الإعلامية الصهيونية على العرب التى ظهرت فى الخمسينيات رواية خرافية باسم « الخروج » — للكاتب الإنجليزى الصهيونى ليون أوريس يصور فيها العربى بأنه : إنسان بلا قضية . . ذلك لأن هذا الإنسان فى زعمه عنده القليل من الأشياء ليعيش من أجلها . . والأقل من ذلك ليقاتل من أجله ! !

ولقد جاءت مفاجأة مبادرة السلام للرئيس السادات ، وما تلاها من تحقق بوادر انتصارها العالمى بهذا الإطار المبدئى للسلام العادل والشامل كما تقررت فى كامب ديفيد ، لتؤكد لأمثال هؤلاء الدعاة المضللين والضالين فى نفس الوقت ، وبعد الانتصار المجيد للمقاتل العربى على

الجيش الإسرائيلى فى معركة رمضان — أن القضية الأعظم جهداً والأشرف قدراً ، والأمضى سلاحاً ، كانت قضية عربية بهذا الكفاح المتواصل للإنسان العربى من أجل السلام العادل ، الذى يتيح لكل الشعوب ، من غير نظريات عدوانية ، وأوهام عصابية ، أن تعيد على أرضها بناء حياتها ورخائها وتقدمها . .

ولقد أعلن الرئيس السادات لشعب مصر ، وللعالم ، عن هذه المرحلة الأولى — التى تبدأ فى ظل مسيرة المفاوضات من أجل استكمال الاتفاق الشامل على مبادىء السلام العادل — من إعادة بناء مصر فى كل المجالات التى تحقق لها التقدم الاقتصادى بجهود أبنائها ، وبتنظيم وتوحيد وتنمية هذه الجهود المتكاملة من أجل الاستثمار الواسع لكل الموارد التى منحها الله لها ، والتى ظلت فى غمرة السنوات الماضية بعيدة عن الأنظار ، مع أنها فى مثل « الوادى الجديد » تقدم الخير ورخاء مصر ، ولأمنها الغذائى ، أرضاً زراعية أجود من الأرض التى يزرعها فلاحوها الآن ، فى نفس الوادى الضيق الذى زرعه أسلافهم منذ آلاف السنين . .

ولقد أكد الرئيس السادات أيضاً أن هذه المسيرة نحو السلام العادل الشامل ستبقى مع إعادة بناء مصر نحو الرخاء الكامل متحصنة بهذة القوة القتالية لشعب مصر ، وجيش مصر ، والتى تظل يقظة دائماً لحماية السلام وليس للعدوان على السلام ، بكامل أهبتها ، وأسلحتها ، ووفرة عددها ، مع استمرار عملية البناء بالعلم والإيمان . .

وأخيراً نقول : الحمد لله . . لسوف تتوقف أوزار الحرب إلى أمد بعيد ، وها هو ذا شبح الصراع المسلح يتوارى بعيداً ، خزيان فى أثوابه المخضبة بدم الأبرياء ، ينظر عبر الظلام إلى مواكب السلام فى النور ،

ومعه الدين ، والأخلاق ، والعمل الجاد ، والأمل المشرق ، والشباب المتفائل ، والعدل المستقر ، ليستمر هذا العمل الدائب من أجل إعادة بناء الحياة الكريمة لشعب دفع غالياً ثمن هذه الحياة ، فوهبه الله على طريق السلام العادل أعظم الانفتاح على أكرم صور هذه الحياة .

والله سبحانه وهو « الملك القدوس السلام » الذى كرم السلام بأحد أسمائه الحسنى ، يوصينا بأيثار السلام والحفاظ عليه فى قوله تعالى :

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »

الأنفال : ٦١

وهكذا توكلنا على الله بعد حرب طويلة مع إسرائيل ، وأقبل شعب مصر على عصر السلام العادل وراء قيادة الرئيس السادات ، متوكلا معه على الله . .

توكلنا على الله :

نعم . . . لقد توكلنا على الله ، لأنه كان لابد لمصر بهذا السلام أن تتدارك وحدتها الإقليمية بسيناء من التمزق والضياع — إذا ما تحقق لإسرائيل وهى تزرع بها المستوطنات ، وتسلحها ، وتهود الأرض المصرية ، وتمحو المعالم ، وتطارد وتستأصل بقية سكانها المصريين — أن تقتلع بمرور الزمن ، وبقوة الأمر الواقع ، هذا الإقليم الغالى والمقدس من أرض مصر .. أن تنتزع سيناء التى هى بالنسبة لمصر الوادى ، ومنذ فجر الزمان : مجمع الطرق المفتوحة على المشرق العربى ، وهى الحصن ، والدرع ، والمنجم ، والمستقبل . . هى الأرض الرحبة الغنية ، التى كانت تجيش بالملايين من السكان المصريين — البدو والحضر — منذ بداية العهد الإسلامى . . والتى لا مناص لمصر — لكى تعيش قدرات السلام والحرب معاً — من أن تعمرها فوق مواردها الوافرة ، لكى تتسع لهؤلاء الملايين من المصريين ، الذين سوف يعيشون عليها ، إن شاء الله ، فى رباط دائم لحماية تحديات السلام ، ومعارك الرخاء .. والصراع السلمى ،ومستقبل الأجيال القادمة . .

كذلك فقد توكل شعب مصر على الله ، لأنه يعلم يقيناً ، ومن خلال مواجهته لأحكام الأمر الواقع ، بالتحرك الشجاع لتصحيح مسيرة هذا الواقع — إن توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل ليس — بعد عودة سيناء الحيوية إلى مصر — هو نهاية الطريق المسدود فى وجه قيام وحدة وتضامن الشعوب العربية ، من أجل مستقبل أفضل للعرب فى هذا العالم ، وإنما هى بداية الطريق المفتوح إن شاء الله إلى هذه الوحدة . .

وكذلك فإننا فى مصر قد توكلنا جميعاً على الله ، وراء خطى السلام التى خطاها الرئيس السادات ، وهو يصحح آثار واقع « التدابر » العربى على مصر ، ونحن نعلم أننا بهذا السلام العادل والمشروط مع إسرائيل ، لا نغفل عن احتمالات الحرب ، ولكننا نعطى الحرب فقط ظهرنا من أجل استمرار السلام ، بينما ونحن فى أهبة كاملة للقتال — نبنى بهذا السلام الرخاء لبلادنا ، ونعيد للحياة عليها ما فاتها من خيراتها وخيرات العصر ، ومن علوم وتقدم هذا العصر ، بقدر ما تكون إسرائيل وفية ومحافظة لعهد السلام الوثيق مع مصر ، ومع الأشقاء العرب لمصر . .

فمن ذا الذى يلوم بعد هذا شعب مصر ، فى توكله بخطوة هذا السلام العادل على الله ، والله سبحانه هو نعم القائل :

« وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً » الأحزاب : آية ٣

أسماء أوائل الفائزين المشتركين فى العـدد السادس

الأسماء مرتبة ترتيباً أبجدياً

م	الاســـم	المهنـة	الفرع أو الإدارة
١	إبراهيم إبراهيم السباعى	محـاسب	الإدارة المالية
٢	إبراهيم حسن إبراهيم علام	طالب بمركز التدريب	فـرع شبرا
٣	أحمـد فهمى أبو النـور	محـاسب	فرع القناة وسينا
٤	أحمـد متولى عيـد	أمين مخزن	عمليـات فرع القاهرة
٥	إسمـاعيل عبد القادر إبراهيم	سـائق	كسارة الهرم – إدارة الطرق
٩	السيد البيومى رابعـة	موظف عاملين	فـرع القاهـرة
٧	السيد عبد العزيز محمد	بـراد أول	فـرع حلوان
٨	أمـين سيد أحمد الشورى	مشرف فنى	فـرع طنطا
٩	أمين محمـد أمـين صبور	موظف عاملـين	الإدارة العقارية عدلى
١٠	جابر عبد المـولى	سـاعى	الإدارة الإدارية
١١	جـلال عبد اللطيف الخواصى	موظف	الفنية والتنفيذ
١٢	جمـال أنـور أحمـد	أمين مخزن	إدارة التركيبـات
١٣	جـمال عبد المطلب عبد الحليم	مشرف تنفيذ	القناة وسينـا
١٤	حامـد عبد المقصود طنطاوى	موظف عاملين	إدارة شئون العاملين عدلى
١٥	حسن أحمـد شاهين	محاسب	الترسانة البحرية الإسماعيلية
١٦	حسـنى محمـد سالم	عسـكرى	إدارة التركيبـات
١٧	حسنين أحمـد حسنين	محـاسب	إدارة التركيبـات
١٨	حمـدى محمـد عبد الله	موظف عاملين	إدارة التركيبات

١٩	حنفي محمد عيسوى	رئيس شئون عاملين	فرع حلوان
٢٠			
٢١	زكريا محمد الطباخ	مشرف أمين	فرع الإسكندرية
٢٢	سعيد محمد محمد حسنين	موظف	إدارة المشروعات . المراجعة
٢٣	سمير عبد الرحمن الساكت	مشرف أمن	إدارة الأساسيات
٢٤	سيد فهمى محمد	موظف	فرع حلوان
٢٥	شعبان سعد عطية	أمين مخزن	فرع القناة وسينا
٢٦	ضحاوى محمد ضحاوى على	سائق	إدارة المشتريات الهلال
٢٧	صلاح الدين عبد الغنى السيد	موظف عاملين	الإدارة العقارية عدلى
٢٨	صلاح الدين محمد عبد الوهاب	مراجع	بإدارة المراجعة الداخلية
٢٩	عبد الجليل عبد المتجلى عزب	براد	إدارة التركيبات
٣٠	عبد الحافظ فوزى عبد الحافظ	مهندس	فرع القاهرة
٣١	عبد الحميد بن الإمام عطعوط	أمين مخزن	فرع شبرا
٣٢	عبد الحكيم محمد أحمد	أمين مخزن	الفيوم – فرع القاهرة
٣٣	عبد الحميد أحمد عبد الحميد	أمين مخزن	إدارة التركيبات
٣٤	عبد الراضى حسن عبد السلام	مشرف حراسات	فرع حلوان
٣٥	عبد السلام السيد محمد	م. أوناش	البيوت الجاهزة فرع القاهرة
٣٦	عبد العزيز عبد الحميد عبده عطية	فنى لا سلكى	كسارة الهرم – الأقسام المنتجة
٣٧	عبد الفتاح أحمد خطاب	موظف عاملين	فرع حلوان
٣٨	عبد الله حسين محمد البراوى	أمين خزانة	عملية الفيوم – فرع القاهرة
٣٩	عبد المهدى عبد الله الخولى	موظف	إدارة المشتريات
٤٠	عبد القادر عثمان إسماعيل	مبلط تدريب	الأقسام التكميلية

تابع أسماء الفائزين المشتركين فى العدد السادس الأسماء مرتبة ترتيباً أبجدياً

م	الاســـم	المهنـة	الفرع أو الإدارة
٤١	علاء الدين عبد الرازق محمد	موظف شئون	عاملين الإدارة العامة
٤٢	عمر فتحى مبروك	مشرف تنفيذ	فرع حلوان
٤٣	فرج محمود أبو طالب		عملية الفيوم – فرع القاهرة
٤٤	مصطفى على إبراهيم	م . أمين مخزن	فرع طنطا
٤٥	مصطفى كامل سليمان	أمين مخزن	مدينة نصر
٤٦	محمد إبراهيم سيد أحمد	موظف	مدينة نصر
٤٧	محمد أحمد عبد الغنى الشبراوى	براد	إدارة التركيبات
٤٧	محمد أحمد عبد الغنى الشبراوى	براد	إدارة التركيبات
٤٨	محمد أحمد محمد عبد الله	ميكانيكى	فرع شبرا
٤٩	محمد حسين خلف	مشرف تنفيذ	إدارة التركيبات
٥٠	محمد عبد الحفيظ على	لحـام	إدارة التركيبات
٥١	محمد عزت محمد عبد التواب	فرمجى بلاط	تدريب – الأقسام التكميلية
٥٢	محمد عطوة عبده عطوة	مشرف أمن صناعى	فرع حلوان
٥٣	محمد ممدوح عمر لطفى	مهندس	فرع القاهرة

محتويات بحوث العدد السادس

القســـم الرابع

القرآن الكريم والتدبر :

ويجيب عنه الدكتور إبراهيم هلال الأستاذ بكلية بنات جامعة عين شمس .

إجابة السؤال الأول :

صفحة

صفحة

القســـم السادس

القرآن الكريم وبنو إسرائيل :

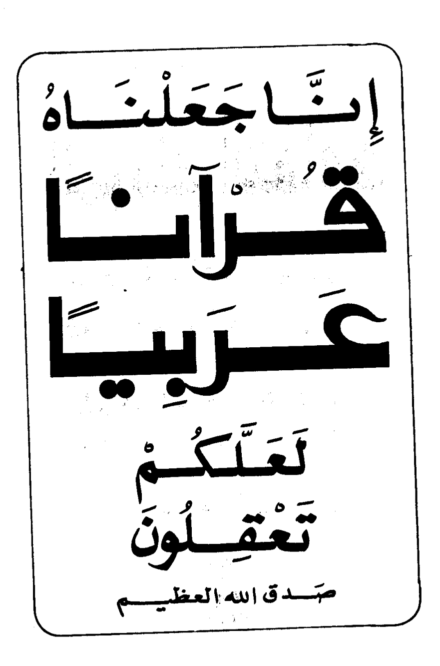
ويجيب عنه المفكر الإسلامي الأستاذ أحمد موسى سالم
محرر الشئون الدينية بجريدة الأخبار

صفحة

مستبعدة بقدر اطمئنان إسرائيل إلى أمنها ، وبقدر اطمئنان العرب ، وفى مقدمتهم مصر ، إلى وفاء إسرائيل بعهودها والتزاماتها ، وبقدر تزايد القوة المصرية فى جميع المجالات فى عهد السلام الجديد ، حيث تتوحد جهود **شعب مصر** — متوكلا على الله — للعمل من أجل الرخاء وإعادة بناء الحياة. ٤٠٢

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٨/٤٤٣٤




إِنَّا جَعَلْنَاهُ
قُرْآناً
عَرَبِياً
لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ
صدق الله العظيم